العقل المدبر في المريخ

إدجار رايس بوروز

◆ المؤلف: إدجار رايس بوروز
◆ العنوان : العقل المدبر في المريخ
◆ ترجمة: شهرت العالم
◆ طبعة آفاق الأولى 2020
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٩ / ١٣٤٨٢
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 217 - 9

جميع الحقوق محفوظة؛ لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال؛ دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

إدجار رايس بوروز

العقل المدبر في المريخ

رواية

ترجمة

شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

بوروز، إدجار رايس.

إدجار رايس بوروز : العقل المدبر في المريخ

ترجمة: شهرت العالم

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2020

224 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 13482 / 2019

الترقيم الدولي 9 – 217 – 765 – 977 – 978

1 – الأدباء (روايات)

2 – بوروز، إدجار رايس

الفصل (١)

رسالة

هيليوم،[١] في ٨ يونيو ١٩٢٥

عزيزي السيد بوروز:

تعود بداية تعرفي على جون كارتر، أمير الحرب في برسوم[٢]، إلى خريف عام ١٩١٧ في معسكر لتدريب الضباط، من خلال صفحات روايتك «أميرة المريخ». لقد تركت القصة عندي انطباعًا عميقًا؛ وعلى الرغم من تأكدي أنها رواية تتمتع بخيال بارع، فقد تسلل إيحاء بصدقها إلى وعيي الداخلي، إلى حد أنني وجدت نفسي أحلُم بالمريخ وجون

(١) هيليوم: إحدى الممالك الكبرى في برسوم/ المريخ – *http://barsoom.wikia.com/wiki/He-lium* – المترجمة.

(٢) برسوم: كوكب يسميه أهل كوكب الأرض بالمريخ – *http://barsoom.wikia.com/wiki/Barsoom* – المترجمة.

كارتر[٣]، وديجاه ثوريس[٤]، وتارس تاركاس[٥]، ووولا[٦]، كما لو أن وجودهم ينتمي إلى تجربتي وليس من نسج خيالك.

صحيح أن الوقت المتوفر للحلم كان ضئيلًا في تلك الأيام من الاستعدادات الشاقة، فقد كانت تستدعيني لحظات قصيرة قبل النوم ليلًا، وهذه كانت أحلامي. ويا لها من أحلام! تدور دائمًا حول المريخ. وتسعى عيناي دائمًا، خلال ساعات الاستيقاظ في الليل، نحو الكوكب الأحمر عند وجوده فوق الأفق وتتشبث به في محاولة لإيجاد حل للغز المُبهم الذي طرحه المريخ على مدى عصور على سكان كوكب الأرض.

ربما أصبحت المسألة هوسًا. أعرف أنها تملكتني خلال أيامي في معسكر التدريب، وليلًا على سطح سفينة النقل، حيث كنت أستلقي على ظهري لأحدِّق في عين إله الحرب الحمراء -يا إلهي- وأتمنى أن أُسحب عبر الفراغ الهائل، مثل جون كارتر، إلى ملاذ رغبتي.

ثم توالت أيام وليالٍ بشعة في الخنادق -الفئران، الحشرات،

---

(٣) جون كارتر: من فرجينيا، وهو أول رجل من كوكب الأرض يصل إلى المريخ، وأصبح أحد أعظم أمراء الحرب في تاريخ المريخ - *https://barsoom.fandom.com/wiki/John_Carter* - المترجمة.

(٤) ديجاه ثوريس: أميرة مملكة هيليوم، وهي زوجة جون كارتر (القادم من كوكب الأرض) - *http://barsoom.wikia.com/wiki/Dejah_Thoris* - المترجمة.

(٥) تارس تاركاس: قائد جماعة ثارك، من المريخيين الخُضر، وحليف جون كارتر - *https://barsoom.fandom.com/wiki/Tars_Tarkas* - المترجمة.

(٦) وولا: هو اسم الكلب المريخي لدى جون كارتر وعائلته - *https://barsoom.fandom.com/wiki/Woola* - المترجمة.

والطين- مع انقطاع رائع للرتابة أحيانًا عندما تصدر لنا الأوامر للصعود أعلى الخنادق. أحببت ذلك الوقت، وأحببت انفجار القذائف، والفوضى الجامحة المجنونة للمدافع الهادرة... لكن الفئران والحشرات والطين- يا إلهي! كم كرهتهم. يبدو كأنني أتفاخر، أعلم ذلك، وأنا آسف؛ لكني أردت أن أكتب لك مجرد حقيقة نفسي. أعتقد أنك ستفهم. وقد يفسر الكثير مما جرى بعد ذلك.

وحدث لي أخيرًا ما كان يحدث للعديدين غيري في تلك الحقول الدموية. حدث في غضون أسبوع حصولي على ترقيتي الأولى وأصبحت نقيبًا «كابتن»، وشعرت بفخر كبير، على الرغم من تواضع ذلك؛ إذ أدركت، كما فعلت في شبابي، حجم المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقي، فضلًا عن الفرص التي منحتها لي، ليس لخدمة بلدي فحسب، وإنما أيضًا بشكل شخصي، للرجال تحت قيادتي. لقد تقدمنا لمسافة تبلغ حوالي كيلومترين، وكنت أحتل مع كتيبة صغيرة موقعًا متقدمًا جدًّا عندما تلقيت أوامر بالعودة إلى الخط الجديد. هذا آخر ما أتذكره، إلى أن استعدتُ وعيي بعد حلول الظلام. من المؤكد أن قذيفة انفجرت بيننا. لم أعرف أبدًا ماذا حل برجالي. كان البرد شديدًا والظلام حالكًا عندما استيقظت، وشعرت للحظة في البداية براحة كبيرة -قبل أن أُفيق تمامًا، كما أتصور- ثم بدأت أشعر بالألم. ألمٌ يتعاظم إلى أن أصبح لا يُطاق. وكان في ساقي. مددت يدي لأتحسس ساقي، لكن يدي ارتدت مما وجدته، وعندما حاولت تحريك ساقي اكتشفت أنني ميت من الخصر إلى أسفل. ثم ظهر القمر من خلف سحابة، ورأيت

أنني أرقد داخل حفرة قذيفة، وأنني لست بمفردي - القتلى حولي في كل مكان.

مضى وقت طويل قبل أن أجد الشجاعة النفسية والقوة البدنية لأرتكز على كوع واحد، بحيث يمكنني رؤية الإصابات التي لحقت بي. نظرة واحدة كانت كافية، ثم غرقت ثانية في عذاب الكرب النفسي والبدني- لقد تمزقت ساقاي من منتصف المسافة بين الوركين والركبتين. ولسبب ما لم أكن أنزف بإفراط، لكني عرفت أنني فقدت قدرًا كبيرًا من الدماء، وما زلت أفقد تدريجيًّا ما يكفي لوضع نهاية لبؤسي خلال وقت قصير إن لم يجدني زملائي قريبًا. وكنت أصلي، وأنا راقد على ظهري أتعذب من الألم، متمنيًا ألا يأتوا في الوقت المناسب؛ فقد كانت فكرة العيش قعيدًا تخيفني أكثر من فكرة الموت. وفجأة تركزت عيناي على عين المريخ الحمراء الساطعة، وعندئذ تدفقت داخلي موجة مفاجئة من الأمل. مددت ذراعي نحو المريخ، دون أن أتساءل أو أتشكك للحظة خلال صلاتي إلى إله مهنتي أنه سيصل لنجدتي. كنت أعرف أنه سيفعل، وكان إيماني كاملًا. بذلت جهدًا ذهنيًّا هائلًا للتخلص من الأربطة البشعة في لحمي الممزق، بحيث شعرت بلحظة خاطفة من الغثيان ثم نقرة حادة تشبه تحطم أسلاك الفولاذ، وفجأة وقفت عاريًّا على قدمين غير مصابين وأنا أنظر إلى أسفل، إلى الشيء الدموي المشوه الذي كان ... أنا. وقفت هكذا لمجرد لحظة قبل أن أرفع عيني ثانية إلى نجمة مصيري، وذراعاي ممتدتان هناك في برودة تلك الليلة الفرنسية - انتظارًا.

وفجأة شعرت أنني مسحوب بسرعة التفكير عبر الامتداد الشاسع

غير المطروق في الفضاء الواقع بين الكواكب. مررت بلحظة من البرودة القصوى والظلام المطلق، ثم ....

يوجد الباقي في المخطوطة التي تمكنت، بمعونة شخص أكبر من كلينا، أن أعثر على وسيلة لنقلها إليك مع هذه الرسالة. سوف تُصدق أنت وعدد قليل آخر مُختار ما ورد بها – أما بالنسبة للباقين، لا يزال الأمر لا يثير اهتمامهم حتى الآن. سيأتي الوقت – ولكن، لماذا أقول لك ما تعرف بالفعل؟

أبعث لك بتحيتي وتهنئتي؛ تهنئتي على حسن حظك لأنك مُختار كوسيط يمكن خلاله أن يصبح سكان كوكب الأرض أفضل معرفة بعادات وتقاليد برسوم، طوال فترة مرورهم عبر الفضاء بسهولة مثل جون كارتر، وزيارة المشاهد التي وصفتها لهم، مثلما حدث معي.

صديقك المخلص:
أوليسيس باكستون
كابتن راحل– المشاة
الجيش الأمريكي.

الفصل (٢)

بيت الموتى

من المؤكد أنني أغلقت عيني لا إراديًّا خلال رحلة الانتقال؛ إذ عندما فتحتهما وجدت نفسي راقدًا على ظهري محدقًا في سماء رائعة تُضيئها الشمس، بينما يقف على بُعد عِدة أقدام قليلة شخص غريب المظهر لم تقع عيناي على مثله أبدًا، وينظر نحوي بتعبيرات شديدة الغرابة. كان يبدو رجلًا عجوزًا جدًّا، حيث فاقت تجاعيده وذبوله الوصف. كانت أطرافه هزيلة، وتظهر ضلوعه بوضوح تحت جلده المنكمش، وجمجمته كبيرة ونامية، منحته مع أطرافه الهزيلة وجذعه مظهر الضخامة من أعلى، كأنما يتجاوز رأسه كل تناسب مع جسده، على الرغم من أنهما متناسبين، كما يمكنني أن أؤكد.

عندما أخذ يحدق نحوي خلال نظارته الضخمة متعددة العدسات، انتهزت الفرصة كي أفحصه أنا أيضًا بدقة. ربما يبلغ طوله خمسة أقدام، لكنه كان أطول في شبابه دون شك، إذ كان منحنيًا إلى حد ما؛ وكان

عاريًا باستثناء بعض الأغطية الجلدية العادية البالية التي تدعم أسلحته وجيوب حقيبته، ويتزين بقلادة كبيرة مزخرفة، مرصعة بالجواهر، حول عنقه الضامر – قلادة يمكن لأرملة ورثت إمبراطورية خنازير أو عقارات أن تبيع روحها، إن امتلكت روحًا، للحصول عليها. كانت بشرته حمراء، وخصلات شعره الضئيلة رمادية. وخلال نظراته نحوي، زادت تعبيراته المتحيرة، وأمسك بذقنه بين إبهام وأصابع يده اليسرى، ورفع يده اليمنى ببطء ليحك رأسه عمدًا. ثم أخذ يكلمني، وإنما بلغة لم أفهمها.

مع كلماته الأولى، جلست وهززت رأسي. ثم نظرت حولي. وجدتني جالسًا فوق مرجة قرمزية داخل حظيرة ذات أسوار عالية، يتشكل جانبان منها على الأقل، وربما ثلاثة، بالأسوار الخارجية لبناء يماثل في بعض النواحي قلعة إقطاعية في أوروبا أكثر من أي شكل آخر مألوف من أشكال الهندسة المعمارية التي تتبادر إلى ذهني. أما واجهة المبنى أمامي، فقد كانت منحوتة بشكل زخرفي وبتصميم غير نظامي؛ حيث كان خط السقف متكسرًا بما يشير تقريبًا إلى التدمير، إلا أن البنية بمجملها بدت متناغمة ولا تخلو من جمال. ينمو داخل الحظيرة عدد من الأشجار والشجيرات، تبدو كلها غريبة، كما تزدهر جميعها، أو تقريبًا جميعها، بغزارة. وتوجد بينها مسارات من حصى ملون، تتلألأ خلالها جواهر نادرة وجميلة، يا لروعة تلك الأشعة السماوية الغريبة التي تقفز وتلعب في ضوء الشمس.

تكلم العجوز مرة أخرى، وبحزم هذه المرة، كأنما يكرر أمرًا أصدره وقُوبل بالتجاهل. لكني هززت رأسي ثانية. وعندئذ وضع

يده على أحد سيفيه. وما إن سحب سلاحه، قفزت واقفًا على قدمي على نحو مدهش بحيث لا أستطيع إلى الآن أن أحدد من منا كانت مفاجأته أكبر. لا بد أنني أبحرت لعشرة أقدام في الهواء وعُدت على مسافة حوالي عشرين قدمًا من حيث كنت أجلس؛ وتيقنت أنني على سطح المريخ، ليس لأنني تشككت للحظة في ذلك، وإنما بسبب تأثير الجاذبية الأقل، ولون المرجة، ولون بشرة المريخي الأحمر، التي قرأت وصفها في مخطوطات جون كارتر- تلك المساهمات الرائعة التي لم تنَل تقديرًا بعد في مؤلفات العالم العلمية. ما من شك أنني أقف على تربة الكوكب الأحمر، لقد أتيت إلى عالم أحلامي- إلى برسوم.

ذُهل العجوز برشاقتي حتى إنه قفز قليلًا، وإن كان لا إراديًّا دون شك، لكنه حقق بعض النتائج. هوت نظارته من فوق أنفه إلى المرجة، واكتشفت عندئذ أن هذا البائس العجوز المثير للشفقة يصبح أعمى عمليًّا عندما يُحرَم من هذه المُعينات الاصطناعية اللازمة للرؤية؛ إذ ركع على ركبتيه وبدأ يتلمس بشكل محموم نظارته المفقودة، كما لو أن حياته تتوقف على العثور عليها في تلك اللحظة. ربما تصور أنني قد أقتنص فرصة عجزه وأقتله. وعلى الرغم من أن النظارة كانت ضخمة وتبعد عنه ببضعة أقدام، فلم يتمكن من العثور عليها. لكنَّ يديه، المصابتين بذلك العِناد الغريب الذي يربك أحيانًا أبسط أفعالنا، تحسستا كل شيء يقع حول النظارة دون أن تصلا إليها أبدًا.

وقفت أشاهد جهوده العقيمة، وأفكر في مدى استصواب مساعدته للحصول على الوسيلة التي تتيح لسيفه بسهولة أن يجد قلبي، ثم

أدركت دخول شخص آخر إلى الحظيرة. وجهت بصري إلى المبنى، ورأيت رجلًا ضخمًا أحمر يركض سريعًا نحو الرجل العجوز. كان الوافد الجديد عاريًا تمامًا، ويحمل هراوة في إحدى يديه، ويوجد على وجهه تعبير يُنذر دون شك بالسوء لرؤيته هذا الإنسان العاجز يزحف كالحشرة بحثًا عن نظارته المفقودة.

كان دافعي الأول هو البقاء على الحياد في قضية ربما بدت لا تتعلق بي، وليس لديَّ أدنى معرفة أحدد على أساسها إيثاري لأحد الطرفين؛ لكن نظرة ثانية على وجه حامل الهراوة أثارت سؤالًا بشأن ما إذا كان الأمر لا يتعلق بي. ظهر ذلك في تعبير وجه الرجل، الذي كان يدل إما على همجية متأصلة في سلوكه وإما على حالة هوس عقلي قد يُحول نواياه القاتلة بوضوح نحوي بعد أن يقتل ضحيته العجوز الذي يبدو، من حيث مظهره الخارجي على الأقل، شخصًا عاقلًا وغير مؤذٍ نسبيًّا. صحيح أن حركته لسحب سيفه ضدي لم تكن تدل على تصرف ودي تجاهي، لكنها على الأقل، إذا كان هناك أي خيار، تبدو أهون الشرّين.

كان لا يزال يتلمس طريقه بحثًا عن نظارته، ويكاد الرجل العاري أن يهجم عليه، عندما توصلت إلى قرار بالوقوف إلى جانب الرجل العجوز. كنت على مسافة عشرين قدمًا، عاريًا وغير مسلح، لكن قطع المسافة بعضلاتي كشخص من كوكب الأرض لم يكن يتطلب سوى لحظة، كما كان سيف العجوز يقع بجواره لأنه تجاهله ليركز بحثه على نظارته. ولذا، واجهت المهاجم في لحظة وصوله إلى مسافة قريبة جدًّا من ضحيته، واستهدفني بالضربة التي كان ينوي توجيهها إلى العجوز.

تفاديت الضربة، وأدركت عندئذ أن الرشاقة الهائلة التي تتمتع بها عضلاتي لها عيوبها إلى جانب مزاياها؛ إذ كان يجب أن أتعلم ضرورة الابتعاد في نفس لحظة معرفتي ضرورة تعلُّم القتال بسلاح جديد ضد مهووس مزود بهراوة، أو هذا ما افترضته على الأقل. وأعتقد أنه ليس غريبًا أنني كان يجب أن أفعل ذلك، مع ما يظهر على وجهه من تعبير مخيف وغضب عارم.

ترنحت خلال محاولة تعويد نفسي على الظروف الجديدة، ووجدتني أسعى للإفلات من الموت على يد خصمي بدلًا من مواجهته بجدية، وكثيرًا ما كنت أتعثر وأسقط على المرجة القرمزية؛ حتى إن المبارزة أصبحت منذ بدايتها سلسلة من الجهود: من جانبه للوصول إليَّ وسحقي بهراوته الضخمة، ومن جانبي لمراوغته والتملص منه. كان الوضع مُخزيًا، لكن هذه هي الحقيقة. على أن هذا الوضع لم يستمر إلى أجل غير مسمى؛ إذ سرعان ما تعلمت، وبسرعة أيضًا في ظل مقتضيات الموقف، أن أسيطر على عضلاتي، ووقفت على الأرض. وعندما استهدفني بضربة وتفاديتها، لمسته بسلاحي، وتفجرت دماؤه وهو يهدر بوحشية من الألم. أصبح عندئذ أكثر حذرًا، فاقتنصت فرصة هذا التغيير وضغطت عليه إلى أن سقط. كان التأثير الذي شعرت به سحريًّا، منحني ثقة جديدة، ولذا انقضضت عليه بحماسة شديدة، أطعنه وأمزقه، إلى أن أخذ ينزف من أماكن عديدة، مع حرصي على تجنُّب تقلباته القوية التي يمكن لأي منها أن تقتل ثورًا.

خرجنا من الحظيرة، خلال محاولاتي للتملص منه في بداية

المبارزة، وأصبحنا نقاتل الآن على مسافة كبيرة من نقطة لقائنا الأول. وحدث الآن، في نفس لحظة مواجهتي لسلاحه، أن استعاد العجوز نظارته وضبط وضعها بسرعة على عينيه. نظر حوله على الفور إلى أن اكتشفنا، وعندئذ بدأ يصرخ فينا بانفعال ويركض في الوقت نفسه نحونا وهو يمتشق سيفه القصير. كان الرجل الأحمر يضغط عليَّ بشدة، لكني اكتسبت سيطرة كاملة تقريبًا على نفسي. وخشية أنني سرعان ما أواجه خصمين وليس خصمًا واحدًا، ضاعفت من شدة قتالي ضده. أخطأني بأقل من بوصة، ومست الريح التي ولّدتها هراوته فروة رأسي، لكنه ترك فتحة خطوت فيها وغرزت سيفي داخل قلبه. تصورت على الأقل أنني اخترقت قلبه، لكني نسيت ما قرأته سابقًا في إحدى مخطوطات جون كارتر من أن جميع الأعضاء الداخلية للمريخيين لا يجري التخلص منها على نحو مطابق للأعضاء الداخلية لسكان كوكب الأرض. بيد أن النتائج الفورية كانت تبعث على الرضى، فقد وجدت أن جرح قلبه خطير بما يكفي ليكف عن القتال. وفي تلك لحظة وصل السيد العجوز. وجدني مستعدًّا، لكني أخطأت في معرفة نواياه. لم يُبْدِ بسلاحه أي إيماءات غير ودية، لكنه بدا محاولًا إقناعي بأن لا نية لديه لإيذائي. كان منفعلًا ويبدو شديد الضيق لأني غير قادر على فهمه، كما كان متحيرًا أيضًا. أخذ يقفز وهو يصرخ في وجهي بعبارات غريبة تحمل نبرة الأوامر الحاسمة، والذم المسعور، والغضب العاجز. لكن دلالة إعادته لسيفه إلى غمده كانت أكبر من كل ثرثراته. وعندما توقف عن الصراخ في وجهي وبدأ الحديث بنوع من البانتوميم، أدركت أنه يعرض

مبادرات سلام وإن لم تكن صداقة، ولذا أنزلت سيفي وانحنيت. وكان كل ما يمكنني التفكير فيه أن أؤكد له عدم نيتي في معاداته.

كان يبدو راضيًا، وحوّل اهتمامه على الفور نحو الرجل الذي سقط. فحص نبضه واستمع إلى قلبه، ثم أومأ برأسه وأخرج صفارة من أحد جيوب حقيبته وأطلق دويًّا واحدًا. وعلى الفور، برز من أحد المباني المحيطة عشرات من الرجال الحُمر العارين، جاءوا يركضون نحونا. لم يكن أي منهم مسلحًا. أصدر لهم عدة أوامر مقتضبة، حملوا بموجبها بين أذرعهم الرجل الذي سقط. ثم بدأ العجوز يتحرك نحو المبنى، وهو يومئ لي أن أرافقه. ولم يكن أمامي أي شيء يمكنني القيام به سوى طاعته. ففي أي مكان على المريخ، تعادل فرص وجودي بين أعداء مليون إلى واحد؛ ولذا فإنني هنا، أو في موقع آخر، يجب أن أعتمد على سعة حيلتي ومهارتي وخفة حركتي لشق طريقي على سطح الكوكب الأحمر.

قادني العجوز إلى غرفة صغيرة تنفتح منها أبواب عديدة، حمل رجاله خصمي الراحل خلال أحدها. واصلنا طريقنا إلى غرفة كبيرة مُضاءة ببراعة، حيث برز أمام بصري المذهول أبشع مشهد رأيته في حياتي. اكتظت الغرفة بصفوف عديدة من الطاولات مُرتبة في خطوط متوازية، يوجد فوق كل منها -مع استثناءات قليلة- حمولة مريعة مماثلة، جثة بشرية مقطعة الأوصال جزئيًّا أو مشوهة. ويوجد أعلى كل طاولة رف يضم حاويات من مختلف الأحجام والأشكال، بينما تتدلى من أسفل الرف أدوات جراحية عديدة، بما يوحي أنني دخلت برسوم من بوابة كلية طب عملاقة.

وبكلمة من الرجل العجوز، وضع الرجال البرسومي الذي أصبته فوق طاولة فارغة ثم غادروا الشقة. وعندئذ أشار لي مضيفي -إذا أمكنني تسميته هكذا، فمن المؤكد أنه لم يكن آسري- أن أخطو قُدُمًا. وخلال حديثه بنبرة عادية، أجرى شقين في جسم خصمي الراحل؛ أحدهما، كما أتصور، في وريد كبير والثاني في شريان أرفق فيه بمهارة نهاية أنبوبين، يرتبط إحداهما بوعاء زجاجي فارغ ويرتبط الثاني بوعاء مماثل مملوء بسائل شفاف عديم اللون يشبه المياه النقية. وبعد أن أنهى تلك الوصلات، ضغط السيد العجوز على زر يتحكم في موتور صغير، وعندئذ بدأت عملية ضخ دم الضحية إلى الجرة الفارغة، بينما أُجبِرت محتويات الجرة الثانية على الدخول إلى الأوردة والشرايين التي يجري تفريغها.

أقنعتني نبرات وإيماءات العجوز، وهو يحدثني خلال هذه العملية، أنه يشرح بالتفصيل أسلوب وغرض ما يحدث. لكنني لم أفهم أي كلمة مما قاله، وعندما أكمل محاضرته كنت في نفس الظلام الذي شعرت به قبل أن يبدأها، على الرغم من أن ما رأيته جعلني أعتقد بشكل معقول أنني رأيت عملية تحنيط برسومية عادية. وبعد أن أزال العجوز الأنابيب، أغلق الفتحات التي أجراها بأن غطاها بقطع من شريط لاصق ثقيل، ثم أشار أن أتبعه. سرنا من غرفة إلى غرفة، تضم كل منها نفس المعروضات البشعة. توقف العجوز عند العديد من الأجسام ليجري فحصًا موجزًا أو يشير إلى ما يبدو سجل الحالة، الذي كان مُعلقًا على خطاف عند قمة كل طاولة.

من آخر غرفة زرناها في الطابق الأول، قادني مضيفي أعلى مدرج مائل إلى الطابق الثاني حيث توجد غرف مماثلة لتلك الغرف أدناه، لكن الطاولات هنا تحمل الجثث كاملة وليس المشوهة، وجميعها مُرقعة في أماكن مختلفة بشريط لاصق. وخلال سيرنا بين الجثث في إحدى هذه الغرف، دخلت فتاة برسومية، اعتبرتها خادمة أو عبدة، وتحدثت مع العجوز، وعندئذ أشار لي أن أتبعه، نزلنا معًا عبر مدرج آخر إلى الطابق الأول من مبنى آخر.

وهنا، في جناح كبير رائع الزينة ويضم أثاثًا فاخرًا، كانت تنتظرنا امرأة حمراء عجوز؛ تبدو كبيرة السن جدًّا ووجهها مشوه ببعض الإصابات. كانت أغطيتها المزخرفة رائعة، ويحيط بها عشرات من النساء والمحاربين المسلحين، مما يوحي أنها ذات حيثية. على أن العجوز عاملها بفظاظة، كما أدركت من الرعب الذي أصاب مرافقيها.

استمرت محادثتهما طويلًا وفي نهايتها، وبناء على توجيه من المرأة، تقدم أحد مرافقيها الذكور وفتح جيب حقيبة بجانبه وأخرج حفنة بدت عملات معدنية مريخية، ثم أحصى عددًا منها وسلّمها إلى الرجل العجوز، الذي أومأ بدوره إلى المرأة لتتبعه، وشملتني إيماءته أيضًا. بدأ العديد من مرافقيها النساء والحرس بمصاحبتنا، لكن العجوز أشار لهم آمرًا بالتراجع؛ وهنا انطلقت مناقشة ساخنة بين المرأة وأحد محاربيها من جانب والرجل العجوز من جانب آخر، وانتهت بأن عرض باشمئزاز إعادة المال إلى المرأة. ويبدو أن عرضه حسم الجدال؛ لأنها

رفضت القطع النقدية، وتحدثت بإيجاز مع مرافقيها، ثم توجهت وحدها بصحبة العجوز وأنا معهما.

قاد العجوز الطريق إلى الطابق الثاني، ثم إلى غرفة لم أدخلها من قبل. كانت تشبه الغرف الأخرى إلى حد كبير، ما عدا أن جميع الجثث كانت لنساء شابات، تتمتع كثيرات منهن بجمال رائع. سارت المرأة عن كثب في أعقاب العجوز، وأخذت تتفقد المعرض البشع بعناية فائقة. مرت ببطء ثلاث مرات بين الطاولات متفحصة الحمولات المروعة. وقفت في كل مرة لفترة أطول أمام طاولة معينة تحمل جسم أجمل مخلوقة رأيتها من قبل، ثم عادت في المرة الرابعة إلى هذه الطاولة ووقفت تمعن النظر طويلًا في الوجه الميت. وقفت هناك للحظات تتحدث مع الرجل العجوز، ويبدو أنها وجهت له عددًا لا حصر له من الأسئلة، التي أجاب عليها بردود سريعة فظة، ثم أشارت بإيماءة إلى الجسم، مع إبداء موافقتها إلى الحارس العجوز لهذا المعرض المروع.

وعلى الفور أطلق العجوز صفارته لاستدعاء عدد من الخدم وأصدر لهم تعليمات موجزة، ثم قادنا إلى غرفة أخرى أصغر تضم واحد عددًا من الطاولات الفارغة المشابهة لتلك الطاولات التي وُضعت فوقها الجثث في الغرف المجاورة. توجد في هذه الغرفة أَمَتَان أو مرافقتان، وبكلمة من سيدهما أزالا أغطية المرأة العجوز، وأسدلا شعرها وساعداها على الصعود فوق إحدى الطاولات. وهنا، رشّت الفتاتان عليها ما يُفتَرض أنه محلول مُطهر من نوع ما، ثم جففاها بعناية

ونقلاها إلى طاولة أخرى تقع على مسافة عشرين بوصة تقريبًا من طاولة أخرى موازية.

تأرجح باب الغرفة مفتوحًا الآن وظهرت مرافقتان تحملان جثة الفتاة الجميلة التي رأيناها في الغرفة المجاورة. وضعت الفتاتان الجثة فوق الطاولة التي تركتها المرأة العجوز. رشت الفتاتان الجثة بالمحلول، مثلما سبق أن فعلتا مع المرأة العجوز، ثم نقلتاها إلى طاولة مجاورة لتلك التي ترقد عليها المرأة العجوز. أجرى الرجل العجوز الآن شقين في جسم المرأة العجوز، تمامًا كما فعل سابقًا في جسم الرجل الأحمر الذي قتلته بسيفي. وبدأت عملية سحب دمها من أوردتها، وضخ السائل النقي فيهم. غادرتها الحياة، وهي ترقد جثة هامدة فوق اللوح المصقول من حجر الإرسايت[٧] الذي يُشكل سطح الطاولة، مثلها مثل جثة المخلوقة الجميلة الميتة بجانبها.

أما الرجل العجوز، الذي أزال عتاده حتى خصره ونال قدرًا كاملًا من الرش، فقد اختار سكينًا حادًّا من بين الأدوات المُعلقة أعلى الطاولة وأزال فروة رأس المرأة العجوز وراء الخط الذي يحدد منبت الشعر كاملًا حول رأسها. وبطريقة مماثلة، أزال فروة الرأس من جثة المرأة الشابة، ثم استعان بمنشار دائري دقيق متصل بنهاية رمح مرن دوّار لنشر الجمجمتين وفقًا للخط الذي ظهر بعد إزالة فروة الرأس. وقد أدى هذه العملية الرائعة وباقي العمليات بمهارة يصعب وصفها. ويكفي القول إنه بعد نهاية أربع

(٧) حجر الإرسايت: نوع من الحجر، جميل وملون، شائع في المريخ، ويستخدم في المباني والأثاث – https://barsoom.fandom.com/wiki/Ersite – المترجمة.

ساعات كان قد نقل مخ كل امرأة منهما إلى جمجمة الأخرى، وربط بمهارة الأعصاب والعُقد العصبية المقطوعة، واستبدل الجمجمتين وفروة الرأسين، وربط الرأسين بشكل جيد بواسطة شريطه اللاصق الغريب الذي لم يكن مُطهِّرًا وشافيًا فحسب وإنما أيضًا مُخدِّرًا محليًّا.

أعاد الآن تسخين الدم الذي سحبه من جسم المرأة العجوز وأضاف بضع قطرات من محلول كيميائي نقي، ثم سحب السائل من عروق الجثة جميلة، وأدخل مكانه دماء المرأة العجوز، مع حقنها في الوقت نفسه تحت الجلد.

لم ينطق بكلمة خلال العملية برمتها. والآن أصدر بضع تعليمات بطريقته المقتضبة إلى مساعديه، ثم أشار لي بمتابعته، وغادر الغرفة. قادني إلى جزء بعيد من مبنى أو سلسلة من المباني تُشكله، ثم إلى جناح فاخر، وفتح باب حمام برسومي وتركني في أيدي خدم مُدربين. غادرت الحمام بعد ساعة من الاسترخاء وأنا أشعر بالانتعاش والراحة، لأجد عتادًا وأغطية تنتظرني في الغرفة المجاورة. وعلى الرغم من بساطتها، فقد كانت مصنوعة من مواد جيدة، وإن لم تكن تضم أي أسلحة.

كنت أفكر كثيرًا بطبيعة الحال في الأشياء الغريبة التي شاهدتها منذ وصولي إلى المريخ، على أن أكثر ما حيرني كان تصرف المرأة العجوز الذي يتعذر تفسيره: أن تدفع لمضيفي ما بدا مبلغًا كبيرًا لقتلها ونقل مخ إحدى الجثث إلى جمجمتها. هل هذه إحدى تبعات تعصب ديني رهيب، أم هناك تفسير آخر لا يستطيع عقلي كإنسان قادم من كوكب الأرض أن يستوعبه؟

لم أكن قد توصلت إلى أي قرار في هذه المسألة، عندما تم استدعائي لأتبع عبدًا إلى جناح آخر قريب، حيث وجدت مضيفي ينتظرني أمام طاولة مُحملة بأطعمة شهية؛ وغني عن القول أنني كنت أحتاجها بشدة بعد صيامي الطويل، والأسابيع الأطول التي أكلت خلالها طعامًا قاسيًا في الجيش.

حاول مضيفي التحدث معي خلال الوجبة، لكن الجهد أسفر، بطبيعة الحال، عن نتائج عقيمة. كان يبدو شديد التحمس أحيانًا، ووضع يده على أحد سيوفه، ثلاث مرات مختلفة، عندما أخفقت في فهم ما يقوله لي، مما زاد من اقتناعي أنه مخبول جزئيًا؛ لكنه برهن على قدر كافٍ من ضبط النفس في كل مرة تجنبًا لحدوث كارثة لأحدنا.

جلس بعد الوجبة لفترة طويلة في حالة تأمل عميق، ثم تملكه قرارٌ مفاجئٌ. استدار ناحيتي فجأة بابتسامة باهتة، ثم بدأ دون تردد في دورة مكثفة لتعليم اللغة البرسومية. مضى وقت طويل بعد حلول الظلام قبل أن يسمح لي أن أستريح ليلًا. قادني بنفسه إلى جناح كبير، يماثل ذلك الجناح الذي وجدت فيه عتادي الجديد، حيث أشار إلى كومة ثرية من حرير وفراء النوم، وتمنى لي ليلة برسومية طيبة، ثم غادر وقفل الباب خلفه، وتركني لتخمين ما إذا كنت ضيفًا أو سجينًا.

* * *

الفصل (٣)

الحظوة

مرت سريعًا ثلاثة أسابيع. أتقنت ما يكفي من لغة برسوم لأتمكن من التحدث مع مضيفي بطريقة مُرضية على نحو معقول، كما كنت أتقدم ببطء أيضًا في إتقان لغة الكتابة في بلده، التي تختلف، بطبيعة الحال، عن لغة الكتابة في جميع أمم برسوم الأخرى، على الرغم من تتطابق اللغة المنطوقة. تعرفت خلال هذه الأسابيع الثلاثة على الكثير في هذا المكان الغريب الذي كنت فيه نصف ضيف ونصف سجين، وتعرفت على مضيفي-سجاني الرائع، راس ثافاس، الجراح العجوز في تونول[٨]، الذي كنت أرافقه باستمرار تقريبًا يومًا بعد يوم، إلى أن تكشّف تدريجيًّا أمام مَلَكاتي المذهولة فهمٌ لأغراض المنشأة التي يحكمها ويعمل فيها بمفرده عمليًّا؛ فالعبيد والمرافقون الذين يخدمونه ليسوا سوى حطابي أخشاب أو ناقلي مياه. كان عقله ومهارته فقط هما ما يوجهان أنشطة عمل حياته، التي كانت مفيدة أحيانًا وشريرة أحيانًا أخرى، لكنها دومًا رائعة.

(٨) تونول: مملكة مريخية نائية محاطة بالمستنقعات، ودائمًا في حالة حرب مع مملكة فوندال المجاورة – *https://barsoom.fandom.com/wiki/Toonol* – المترجمة.

كان راس ثافاس نفسه رائعًا مثل ما كان ينجزه. لم يكن قاسيًا عن عمد؛ ولم يكن شريرًا عن عمد، أنا واثق من ذلك. كان مذنبًا بممارسة أشد قسوة شيطانية وأحط الجرائم؛ إلا أنه في اللحظة التالية قد يُنفذ عملًا إذا كرره على كوكب الأرض يمكن أن يرفعه إلى أعلى ذروة تقدير لرجل. وعلى الرغم من معرفتي أنني أقول مطمئنًا إنه لم يقم أبدًا بأي عمل قاسٍ أو إجرامي بدوافع خسيسة، فلم يقم أبدًا أيضًا بأي عمل إنساني بدوافع سامية. ليس لديه سوى عقل علمي بحت، يخلو تمامًا من أي تأثير للمشاعر، التي لا يملكها. كان يتمتع بعقل عملي، كما تدل على ذلك الرسوم الهائلة التي يطلبها نظير خدماته المهنية. بيد أنني أعلم أنه لا يعمل من أجل المال فقط، وقد رأيته يخصص أيامًا لدراسة مشكلة علمية ربما لا يضيف حلها شيئًا إلى ثروته، بينما تكتظ غرفة الانتظار في مسكنه بالزبائن الأثرياء الذين ينتظرون صب الأموال في خزينته.

استندت تمامًا معاملته لي على متطلبات علمية. كنت مشكلة بالنسبة له: إما أنني لست برسوميًّا على الإطلاق، وهذا واضح تمامًا، أو أنني أنتمي لنوع لا يعرفه. وبالتالي كان الحفاظ عليَّ ودراستي هو أفضل ما يناسب أغراض العلم. كنت أعرف الكثير عن كوكبي، وهو ما أسعد راس ثافاس وعقله العلمي كي يستخرج مني كل ما أعرفه على أمل أن يتمكن من استخلاص بعض الاقتراحات التي من شأنها حل أحد الألغاز العلمية التي لا تزال تُحير العلماء في برسوم؛ إلا أنه اضطر إلى الاعتراف بأنني لم أكن مفيدًا على الإطلاق في هذا الصدد، ليس فحسب لجهلي الشديد عمليًّا بجميع المواضيع العلمية، وإنما لأن العلوم على

كوكب الأرض لم تصل حتى إلى مرحلة الأقمشة الملفوفة مقارنة بالتقدم الملحوظ في الأنشطة المناظرة على المريخ. بيد أنه احتفظ بي معه، ودربني على الكثير من المهام البسيطة في مختبرة الهائل. عرّفني على صيغة «سائل التحنيط» وعلمني كيفية سحب الدماء من شخص وإحلال مادة حافظة رائعة محله لمنع التحلُّل دون تغيير في أدق تفاصيل بنية أعصاب الجسم أو أنسجته. تعلمت أيضًا سر تلك القطرات القليلة من المحلول الذي عند إضافته إلى الدم، المُعاد تدفئته قبل إرجاعه إلى عروق الشخص، ينشط هذا الشخص ويستعيد كل جهاز في جسمه نشاطه الطبيعي والصحي.

أخبرني ذات مرة لماذا سمح لي بمعرفة هذه الأشياء التي يحتفظ بها سرًّا عن جميع الآخرين، ولماذا كان يُفضل بقائي معه في جميع الأوقات، ليلًا ونهارًا، أكثر من أي من الأفراد العديدين من عِرقه الذين يخدمونه رغم أن قدراتي أقل.

قال: «فاد فارو»، مستخدمًا الاسم البرسومي الذي منحه لي لأنه أصر على أن اسمي كان بلا معنى وغير عملي، «منذ سنوات عديدة كنت أحتاج إلى مساعد، ولم أشعر حتى الآن أنني وجدت الشخص الذي قد يعمل لديَّ هنا بإخلاص ونزاهة دون أن يوجد لديه سبب للذهاب إلى مكان آخر أو إفشاء أسراري للآخرين. أنت فريد من نوعك في برسوم كلها؛ ليس لديك أي صديق أو معارف غيري. وإذا تركتني ستجد نفسك في عالم من الأعداء؛ لأن الجميع يتشككون في أي شخص غريب. لن تتمكن من النجاة لاثني عشر فجرًا، وستشعر بالبرد والجوع والبؤس:

منبوذ بائس في عالم عدائي. أنت تتمتع هنا بكل الرفاهية التي يمكن أن يبتكرها عقل إنسان أو تنتجها يده، كما أنك تنشغل بعمل يستغرق الاهتمام بحيث تُثمر كل ساعة تقضيها عن ارتياح لا مثيل له. لذا لا يوجد أي سبب أناني لأن تتركني، بل توجد أسباب وجيهة لأن تبقى. ولا أتوقع أي ولاء غير ما تستحثه الأنانية. أنت مساعد مثالي، ليس فقط للأسباب التي طرحتها عليك، وإنما أيضًا لأنك ذكي وسريع البديهة. وقد قررت الآن، بعد أن راقبتك بعناية لفترة كافية، أنك يمكن أن تعمل معي بصفة أخرى: حارسي الشخصي.

«ربما لاحظت أنني الوحيد المُسلح بين جميع من يرتبطون بمختبري. وهذا أمر غير مألوف في برسوم، حيث يتحرك الناس من جميع الطبقات وجميع الأعمار ومن الجنسين وهم مسلحون عادة. لكني لا أستطيع الوثوق في العديدين منهم إذا كانوا مسلحين، لأنهم قد يذبحونني؛ ومن يدري، إذا أعطيت أسلحة لمن يمكنني الوثوق بهم، فقد يستولي الآخرون عليها ويذبحونني، أو قد ينقلب ضدي حتى من وثقت فيهم، فلا يوجد أحد لا يرغب في مغادرة هذا المكان والعودة مرة أخرى إلى شعبه إلا أنت، أنت يا فاد فارو، فليس لديك مكان آخر تذهب إليه. لذا، قررت أن أُعطيك أسلحة.

«لقد أنقذت حياتي مرة. وقد تظهر ثانية فرصة مماثلة. أعرف أنك مخلوق منطقي وعقلاني، ولذا لن تُقدِم على قتلي، وليس لديك ما تجنيه من وراء ذلك، بل ستخسر كل شيء بموتي؛ لأنك ستصبح دون أصدقاء ودون حماية في عالم من الغرباء، حيث الاغتيال هو نظام المجتمع،

وحيث تُعد الوفاة الطبيعية إحدى أندر الظواهر. ها هي أسلحتك». خطا نحو خزنة وفتحها، واستعرض تشكيلة من الأسلحة، ثم اختار لي سيفًا طويلًا، وسيفًا قصيرًا، فضلًا عن مسدس وخنجر.

قلت: «يبدو أنك تثق في ولائي، راس ثافاس».

هز كتفيه، وقال: «أنا أثق فقط في أنني أعرف تمامًا أين تكمن مصالحك -كلمات الرومانسيين هي: الحب، والولاء، والصداقة، والعداوة، والغيرة، والكراهية، ... وآلاف الكلمات الأخرى؛ مضيعة للكلمات - هناك كلمة واحدة تحددهم جميعًا: المصلحة الذاتية. يدرك جميع الأذكياء ذلك. يحلل الأذكياء الفرد ويصنفونه، بناء على ميوله واحتياجاته، كصديق أو عدو؛ تاركين للحمقى ضعاف العقول، الذين يرغبون في أن يُخدعوا، هراء تأجج المشاعر».

ابتسمت وأنا أضع أسلحتي في عتادي، لكني بقيت صامتًا. لا يمكن الفوز بأي شيء بالجدال مع الرجل، كما كنت على يقين أيضًا بأنني لن أحصل إلا على الأسوأ في أي جدال أكاديمي صِرف؛ لكن العديد من الأمور التي يقولها تثير فضولي، وأيقظت أحدها في ذهني مسألة كنت أفكر فيها كثيرًا. ففي حين فسرتها لي جزئيًّا بعض ملاحظاته، ما زلت أتساءل لماذا الرجل الأحمر الذي أنقذت العجوز منه كان يبدو عازمًا بشدة على قتله يوم وصولي برسوم. وبالتالي، سألته عندما جلسنا ندردش بعد وجبة المساء.

فقال: «رومانسي. إنه رومانسي من النوع الأكثر وضوحًا. أما سبب كراهيته لي بهذا الغِل، فلا يصدقه على الإطلاق أي رد فعل لعقل

مُدرّب وتحليلي مثل عقلي؛ لكني بعد مشاهدتي لرد فعله أدركت حالته الذهنية التي لا أستطيع أنا نفسي تخيلها. ضع الحقائق في حسبانك. لقد كان ضحية للاغتيال – محارب شاب في مقتبل العمر، يتمتع بوجه وسيم ولياقة بدنية رائعة. دفع أحد زبائني لأقاربه مبلغًا سخيًّا للحصول على جثته وجلبها لي. وعلى هذا النحو، يمكنني الحصول على جميع المواد التي أحتاجها تقريبًا. تعاملت مع الجثة بالطريقة التي تعرفها. يرقد الجسم في المختبر لمدة سنة، ولا تأتي أي مناسبة خلال تلك الفترة لاستخدامها؛ ولكن في نهاية المطاف، يأتي زبون ثري، رجل ليس جذابًا بإفراط وكبير السن. وقع في حب يائس مع امرأة شابة طلب يدها خُطاب كثر يتمتعون بالوسامة. يمتلك موكلي أموالًا أكثر من أي منهم، وعقلًا أكبر وخبرة أكثر، لكنه يفتقر إلى الشيء الوحيد الذي يمتلكه كل منهم، الشيء الذي تهتم به دائمًا العقول غير المتطورة وغير المتعقلة، المُحملة بالمشاعر، عقول الإناث الشابات – وهذا الشيء هو الوسامة.

«يمتلك الآن 'ج-٤٩٣٨١١-ب' ما كان موكلي يفتقر إليه وقادرًا على تكلفة شرائه. سرعان ما توصلنا إلى اتفاق بشأن السعر، ونقلت مخ موكلي الثري إلى رأس 'ج-٤٩٣٨١١-ب' وغادر موكلي، وكل ما أعرفه أنه فاز بيد البلهاء الجميلة؛ وكان يمكن أن يظل 'ج-٤٩٣٨١١-ب' مستلقيًا إلى أجل غير مسمى على اللوح الإرسايتي إلى أن أحتاج إليه أو إلى جزء منه في عملي، لو لم أكن قد اخترت، بمحض الصدفة، إيقاظه بسبب احتياج عبد آخر.

«أود تذكيرك الآن أن الرجل كان قد قُتِل. كان ميتًا. اشتريت الجثة وكل ما كان بها. كان يمكن أن يظل ميتًا مستلقيًا إلى الأبد فوق أحد ألواح الإرسايتية لو لم أنفث حياة جديدة في عروقه الميتة. هل امتلك العقل الذي يتيح رؤية الصفقة بطريقة حكيمة ونزيهة؟ كلا، لم يكن لديه. لقد أدت ردود أفعاله العاطفية إلى لومي لأني أعطيته جسمًا آخر. وقد بدا لي، إذا تطلب الأمر النظر إلى هذه المسألة من وجهة نظر المشاعر، أنه كان يجب أن يعتبرني فاعل خير؛ لأني منحته الحياة مرة أخرى وفي جسد صحي تمامًا، وإن كان مُستعملًا نوعًا ما.

«لقد تحدث معي حول هذا الموضوع عدة مرات، متوسلًا أن يستعيد جسده. وهو شيء غير وارد على الإطلاق بالطبع، كما شرحت له، إلا إذا حدثت مصادفة جلبت إلى مختبري جسم الزبون الذي اشترى جثته – وهو احتمال بعيد تمامًا بالنسبة لشخص ثري مثل زبوني. اقترح الزميل أن أسمح له باغتيال زبوني وإحضار جثته بحيث تستعيد رأسه جسمها مرة أخرى بعملية عكسية. تجهم عندما رفضت الإفصاح عن اسم المالك الحالي لجسمه. لكني، وحتى ساعة وصولك عندما هاجمني، لم أتصور مدى تعقيد عمق كراهيته.

«المشاعر، في الواقع، عقبة أمام كل تقدم. ونحن سكان تونول ربما أقل تعرضًا لتقلباتها من معظم الأمم الأخرى في برسوم، على أن معظم أبناء بلدي لا يزالون من ضحاياها بدرجات متفاوتة. مع ذلك، لها مكافآت وتعويضات. فلا يمكننا من دونها الحفاظ على شكل

مستقر للحكم، ومن دونها يمكن لسكان فوندال[٩] أو غيرهم اجتياحنا وقهرنا؛ وإنما يتمتع قدر كاف من الطبقات الدنيا لدينا بمشاعر تكفي لمنح الولاء إلى جيداك[١٠] تونول، وتتمتع الطبقات العليا بذكاء يكفي لمعرفة أن من مصلحتهم بقاءه على العرش.

«والفونداليون، من ناحية أخرى، عاطفيون بفظاعة، تملؤهم الحماقات والخرافات، وهم عبيد لجميع أنواع العقل المغرور الذابل. إن تركهم المرأة السليطة ظاظا على العرش هو سمة على حماقتهم الغبية. إنها امرأة جاهلة، متعجرفة، أنانية، غبية، قاسية؛ لكنَّ الفونداليين يقاتلون ويموتون من أجلها لأن والدها كان جيداك فوندال. وهي تفرض عليهم ضرائب يترنحون تحت أعبائها، وتحكمهم بشكل سيئ، وتستغلهم، وتخونهم، لكنهم يركعون أمام قدميها ويعبدونها. لماذا؟ لأن والدها كان جيداك فوندال، ووالده من قبله... وهلمّ جرا إلى العصور القديمة؛ ذلك أن المشاعر وليس العقل هي ما تحكمهم؛ لأن حكامهم الأشرار استغلوا هذه المشاعر.

«ليس لديها أي شيء يوحي بأنها شخص عاقل – ولا حتى الجمال. أنت تعرف، فقد رأيتها».

سألته: «أنا رأيتها؟»

---

(٩) فوندال: مملكة صغيرة لا تضم سوى مدينة رئيسة وعدد قليل من الجزر في مستنقعات تونول، التي تُعد أقرب مملكة مجاورة لها – *https://barsoom.fandom.com/wiki/Phundahl* – المترجمة.

(١٠) جيداك: ما يعادل الإمبراطور

http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Jeddak – المترجمة.

أجاب: «أنت ساعدتني يوم أن أعطينا رأسها القديم جسمًا جديدًا - يوم وصولك من ما تسميه كوكب الأرض».

قلت: «كانت هي! تلك المرأة العجوز كانت جيدارة[١١] فوندال؟».

قال مؤكِّدًا: «نعم، كانت ظاظا».

قلت: «لكنك لم تعاملها بالشكل الذي يفترض أي شخص من كوكب الأرض أن يُعامل به أي حاكم، ولذا تصورت أنها ليست سوى امرأة عجوز ثرية».

قال العجوز: «أنا راس ثافاس. لماذا أحني رأسي إلى أي شخص آخر؟ في عالمي، لا شيء يهم إلا المخ. وفي هذا الصدد، ودون غرور، يمكنني القول إنني لا أعترف بوجود من يفوقني».

قلت مبتسمًا: «أنت إذَنْ لست بلا مشاعر؛ فأنت تقر أنك تفتخر بعقلك!».

قال بصبر: «إنه ليس الفخر، بل مجرد حقيقة أذكرها. حقيقة لا أجد أي صعوبة في إثباتها. في جميع الاحتمالات، لديَّ العقل الأكثر تطورًا والأكمل أداء بين جميع معارفي من الرجال المثقفين، ويشير المنطق إلى أن هذه الحقيقة تطرح أيضًا أنني أمتلك العقل الأكثر تطورًا والأكمل أداء في برسوم. وأنا مُقتنع، مما أعرفه عن كوكب الأرض ومما شاهدته منك، أنه لا يوجد أي عقل على كوكبك تقترب قدرته ولو قليلًا من

(١١) جيدارة: الملكة أو الإمبراطور - وهو الاسم المريخي المؤنث لجيداك (الملك أو الإمبراطور) - *https://barsoom.fandom.com/wiki/Jeddak* - المترجمة.

القدرة التي طورتها خلال ألف عام من الدراسة والبحث النشط. ربما يوجد في كوكب راسوم (عطارد) أو كوسوم (الزهرة) ذكاء يساوي أو حتى أكبر من عقلي. ففي حين قمنا ببعض الدراسات عن موجات الفكر هناك، لم تتطور أدواتنا بعد بما يكفي إلا للقول إنها تتمتع بأقصى النقاء والقوة والمرونة».

وبعيدًا عن الموضوع، سألته: «وماذا عن جسم الفتاة الذي أعطيته إلى الجيدارة؟»؛ إذ لم يستطع ذهني أن يمحو ذكرى ذلك الجسد الجميل الذي من المؤكد كان يمتلك مخًّا على القدر نفسه من الجمال والروعة.

أجاب ملوحًا بيده: «إنها مجرد شخص! مجرد شخص!».

سألته بإصرار: «ماذا ستصبح؟».

قال: «وما الفارق؟ لقد اشتريتها مع مجموعة من أسرى الحرب. ولا أذكر حتى من أي بلد حصل عليهم زبوني، أو أين كانت نشأتهم. فهذه الأمور ليست مهمة».

سألته: «هل كانت على قيد الحياة عندما اشتريتها؟».

أجاب: «نعم. لماذا؟».

سألته: «أنت ... أووه، ثم قتلتها إذَنْ؟»

أجاب: «قتلتها! كلا؛ لقد حافظت عليها. كان ذلك منذ حوالي عشر سنوات. لماذا أتركها لتصبح عجوزًا مملوءة بالتجاعيد؟ لن يكون لها نفس القيمة، أليس كذلك؟ كلا، لقد توليت صيانتها. وعندما اشترتها ظاظا، كانت نضرة وشابة تمامًا مثل يوم وصولها؛ فقد حافظت عليها

منذ فترة طويلة. شاهدتها نساء عديدات وأردن وجهها وجسمها، لكن الجيدارة هي من تقتدر على الشراء، ودفعت أعلى سعر حصلت عليه من قبل.

«نعم، احتفظت بها لفترة طويلة، لكني كنت أعرف أنها ستعوضني في يوم ما بسعر جيد. كانت جميلة حقًّا، ولذا للمشاعر استخدام – فإن لم يكن من أجل المشاعر، لن أجد حمقى يدعمون هذا العمل الذي أقوم به، وبالتالي يتيح لي القيام بأبحاث ذات جدوى أكبر. أعرف أنك سوف تُفاجأ عندما أخبرك أنني أشعر أنني أكاد أصل تقريبًا إلى مرحلة التمكن من إنتاج بشر عقلاء من خلال عملي على تركيبات كيميائية معينة تتكون من مجموعة من الأشعة ربما لم يكتشفها علماؤك، وهنا يستند حكمي إلى ندرة معرفتك بمثل هذه الأمور».

قلت له مؤكِدًا: «لن أندهش. لن أتفاجأ بأي شيء قد تنجزه».

❊ ❊ ❊

الفصل (٤)

فالاديا

استلقيت مستيقظًا وقتًا طويلًا في تلك الليلة أفكر في «٤٢٩٦-ي-٢٦٣١-هـ»، الفتاة الجميلة التي سُرِق جسمها المثالي لإعداد بيئة لمخ طاغية قاسية. بدت جريمة بشعة لم أتمكن من تخليص ذهني منها، وأعتقد أن التأمل فيها زرع أول بذور كراهيتي وبغضي تجاه راس ثافاس. لم أتمكن من استحضار مخلوق يخلو تمامًا من الرحمة، ولا تصور لحظة النهب المخيفة لهذا الجسد اللطيف الجميل حتى لأقدس الأغراض، ناهيك عن القيام بذلك من أجل الثراء الفاحش.

فكّرت كثيرًا في الفتاة في تلك الليلة، وكانت صورتها هي أول ما انطبع في ذهني عندما صحوت في الفجر. وبعد أنا تناولت طعامي، ولم يكن راس ثافاس قد ظهر بعد، ذهبت مباشرة إلى غرفة التخزين حيث يوجد الشيء البائس. إنها ترقد هنا، ولا تتحدد سوى بلوحة صغيرة، تحمل رقم: '٤٢٩٦-ي-٢٦٣١-هـ'. ترقد أمامي جثة امرأة عجوز

بوجه مشوه، في صرامة جمود الموت؛ إلا أن هذا لم يكن الجسد الذي رأيته، وإنما رؤيا خيالية لجمال متألق ترقد روحه المسجونة هامدة تحت خصلات الشعر الرمادية تلك.

هذه المخلوقة هنا بوجه وهيئة ظاظا لم تكن ظاظا على الإطلاق؛ فكل ما جعل الأخرى على ما هي عليه، قد نُقل إلى هذه الجثة الباردة. كم سيكون الاستيقاظ مخيفًا، إذا استيقظت أصلًا! ارتجفت عند التفكير في الرعب الذي سيغمر الفتاة عندما تدرك بداية هذه الجريمة البشعة التي ارتُكِبت عليها. تُرى من كانت؟ وما القصة المحبوسة في هذا العقل الميت الصامت؟ وما الحب الذي كانت تتمتع به، وجمالها الذي كان هائلًا، ووجهها الجميل الذي يحمل بصمة لا تُمحى من الرقة! هل سبق وأيقظها راس ثافاس من هذا المظهر السعيد للموت؟ - الأكثر سعادة من أي إيقاظ ممكن من قبل. نفرت من فكرة صحوتها، وإن اشتقت إلى أن أسمعها تتكلم، وأن أعرف أن عقلها يحيا ثانية، وأن أعرف اسمها، وأستمع إلى قصة هذه الحياة الرقيقة التي انتُزِعت بوقاحة من بيئتها الملائمة وتعرضت ليد المصير القاسية. ولنفترض أنها استيقظت! لنفترض أنها استيقظت وأنني ... وُضِعت يد على كتفي، استدرت، ووجدتني أنظر في وجه راس ثافاس.

قال: «يبدو أنك مهتم بهذه الشخصية».

أجبته: «إنني أتساءل ماذا سيكون رد فعل مخ هذه الفتاة إذا استيقظت واكتشفت أنها أصبحت امرأة عجوزًا مشوهة».

حك ذقنه ونظر نحوي بإمعان. فكّر قائلًا: «تجربة مثيرة للاهتمام.

أنا سعيد باكتشافي اهتمامك العلمي بالعمل الذي أقوم به. ويجب أن أعترف أنني أهملت المراحل النفسية في عملي خلال المائة سنة الماضية أو نحو ذلك، على الرغم من أنني سبق أن أوليتها قدرًا كبيرًا من الاهتمام. وسيكون من المثير للاهتمام ملاحظة ودراسة العديد من هذه الحالات. قد تُثبِت هذه الحالة، بوجه خاص، أنها ذات قيمة لك كدراسة أولية، كونها بسيطة واعتيادية. وسوف أتيح لك لاحقًا النظر في حالة نقلت فيها عقل رجل إلى جمجمة امرأة، وعقل امرأة إلى جمجمة رجل. هناك أيضًا حالات مثيرة للاهتمام؛ حيث وضعت جزءًا من مخ شخص محل جزء مخ مريض أو مصاب لشخص آخر، فضلًا عن أن تلك العقول البشرية التي زرعتها، لأغراض تجريبية فقط، في جماجم حيوانات، والعكس، تتيح فرصًا هائلة للملاحظة. أذكر حالة نقلت فيها نصف مخ قرد إلى جمجمة رجل بعد إزالة نصف مخه وقمت بتطعيمه على الجزء المتبقي من المخ في جمجمة القرد. حدث ذلك منذ عدة سنوات، وفكرت كثيرًا في ضرورة أن أتذكرهما وألاحظ النتائج. يجب أن ألقي نظرة عليهما – وهما على ما أذكر في القبو رقم 'ل-٤٢-إكس'، أسفل المبنى '٤-ج-٢١'. علينا إلقاء نظرة عليهما في يوم ما قريبًا، فقد مرت سنوات منذ أن كنت في هذا القبو. من المؤكد أننا سنجد عينات مثيرة جدًّا للاهتمام أفرزها ذهني. ولكن، هيا! دعنا نقوم بإيقاظ '٤٢٩٦-ي-٢٦٣١-هـ'».

صحت قائلًا: «كلا!»، واضعًا يدي على ذراعه: «سيكون الأمر مريعًا».

نظر نحوي بدهشة ثم التوت شفتاه في ابتسامة كريهة ساخرة. صاح: «يا لك من أحمق عاطفي! من ذا الذي يجرؤ أن يقول لي لا؟».

وضعت يدي على مقبض سيفي الطويل ونظرت في عينيه مباشرة قائلًا: «راس ثافاس، أنت سيد بيتك؛ وما دمت ضيفك، عاملني بلطف».

نظر نحوي للحظة، لكن عينيه ارتعشتا، وقال: «لقد تسرعت. يمكننا نسيان الأمر». اعتبرت إجابته بمثابة اعتذار، فقد كان بالفعل أكثر مما توقعت؛ لكن الحدث لم يكن مؤسفًا. وأعتقد أنه عاملني بعد ذلك باحترام أكبر. على أنه انتقل على الفور إلى اللوح الذي يحمل رفات '٤٢٩٦-ي-٢٦٣١-هـ'.

قال: «عليك إعداد هذه الحالة للإيقاظ، ودراسة ما يمكنك من جميع ردود أفعالها»، ثم غادر الغرفة.

أصبحت بارعًا إلى حد كبير في هذا العمل الذي بدأته ببعض المخاوف، لكني كنت متأكدًا أنني أفعل الصواب بإطاعة راس ثافاس طالما بقيت عضوًا في بطانته. كان الدم الذي سبق أن تدفق خلال أوردة الجسد الجميل، الذي باعه راس ثافاس إلى ظاظا، يستقر في وعاء مُغلق بإحكام على رف فوق الجثة. وكما فعلت في حالات أخرى تحت مراقبة عينَي الجراح العجوز، فعلته الآن بمفردي للمرة الأولى. قمت بتسخين الدم، وإجراء الشقوق، وربط الأنابيب، وإضافة قطرات قليلة من سائل الحياة إلى الدم، وأصبحت الآن مستعدًّا لإعادة الحياة إلى المخ الحساس الذي رقد ميتًا لعشر سنوات. وضعت إصبعي على الزر الصغير الذي يدفع الموتور للحركة بحيث يرسل سائل الإنعاش إلى

تلك الأوردة الهامدة، وعندئذ انتابتني أحاسيس لا أتخيل أن أي رجل بشري شعر بها من قبل.

لقد أصبحت سيد الحياة والموت، على أنني في لحظة وقوفي عند هذه المرحلة من إيقاظ الموتى، شعرت أنني قاتل أكثر من كوني مُنقِذًا. حاولت النظر إلى الإجراء بفتور، من خلال عين العلم الباردة، لكني فشلت فشلًا ذريعًا. لم أستطع إلا أن أرى فتاة منكوبة مكلومة لضياع جمالها. ابتعدت وأنا أُطلق لعنة خافتة. لا يمكنني القيام بذلك! وعندئذ، وكأنما استحوذت عليَّ قوة خارجية، تحرك إصبعي على الزر وضغط عليه. لا يمكنني تفسير ذلك إلا بنظرية العقلية المزدوجة، التي قد تفسر العديد من الأشياء. ربما قام ذهني الذاتي بتوجيه الفِعل. لا أعرف. أعرف فقط أنني فعلت ذلك، وبدأ الموتور يعمل، كما بدأ مستوى الدم في الحاوية ينخفض تدريجيًّا.

وقفت كالمسحور أراقب. أصبح الوعاء فارغًا. أغلقت الموتور، وأزلت الأنابيب، ثم أغلقت الفتحات بالشريط اللاصق. اصطبغ الجسم بحمرة وهج الحياة، لتحل محل الشحوب الأرجواني للموت. أخذ الصدر يرتفع وينخفض بانتظام، وبدأ الرأس يتلفت قليلًا، والجفنان يتحركان. صدرت تنهيدة واهنة بين الشفتين المتباعدتين. لم تظهر لفترة طويلة أي علامة أخرى على الحياة، ثم فجأة انفتحت الأعين. كانت ذابلة في البداية، لكنها تمتلئ الآن بتعجُّب متسائل. استقرت الأعين نحوي، ثم تجولت حول ذلك الجزء من الغرفة الذي كان مرئيًّا من موضع الجسد، ثم عادت تنظر نحوي وظلت مثبتة على ملامحي بعد

أن فحصتني من أعلى إلى أسفل. لا يزال التساؤل يملؤها، ولكن دون أن يبدو عليها الخوف. تساءلت: «أين أنا؟». كان الصوت لامرأة عجوز – عاليًا وقاسيًا. ملأ عينيها تعبير ينم عن الذهول. «ماذا حدث لي؟ ما المشكلة في صوتي؟ ماذا حدث؟».

وضعت يدي على جبينها. قلت لها بهدوء: «لا تهتمي بهذا الموضوع الآن، انتظري قليلًا حتى تصبحي أقوى. وعندئذ سأخبرك».

جلست، وقالت: «أنا قوية»، ثم امتد بصرها نحو الجزء الأسفل من جسدها وأطرافها، وسادت نظرة رعب مطلق على وجهها. «ماذا حدث لي؟ باسم سلفي الأول، ماذا حدث لي؟».

أزعجني الصوت الحاد الأجش. كان صوت ظاظا، لكن ظاظا تمتلك الآن ذلك الصوت الموسيقي الجميل الذي يتسق مع الوجه الجميل الذي سرقته. حاولت نسيان تلك النبرات الحادة والتفكير فقط في جمال الغطاء الذي كان يُزين ذات يوم الروح الموجودة داخل هذه الجثة العجوز الذابلة.

مدت يدها، ووضعتها بلطف على يدي. كان تصرفها جميلًا، وحركتها رشيقة. كان مخ الفتاة يوجه العضلات، لكن أحبال ظاظا الصوتية الفجة العجوز لا تقدر على إصدار نغمات أحلى. قالت متوسله: «أخبرني، أرجوك!». ملأت الدموع أعينها العجوز، وأعتقد للمرة الأولى منذ سنوات عديدة. «أخبرني! إنك لا تبدو قاسيًا».

أخبرتها. استمعت بإمعان، وتنهدت خلال حديثي. قالت: «على أي حال، ليس مروعًا، أعرف الآن بالفعل، فهذا أفضل من قتلي». أشعرني

كلامها بالسعادة لأنني ضغطت على الزر. كانت سعيدة لأنها على قيد الحياة، حتى وإن تدثرت بجسم ظاظا البشع. تكلمت معها بنفس القدر.

قلت: «كنتِ جميلة جدًّا».

قالت: «والآن، أنا قبيحة جدًّا؟»، لم أجب.

تساءلت: «على كلٍّ، ما الفارق؟ ليس بمقدور هذا الجسم العجوز أن يُغيرني، أو يجعلني مختلفة عمَّا كنته دائمًا. لا يزال الخير موجودًا داخلي، ومهما كان الجمال واللطف، يمكنني أن أسعد بأنني على قيد الحياة، وربما أستطيع القيام ببعض الخير. شعرت بالهلع في البداية، لأنني لم أكن أعرف ماذا حدث لي. تصورت أنني ربما أصابني مرض رهيب، وهو الذي غيرني –هذا ما أرعبني؛ ولكني أعرف الآن– أووه! ماذا في ذلك؟».

قلت: «أنتِ رائعة. كان ليجن جنون معظم النساء من الرعب والحزن لفقدان ذلك الجمال العجيب مثل الذي كان لديكِ – وأنتِ لا تهتمين».

قالت: «أوه، نعم، يهمني يا صديقي، وإنما يهمني عدم تدمير جميع جوانب حياتي الأخرى بسبب ذلك، أو أن يلقي ذلك بظلاله على حياة من حولي. كنت جميلة واستمتعت بجمالي. وأؤكد لك أنها ليست سعادة لا تشوبها شائبة. قتل الرجال بعضهم بعضًا بسبب هذا الجمال؛ وخاض بلدان كبيران الحرب بسببه؛ وربما فقد والدي عرشه أو حياته، لا أعرف؛ لأن العدو أسرني أثناء الحرب. وربما لا تزال الحرب محتدمة، والرجال يموتون لأنني كنت جميلة جدًّا»، ثم أضافت بابتسامة حزينة: «لن يحارب أحد من أجلي الآن».

سألتها: «هل تعرفين كم مضى من الوقت وأنت هنا؟».

أجابت: «نعم، أحضروني هنا قبل يوم أمس».

قلت لها: «كان ذلك قبل عشر سنوات».

«عشر سنوات! مستحيل».

أشرت إلى الجثث حولنا، وقلت موضحًا: «أنتِ رقدتِ هكذا لمدة عشر سنوات. وهناك آخرون يرقدون هنا منذ خمسين سنة، كما أخبرني راس ثافاس».

«عشر سنوات! عشر سنوات! ماذا قد لا يحدث في عشر سنوات! هكذا أفضل. يجب أن أخشى العودة الآن. يجب ألا أرغب في معرفة أن والدي، وكذا والدتي، ربما انتهيا. هكذا أفضل. ربما تسمح لي أن أنام مرة أخرى؟ ألا يمكن؟».

أجبت: «الأمر في يد راس ثافاس؛ لكن مهمتي هي ملاحظتكِ لفترة من الوقت».

«ملاحظتي؟».

«دراستكِ – دراسة ردود أفعالك».

«آه! وما الشيء الجيد الذي يسفر عن ذلك؟».

«قد يسفر عن بعض الخير في العالم».

قالت وصوتها الأجش يبعث على الحزن: «قد يمنح لهذا البشع راس ثافاس، بعض الأفكار الجديدة لغرفة التعذيب خاصته- خطط جديدة لتجميع النقود من معاناة ضحاياه».

قلت لها: «بعض أعماله جيدة. والمال الذي يجمعه يتيح له الحفاظ على هذه المؤسسة الرائعة التي يقوم فيها على الدوام بعدد لا يُحصى من التجارب. العديد من عملياته مفيد. أحضروا أمس محاربًا سُحقت ذراعه على نحو يتعذر إصلاحه، ومنحه راس ثافاس ذراعًا جديدًا. كما أحضروا طفلة مختلة العقل، ومنحها راس ثافاس مخًّا جديدًا. أخذ الذراع والمخ من شخصين لقيا مصرعهما في أعمال عنف. أتاح لهما راس ثافاس، بعد موتهما، إعطاء الحياة والسعادة لآخرين».

قالت بعد لحظات من التفكير: «أنا المحتوى. آمل فقط أن تكون أنت المراقب دائمًا».

جاء راس ثافاس الآن، وفحصها، ثم قال: «الحالة جيدة». نظر إلى السِّجل، حيث أضفت تدوينًا قصيرًا جدًّا بعد الإدخالات الأخرى المتعلقة بتاريخ الحالة رقم 'ع٢٩٦-ي-٢٦٣١-هـ'. وهذه، بطبيعة الحال، ترجمة شخصية لهذا الرقم التعريفي بعينه. لا توجد لدى البرسوميين حروف أبجدية مثل حروفنا، ونظام ترقيمهم يختلف تمامًا عن نظامنا. والرموز المذكورة أعلاه كانت مُمثَلة بأربعة رموز تونولية، لكنها تحمل المعنى نفسه- فهي تمثل، بشكل مُختَصَر، رقم الحالة والغرفة والطاولة والمبنى.

واصل راس ثافاس: «ستسكن الحالة بالقرب منك، بحيث يمكنك ملاحظتها بانتظام. توجد غرفة مجاورة لغرفتك، وسوف أتأكد من أنها غير موصدة. خذ الحالة إلى هناك. وعندما لا تخضع لمراقبتك، يجب أن تغلق عليها الباب». لم تكن سوى حالة أخرى بالنسبة له.

أخذت الفتاة، إذا كان يمكنني تسميتها على هذا النحو، إلى مسكنها. وسألتها خلال سيرنا عن اسمها، فقد تصورت أنها فظاظة غير ضرورية أن أخاطبها وأنا أشير لها دائمًا باسم 'ع٤٢٩٦-ي-٢٦٣١-هـ'، وشرحت لها ذلك.

قالت: «إن تفكيرك هذا ينطوي على مراعاة لمشاعري، لكني هنا حالة بهذا الرمز بالفعل – أنا لست سوى حالة تشريح أخرى للحيوانات الحية».

قلت: «أنت أكثر من ذلك بالنسبة لي. أنتِ بلا أصدقاء ولا حيلة لكِ. أريد أن أكون في خدمتكِ، لتيسير الوضع عليكِ، إن استطعت».

قالت: «أشكرك مرة أخرى. اسمي فالا ديا، وما اسمك؟»

قلت: «راس ثافاس يدعوني فاد فارو».

– لكنه ليس اسمك؟

– اسمي أوليسيس باكستون.

– إنه اسم غريب، يختلف عن أي اسم سمعته من قبل. لكنك تختلف أيضًا عن أي رجل رأيته من قبل – لا تبدو برسوميًّا. لون بشرتك يختلف عن لون بشرة أي عِرق.

– أنا لست من برسوم، لكني من كوكب الأرض، الكوكب الذي تسمونه أحيانًا جاسوم. ولذا يختلف مظهري عن مظهر أي شخص رأيتِهِ من قبل.

– جاسوم! يوجد جاسومي آخر هنا، وصلت شهرته إلى أقاصي

برسوم، لكني لم أره أبدًا.

سألتها: «جون كارتر؟».

– نعم، أمير الحرب. كان في هيليوم، وشعبي لم يكن صديقًا مع شعب هيليوم. لم أتمكن أبدًا من فهم كيفية وصوله إلى هنا. والآن، يوجد شخص آخر من جاسوم – كيف؟ كيف عبرت الفراغ الهائل؟

هززت رأسي، قائلًا: «لا يمكنني حتى التخمين».

قالت: «لابد أن جاسوم مأهولة برجال رائعين». كانت مجاملة لطيفة.

فقلت: «مثل برسوم المأهولة بنساء جميلات».

نظرت بأسف إلى جسدها العجوز المملوء بالتجاعيد.

قلت بلطف: «لقد رأيت جسدكِ الحقيقي».

قالت: «أكره التفكير في وجهي. أعرف أنه أصبح شيئًا مخيفًا».

– إنه ليس وجهكِ، تذكري ذلك عند رؤيته، ولا تشعري بأنه سيئ للغاية.

سألتني: «أهو سيئ إلى هذا الحد؟».

لم أجب. قالت: «لا يهم. إن لم أكن قد تمتعت بجمال الروح، لم أكن جميلة، بغض النظر عن مدى كمال ملامحي؛ وإن كنت قد امتلكت جمال الروح، فلا أزال أمتلكه. يمكنني التفكير في أفكار جميلة وأداء أفعال جميلة، وأعتقد أن هذا الاختبار الحقيقي للجمال، قبل أي شيء».

قلت هامسًا: «وهناك أمل».

- أمل؟ كلا، ليس هناك أمل إذا كنت تعني أنني قد أستعيد في يوم ذاتي المفقودة. لقد أخبرتني ما يكفي لإقناعي بأن هذا لا يمكن أن يحدث أبدًا.

قلت: «لن نتحدث في هذا الموضوع، لكننا قد نفكر فيه؛ وأحيانًا يساعدنا قدر هائل من التفكير على إيجاد وسيلة لتحقيق ما نريد، إن كنا نريده بشدة».

قالت: «لا أريد أن آمل، حتى لا أُصاب بإحباط. سأكون سعيدة كما أنا. أتمنى، فلا بد أن أكون تعيسة دائمًا».

أمرت بإحضار الطعام لها. وبعد أن وصل الطعام، أرسل راس ثافاس في طلبي، فتركتها بعد أن أغلقت باب غرفتها حسب تعليمات الجراح العجوز. وجدت راس ثافاس في مكتبه، وهي غرفة صغيرة ملاصقة لغرفة كبيرة جدًّا تضم عددًا من العاملين الذين يتولون ترتيب وتصنيف التقارير الواردة من مختلف إدارات المختبر الكبير. نهض عند دخولي.

قال: «تعال معي، فاد فارو. سوف نلقي نظرة على الحالتين في 'ل-٤٢-إكس'، اللتين تحدثت معك عنهما».

سألته: «الرجل الذي لديه نصف مخ قرد، والقرد الذي لديه نصف مخ إنسان؟».

أومأ، وسبقني نحو المدرج المؤدي إلى الأقبية الموجودة تحت

المبنى. أشارت الممرات والدهاليز، خلال هبوطنا، إلى أنها لم تُستخدَم منذ فترة طويلة. فالطوابق مغطاة بقدر لا يُطاق من التراب، لم تطأها قدم منذ فترة طويلة؛ وبالمثل كان حال مصابيح الراديوم الصغيرة التي تبعث بإضاءة خافتة في هذا الجزء من أعماق برسوم. مررنا خلال سيرنا بالعديد من المداخل على الجانبين، وعلى كل منها علامات وصفية بالهيروغليفية. وكانت العديد من الفتحات محكمة الإغلاق بالحجارة. تُرى ما الأسرار البشعة التي تختبئ داخلها؟ وصلنا أخيرًا إلى 'ل-٤٢-إكس'. الأجسام هنا مُرتبة على رفوف، العديد من الصفوف التي تملأ الغرفة بالكامل تقريبًا من الأرضية إلى السقف، باستثناء مساحة مستطيلة في منتصف الغرفة تضم طاولة عمليات سطحها من حجر الإرسايت، فضلًا عن مجموعة أدوات الجراحة، والموتور، وغيرها من معدات المختبر.

فحص راس ثافاس حالات تجربته الغريبة، وحملنا معًا الجسم البشري إلى الطاولة. وبينما كان راس ثافاس يتولى وضع الأنابيب، توليت وعاء الدم الذي وُضع على الرف نفسه مع الجثة. سرعان ما انتهينا من طريقة الإنعاش، التي أصبحت مألوفة، ونراقب الآن عودة الوعي إلى هذه الحالة.

جلس الرجل ونظر نحونا، ثم ألقى نظرة سريعة حول الغرفة؛ ظهر ضوء وحشي في عينيه عندما عادت نظراته إلينا. ابتعد ببطء عن الطاولة ونزل إلى الأرض، مع إبقاء الطاولة بيننا.

قال له راس ثافاس: «لن نلحق بك أي ضرر».

حاول الرجل الرد، لكن كلماته كانت رطانة غير مفهومة، ثم هز رأسه هادرًا. خطا راس ثافاس نحوه، وانخفض الرجل على أربع، ومفاصل أصابعه تستقر على الأرض، ثم تراجع هادرًا.

صاح راس ثافاس: «تعال! لن نلحق بك أي ضرر». حاول الاقتراب من الحالة ثانية، ولم يكن من الرجل إلا أن تراجع بسرعة، هادرًا بشراسة أكبر؛ ثم قفز فجأة بسرعة إلى الجزء العلوي من أعلى رف، حيث جثم فوق جثة وهو يتمتم نحونا.

قال راس ثافاس: «علينا أن نحصل على مساعدة»، ثم ذهب إلى المدخل، وأطلق إشارة من صفارته.

وفجأة سأله الرجل: «لماذا تطلق الصفارة؟ من أنت؟ وماذا أفعل أنا هنا؟ ماذا حدث لي؟».

قال راس ثافاس: «يمكنك النزول، نحن أصدقاء».

هبط الرجل ببطء الرجل إلى الأرض وتوجه إلينا، لكنه لا يزال يتحرك ومفاصل أصابعه على الأرض نظر إلى الجثث حوله، وظهر ضوء جديد في عينيه.

صاح: «أنا جائع! وسوف آكل!»، ثم أمسك بأقرب جثة وسحبها إلى الأرض.

صاح راس ثافاس وهو يقفز إلى الأمام: «توقف! توقف! سوف تدمر هذه الحالة»، لكن الرجل تراجع وهو يسحب الجثة على الأرض خلفه. عندئذ وصل المساعدون واستطعنا بمعاونتهم التغلب على

المخلوق البائس وتقييده. طلب راس ثافاس من المساعدين إحضار جثة القرد، وأمرهم بالبقاء، فقد نحتاج إليهم.

كانت الحالة هي عينة كبيرة لقرد برسوم الأبيض، أحد أشرس ساكني الكوكب الأحمر وأكثرهم وحشية. ونظرًا لقوة المخلوق الهائلة وضراوته، اتخذ راس ثافاس الاحتياطات اللازمة ليتأكد من تقييده جيدًا قبل إنعاشه.

كان مخلوقًا ضخمًا يبلغ طوله حوالي عشرة أو خمسة عشر قدم، يقف مستقيمًا، ولديه مجموعة وسيطة من الذراعين أو الساقين في منتصف المسافة بين أطرافه العليا والسفلى. كانت عيناه متقاربتين وغير جاحظتين؛ وكانت أذناه عاليتين، بينما كانت أنفه وأسنانه تشبه إلى حد كبير نظيرتها لدى الغوريلا الأفريقية على كوكب الأرض.

كان المخلوق ينظر إلينا متعجبًا خلال استعادته لوعيه. بدا مرات عدة أنه يحاول التحدث، لكن أصوات غير واضحة هي فقط ما صدر من حنجرته، ثم رقد ساكنًا لفترة.

تحدث معه راس ثافاس: «إذا كنت تفهم كلماتي، يمكنك أن تومئ برأسك». أومأ المخلوق.

سأله الجراح: «هل تريد أن نحررك من قيودك؟».

أومأ المخلوق ثانية بالإيجاب.

قال راس ثافاس: «أخشى أن تحاول الإضرار بنا، أو الهروب».

كان القرد يحاول جاهدًا التعبير، وأخيرًا صدر من بين شفتيه صوت

لا يمكن إساءة فهمه. كان كلمة واحدة: «لا».

كرر راس ثافاس سؤاله: «لن تضر بنا أو تحاول الهرب؟».

قال القرد: «لا»، ونطق الكلمة هذه المرة بوضوح.

قال راس ثافاس: «سنرى. ولكن تذكر أننا بأسلحتنا يمكننا قتلك بسرعة إذا هاجمتنا».

أومأ القرد، ثم قال بمشقة: «أنا لن أضركم».

أزال المساعدون القيود بإشارة من راس ثافاس، وجلس المخلوق. مدّ أطرافه وانزلق بسهولة إلى الأرض، حيث وقفت مستقيمًا على قدمين. لم يكن وقوفه يثير الدهشة، نظرًا لأن القرد الأبيض يسير في كثير من الأحيان على قدمين من أقدامه الستة؛ وهي الحقيقة التي لم أكن أعرفها في ذلك الوقت، لكنَّ راس ثافاس أوضحها لي لاحقًا في معرض تعليقه على سير الحالة الإنسانية على أربع، وهو ما اعتبره راس ثافاس إشارة ارتداد إلى النوع بزرع جزء من مخ القرد في الجمجمة البشرية.

درس راس ثافاس الحالة مطولًا، ثم استأنف دراسته للحالة الإنسانية التي استمرت في إبداء خصائص قردية أكثر من الخصائص البشرية، على الرغم من أن الرجل تحدث بسهولة أكثر من القرد؛ لأن أجهزته الصوتية أكثر كمالًا دون شك. ولم تصبح طريقة كلام القرد مفهومة إلا ببذل أقصى اهتمام.

قال راس ثافاس، بعد تخصيص نصف يوم للحالتين: «لا يوجد

شيء لافت للنظر في هاتين الحالتين. فهما يحملان ما سبق أن قررته منذ سنوات في عمليات زرع العقل كاملًا؛ أن فِعل الزرع يحفز نمو ونشاط خلايا المخ. وستلاحظ أن أجزاء المخ المزروعة تُعد أكثر نشاطًا في كل حالة منهما- فهي تسيطر إلى حد كبير. ولهذا السبب تعرض الحالة البشرية خصائص قردية واضحة، بينما يتصرف القرد بطريقة أكثر بشرية؛ ومع ذلك، إذا كان من المرغوب إجراء الملاحظة لفترة أطول وعن قرب، فإنك سوف تجد بلا شك أن كل حالة تعود أحيانًا إلى طبيعتها الخاصة -أي يصبح القرد قردًا تمامًا ويصبح البشري أكثر بشرية- لكن الأمر لا يستحق ما يستغرقه من وقت، لا سيما أنني أمضيت نهارًا لا يدر ربحًا في فحصهما، وهو وقت كبير بالفعل. سوف أتركك الآن لتعيد تخدير الحالتين، بينما أعود إلى المختبرات أعلاه. وسيبقى المساعدون هنا لمعاونتك إن لزم الأمر».

تقدم الآن القرد، الذي كان يستمع باهتمام، وتمتم قائلًا: «أوه، أرجوك، أُصلي لك، لا تُعدني مرة أخرى إلى هذه الأرفف الرهيبة. أنا أذكر يوم أن أحضروني هنا مُقيدًا بصرامة. وعلى الرغم من أنني لا أتذكر ما حدث حينذاك، لا يمكنني سوى التخمين من مظهر بشرتي، ومن هذه الجثث المتربة، أنني أرقد هنا منذ فترة طويلة. أتوسل إليك أن تسمح لي بالعيش، وإما أن تُعيدني إلى زملائي أو تسمح لي أن أخدم في هذه المنشأة، التي رأيت جزءًا منها ما بين وقت القبض عليَّ واليوم الذي أحضروني فيه، مكبلًا ولا حيلة لي، إلى هذا المختبر ووضعوني على لوح الإرسايت البارد فوق إحدى طاولاتك».

أومأ راس ثافاس على نحو يشير إلى نفاد صبره. وصاح: «هراء! أنت أفضل حالًا هنا، حيث يمكن الاحتفاظ بك لمصلحة العلم».

قلت متوسلًا: «وافِق على طلبه. وسوف أتولى بنفسي جميع مسؤولياته، بينما أستفيد من الدراسة التي سيتيحها لي».

قال راس ثافاس زاجرًا: «قم بما أمرتك به»، ثم غادر الغرفة.

هززت كتفي، وقلت: «لا يوجد شيء آخر، إذَنْ».

فكر القرد بصوت عال: «يمكنني قتلكم جميعا ثم أهرب، لكنك وددت مساعدتي. ولا يمكنني أن أقتل الشخص الذي أراد مصادقتي – على أنني أرتعد من التفكير في موت آخر. منذ متى وأنا راقد هنا؟».

رجعت إلى سجل تاريخ حالته، الذي كان معلقًا أعلى الطاولة، وقلتُ: «اثنا عشر عامًا».

سأل نفسه: «ومع ذلك، لِم لا؟ هذا الرجل سوف يقتلني ... لماذا لا أقتله أولًا».

أكدت له: «لن يفيدك ذلك في شيء؛ لأنك لن تتمكن أبدًا من الهرب، بل سوف يقتلونك بالفعل. الموت بالطريقة التي ربما يفكر فيها راس ثافاس تعني عدم إنعاشك أبدًا، بينما سأموت أنا على يديك –رغم أنني قد أجد الفرصة لاحقًا لإنعاشك، وأميل إلى ذلك– وعندئذ أعجز عن إنقاذك».

كنت أتحدث بصوت منخفض، على مقربة من أذنه، حتى لا يسمعني المساعدون. استمع القرد بإمعان.

وتساءل: «هل ستفعل بي ما تقترحه؟».

أكدت له: «في أول فرصة تسنح لي».

قال: «جيد جدًّا، أوافق، وكلي ثقة فيك».

وبعد نصف ساعة، انتهت إعادة الحالتين إلى رفيهما.

❊ ❊ ❊

الفصل (٥)

الاتفاق

تنامت الأيام إلى أسابيع، والأسابيع إلى أشهر، وأنا أجتهد في عملي بجانب راس ثافاس. زادت تدريجيًّا ثقة الجراح العجوز بي، وأخذ يخبرني الكثير عن أسرار مهارته ومهنته. كما سمح لي التدريج أداء مهام أكثر أهمية في أعمال مختبره الواسع. بدأت نقل الأطراف من حالة إلى أخرى، ثم نقل أعضاء الجهاز الهضمي الداخلية، ثم كلفني بإجراء عملية كاملة لزبون دفع أجرًا. قمت بإزالة كُليتَي رجل عجوز ثري، ووضعت مكانهما كُليتَي شاب تتمتعان بالصحة. وفي اليوم التالي أعطيتُ طفلًا توقف نموه غددًا درقية جديدة. وبعد أسبوع نقلت قلبين، وأخيرًا جاء يوم عظيم بالنسبة لي- إذ دون مساعدة من راس ثافاس، الذي وقف بجواري صامتًا، أخرجت مخ رجل عجوز وزرعته داخل جمجمة شاب.

وبعد أن أنهيت العمل، وضع راس ثافاس يده على كتفي وقال: «لم أكن لأقم بذلك على نحو أفضل». بدا مبتهجًا للغاية، وتعجبت من هذا الإبداء غير المعتاد لمشاعره وهو الذي يفتخر بعدم امتلاكه لأي مشاعر. فكرت كثيرًا في الهدف الذي دفع ثافاس إلى تكريس كل هذا الوقت لتدريبي، ولم يدر بذهني أبدًا أي تفسير أكثر ملاءمة من حاجته إلى المساعدة في عمله المتنامي. لكني اكتشفت، بعد مراجعة السجلات التي أصبحت متاحة أمامي الآن، أن ممارسته ليست أكبر مما كانت عليه لسنوات عديدة؛ وحتى مع ذلك لم أجد أي سبب بالفعل وراء تفضيله تدريبي عن تدريب أحد مساعديه من المريخيين الحُمر. وفي اعتقادي أن إيمانه بولائي ليس مبررًا كافيًا لهذه الحظوة، فقد كان بإمكانه الاحتفاظ بي كحارس شخصي وتدريب شخص من نفس عِرقه لمساعدته في عمله الجراحي.

على أنني عرفت الآن أن لديه سببًا ممتازًا لما يفعله- راس ثافاس لديه دائمًا سبب ممتاز لأي شيء يقوم به. في إحدى الليالي، بعد أن انتهينا من وجبة المساء، جلس يحدق في وجهي بإمعان مثلما يفعل في أحيان كثيرة، كأنما يقرأ ما في ذهني- وهو، بالمناسبة، ما لم يكن قادرًا عليه على الإطلاق، ويسبب له الكثير من الدهشة والكدر؛ ذلك أن أي مريخي، إن لم يكن منتبهًا على الدوام، يمكن لأي مريخي آخر أن يقرأ أفكاره بوضوح. لكن راس ثافاس لم يكن قادرًا على قراءة أفكاري، وأخبرني أن ذلك يرجع إلى أني لستُ برسوميًّا. بيد أنني كثيرًا ما أمكنني قراءة عقول مساعديه عندما لا يأخذون حذرهم، مع أنني لم أتمكن أبدًا

من قراءة أي من أفكار راس ثافاس، كما أنني على يقين من عدم تمكُّن أي شخص آخر من قراءتها. كان يغلق عقله بإحكام مثل آنية الدماء التي يحتفظ بها، كما لم يجده أحد أبدًا في لحظة سقطت فيها حواجز ذهنه.

جلس ينظر إلى وجهي هذا المساء لفترة طويلة، ولم يشعرني ذلك بأي إحراج لأني أصبحت معتادًا على غرائبياته. قال: «ربما أحد أسباب ثقتي فيك يرجع إلى أنني لم أستطع أبدًا سبر أغوار عقلك؛ ولذا لا أعرف إن كنت تأوي أفكارًا بالغدر تجاهي، بينما يكشف الآخرون جميعًا عن دواخل نفوسهم أمام عقلي البحثي، وأعرف أنهم يضمرون لي الحسد، أو الغيرة، أو الكراهية. وأعرف جيدًا أنني لا أستطيع أن أضع ثقتي فيهم. ولذلك يجب أن أقبل المخاطرة وأعتمد عليك، ويخبرني عقلي أن اختياري حكيم – وهكذا أقول لك أسس اختياري لك كحارسي الشخصي. ويصدق الأمر نفسه على اختياري لك للشيء القائم في ذهني. فأنت لا يمكنك إضراري دون الإضرار بنفسك، ولن يتعمد أي رجل القيام بذلك؛ كما لا يوجد أي سبب لأن تشعر بأي عداء عميق تجاهي.

«أنت عاطفي، بطبيعة الحال، ولا شك أنك تنظر برعب نحو العديد من أعمال عقل عاقل ورشيد وعلمي؛ لكنك تتمتع أيضًا بذكاء شديد ولذا يمكنك تقدير – أفضل من غيرك، حتى مع عدم موافقتك – الدوافع التي تدعوني للقيام بالعديد من تلك الأشياء التي تستنكرها مشاعرك. ربما أسأت إليك، لكني لم أظلمك أبدًا، ولم أظلم أي مخلوق ربما شعرت أنت تجاهه بما تسميه الصداقة أو الحب. هل افتراضي غير

صحيح، أو منطقي خاطئ؟».

أكدت له عكس ذلك.

«حسنًا! سوف أشرح لك الآن لماذا تكبدت مشقة تدريبك كما لم يتدرب على الإطلاق أي كائن بشري آخر، باستثناء نفسي. لست مستعدًّا لاستخدامك بعد، أو بالأحرى أنت لست جاهزًا بعد؛ لكنك إذا عرفت هدفي، سوف تدرك ضرورة تكريس طاقتك لإنجازه. وتحقيقًا لهذه الغاية، سوف تسعى جاهدًا، أكثر حتى مما تفعل، لإتقان الفن العلمي السامي الذي أعلمه لك».

تابع كلامه، بعد توقف قصير: «أنا رجل كهل جدًّا، حتى مع حساب العمر في برسوم. لقد عشت أكثر من ألف سنة، وتجاوزت فترة الحياة الطبيعية هنا، لكني لم أنتهِ من العمل الذي كرست له حياتي، بل يكاد أن يبدأ. ويجب ألا أموت. ويجب ألا تتعرض برسوم لسرقة مخي ومهارتي الرائعين. كانت لديَّ خطة منذ فترة طويلة للتغلب على الموت، لكنها تتطلب شخصًا آخر يتمتع بمهارة مساوية لمهارتي – ويعيش الاثنان إلى الأبد. وقد اخترتك لتكون هذا الشخص الآخر، للأسباب التي شرحتها مسبقًا – لا تدنسهما المشاعر. لم يكن اختياري لك لأنني أحبك، أو لأنني أشعر بالصداقة معك، أو لأنني أعتقد أنك تحبني، أو تشعر بالصداقة تجاهي. اخترتك لأنني أعرف أنك أنت، من بين جميع سكان العالم، الشخص الأقل احتمالًا أن تخذلني. سوف تكون حياتي بين يديك لفترة. وأنت تدرك الآن لماذا لم يكن بمقدوري التعجل في الاختيار.

«أما الخطة التي اخترتها، فهي البساطة نفسها شريطة أن أستطيع الاعتماد على عاملين أساسيين فقط: مهارة مساعدي وولائه القائم على المصلحة الذاتية. إن جسدي يتهالك تقريبًا، ويجب أن أحصل على جسد جديد. يمتلئ مختبري بأجسام رائعة، شابة وتتمتع بكامل القوة والصحة. لا يتبقى سوى تحديد أحدها ويتولى مساعدي الماهر نقل مخي من جسدي العجوز إلى جسد جديد». توقف عن الكلام.

قلت: «أدرك الآن لماذا دربتني، فكثيرًا ما أثار ذلك حيرتي».

واصل كلامه: «يمكنني هكذا، وهكذا فقط، مواصلة جهودي، وبالتالي تطمئن برسوم إلى استمرار الفوائد التي يمنحها ذهني إلى أطفالها عمليًّا إلى أجل غير مسمى. يمكنني أن أعيش إلى الأبد، شريطة أن يصاحبي دائمًا مساعد ماهر؛ كما يمكنني طمأنة نفسي بتحقيق ذلك بأن أتأكد أنه لن يموت أبدًا. فإذا تهالك أحد أعضاء جسده، أو جسده كله، يمكنني إحلال عضو جديد أو جسم جديد محله من مستودعي الكبير الذي يضم حالات ممتازة، كما يمكن لمساعدي أن يؤدي لي نفس الخدمة. وبالتالي يمكننا مواصلة عيشنا إلى الأبد؛ ذلك أن المخ، كما أعتقد، لا يموت تقريبًا إلا إذا أُصيب بجروح أو تعرض لمرض.

«أنت لست مستعدًّا حتى الآن لأعهد لك بهذه المهمة الخطيرة. يجب أن تنقل المزيد من الأمخاخ، وتواجه وتتغلب على العديد من الحالات غير القياسية والغريبة التي تشكل الاختلافات التي لا تفشل أبدًا في جعل أي عمليتين غير متطابقتين. عندما تكتسب المهارة الحِرفية

الكافية، سأكون أول من يعرف ذلك، وعندئذ لن نضيع أي وقت لتصبح برسوم آمنة للأجيال القادمة».

كان الرجل العجوز أبعد ما يكون عن كراهية نفسه. على أن خطته كانت ممتازة، سواء لنفسه أو لي. لقد أكدت لنا الخلود: قد نعيش إلى الأبد، وبأجسام شابة تتمتع بالقوة والصحة دائمًا. كانت التوقعات مُغرية، ويا له من موقع رائع وضعني فيه. إذا كان العجوز على ثقة في ولائي بسبب المصلحة الذاتية، يمكنني بالمثل أن أعتمد على ولائه؛ إذ لا يمكنه استعداء المخلوق الوحيد في العالم الذي قد يضمن له الخلود، أو يحجبه عنه. وللمرة الأولى، منذ دخول منشأته، أشعر بالأمان.

تركته وتوجهت مباشرة إلى شقة فالا ديا؛ لأنني أردت أن أقول لها هذه الأخبار الرائعة. رأيتها كثيرًا خلال الأسابيع التي انقضت منذ إنعاشها، كما تكشف لي تدريجيًّا خلال معاملاتنا اليومية جمال روحها العجيب، حتى لم أعُد أرى أخيرًا وجه ظاظا البشع المشوه عندما أنظر إليها، وإنما توغلت أعين قلبي بعمق في جمالها الذي يكمن داخل هذا العقل الفاتن. لقد أصبحت صديقتي المقربة وكاتمة أسراري، كما أصبحت أنا بالنسبة لها، وشكّلت هذه الرابطة إحدى دواعي سروري العظيم لوجودي في برسوم.

كانت تهانيها صادقة وجميلة جدًّا عندما أخبرتها بما حدث. وقالت إنها تأمل في أن استخدم هذه القوة الهائلة في عمل الخير في العالم. أكدت لها ذلك، وأن منحها جسمًا جميلًا سيكون بين أول الأشياء التي سأطلبها من راس ثافاس؛ لكنها هزت رأسها.

وقالت: «كلا، يا صديقي، إن لم أحصل على جسمي نفسه، فإن جسم ظاظا العجوز مثله مثل أي جسم آخر بالنسبة لي. لن أهتم بالعودة إلى بلدي من دون جسمي الأصلي؛ في حين إذا منحني راس ثافاس جسمًا جميلًا آخر، سأظل دائمًا في خطر طمع إحدى موكلاته التي قد تراه وترغب في شرائه، وتترك لي جسمها القديم، الذي ربما يكون مريضًا أو مشوهًا. لا، يا صديقي، أنا راضية بجسم ظاظا ما لم أحصل على جسدي ثانية؛ فعلى الأقل أورثتني ظاظا جسمًا قويًّا يتمتع بالصحة، مهما كان قبيحًا؛ فما أهمية المظهر هنا؟ أنت صديقي الوحيد، وصداقتك كافية. أنت تُعجب بي لشخصي، وليس لمظهري، فلنترك الأمور كما هي».

سألتها: «هل ترغبين في استعادة جسمك والعودة إلى بلدك الأصلي؟».

بكت: «أوه، لا تقل ذلك! إن مجرد التفكير في ذلك يثير جنون شوقي. يجب ألا أفكر في حلم يائس؛ لأنه لن يقودني في أحسن الأحوال إلا إلى زيادة بغضي لمصيري».

جادلتها قائلًا: «لا تقولي 'يائس'؛ فالموت فقط هو ما يجعل الأمل عقيمًا».

أضافت: «أنت تريد أن تكون لطيفًا، لكنك تؤذيني فحسب. فلا يمكن أن يوجد أي أمل».

سألتها: «هل يمكنني أن آمل لك إذَنْ؟ فأنا أرى بالتأكيد وسيلة؛ ومهما كانت إمكانية النجاح طفيفة، فهي لا تزال وسيلة».

هزت رأسها وقالت بحسم: «ما من وسيلة. لن تعرفني دوهور بعد الآن».

كررت كلمتها: «دوهور؟ هل هو شخص يهمك كثيرًا؟».

أجابت بابتسامة: «دوهور تهمني للغاية، لكنها ليست شخصًا- دوهور هي موطني، بلد أجدادي».

سألتها: «كيف تركت دوهور؟» لم تخبريني أبدًا، فالا ديا».

أجابت: «كان ذلك بسبب قسوة جال هاد، أمير أمهور. تتوارث دوهور وأمهور العداء؛ لكن جال هاد جاء متنكرًا إلى مدينة دوهور لأنه سمع، كما يقولون، عن الجمال الرائع لابنة كور سان، جيداك دوهور، الوحيدة. وعندما شاهدها، قرر امتلاكها. عاد إلى أمهور، وأرسل سفراء إلى بلاط كور سان لطلب يد أميرة دوهور. لكن كور سان، الذي لم يكن لديه ابن، كان قد قرر تزويج ابنته من جِد[١٢] من بلده، بحيث الابن الذي يولد ويحمل دماء سان كور في عروقه، قد يتولى حُكم شعب دوهور؛ ولذا رفض عرض جال هاد.

«أثار رفضه غضب الأمهوري، إلى حد أنه جهّز أسطولًا كبيرًا وتوجه لقهر دوهور وأخذ بالقوة ما لم يستطع الفوز به بطرق شريفة. كان دوهور في ذلك الوقت في حالة حرب مع هيليوم، وجميع القوات في موقع بعيد في الجنوب، باستثناء جيش صغير تُرِك لحراسة المدينة. ولذا كان اختيار جال هاد لتوقيت الهجوم ملائمًا. سقطت دوهور.

(١٢) جِد: الجِد هو لقب قائد مدينة أو جماعة *http://barsoom.wikia.com/wiki/Jed* – المترجمة.

وبينما كانت قواته تنهب المدينة الجميلة، هاجم جال هاد، مع قوة منتقاة، قصر الجيداك وبحث عن الأميرة؛ لكن الأميرة لم تكن ترغب في العودة معه كأميرة أمهور. أدركت الأميرة، مع الآخرين في المدينة، من لحظة رؤية طليعة أسطول أمهور في السماء، غرض مجيئهم، ولذا استخدمت عقلها لإفشال هذا الغرض.

«كانت حاشيتها تضم أخصائيًّا في التجميل، تكمن مهمته في الحفاظ على جمال شعر الأميرة وبشرتها وإعدادها لملاقاة الجمهور في الحفلات، وفي اللقاءات اليومية في البلاط. كان فنانًا بحق؛ يمكنه جعل القبيح ممتعًا للنظر، والعادي جميلًا، والجميل متألقًا. دعته الأميرة بسرعة وأمرته بأن يجعل تألقها قبيحًا. وعندما انتهى من عمله، لم يكن بمقدور أحد أن يُخمن أنها أميرة دوهور، نظرًا لمهارة ما صنعه بأصباغه وفرشاته الصغيرة.

«وعندما تعذر على جال هاد العثور على الأميرة داخل القصر، ولم ينجح أي قدر من التهديد أو التعذيب في إجبار الموالين لها على القول بمكانها وجودها، أمر الأمهوري بإحضار كل امرأة في القصر وإرسالها إلى أمهور؛ حيث يبقين كرهائن إلى حين تسليمه أميرة دوهور ليتزوجها. وهكذا، أمسكوا بنا جميعًا وأخذونا إلى سفينة حربية أمهورية، توجهت إلى أمهور قبل باقي الأسطول الذي ظل لاستكمال سلب دوهور وإسقاطها.

«وبعد أن قطعت السفينة، بقافلتها الصغيرة، حوالي أربعة أو

خمسة آلاف هاد[١٣]، تفصل دوهور عن أمهور، شاهدها أسطول من فوندال وهاجمها على الفور. دُمِرت أو طُرِدت سفن القافلة، وأُسِرت السفينة التي كانت تحملنا. نقلونا إلى فوندال، حيث عرضونا في مزاد، واشتراني أحد عملاء راس ثافاس. وأنت تعرف باقي القصة».

سألتها: «وماذا حدث للأميرة؟».

«ربما ماتت -فقد تفرقت جماعتها في فوندال- لكن الموت قد يمنع عودتها إلى دوهور. لن تتمكن أميرة دوهور أبدًا من رؤية موطنها ثانية».

طرأت في ذهني خطة، فقلت صائحًا: «لكنك تستطيعين! أين تقع دوهور؟».

ضحكت قائلة: «هل ستذهب إلى هناك؟».

«نعم!».

قالت: «أنت مجنون، يا صديقي. دوهور تقع على مسافة سبعة آلاف وثمانمائة هاد من تونول، على الجانب الآخر من تلال أرتول التي تغطيها الثلوج. أنت غريب ووحيد، ولا يمكنك الوصول إليها؛ إذ تقع على طول المسافة مستنقعات تونول، وجحافل برية، وحيوانات متوحشة، ومدن حربية. قد تموت بلا جدوى خلال أول عشرة هاد، حتى إذا نجحت في الهرب من الجزيرة التي يوجد عليها مختبر راس ثافاس؛

(١٣) الهاد: هو الميل في برسوم - *http://barsoom.wikia.com/wiki/Linear_Measurement* - المترجمة.

وما الذي يدفعك إلى هذه التضحية عديمة الجدوى؟».

لم أستطع إخبارها. فلا يمكنني النظر إلى هذا الجسم الذابل وهذا الوجه القبيح والمشوه وأقول: «لأنني أحبكِ يا فالا ديا». لكنه، للأسف، كان سببي الوحيد. فتدريجيًّا، مع تعرفي عليها خلال الانكشاف البطيء لروعة جمال عقلها وروحها، تسلل حبها إلى قلبي؛ على أنني لم أكن أستطيع تفسيره، ولا قول تلك الكلمات إلى تلك العجوز الشمطاء المخيفة. لقد رأيت الجسد الرائع الذي كانت تسكنه روح بنفس الروعة لفالا ديا الحقيقية – التي يمكن أن أحبها؛ يمكن أن أحب قلبها وروحها وعقلها؛ لكني لا يمكن أن أحب جسم ظاظا. كنت ممزقًا أيضًا بشعور آخر يسببه شك كبير– هل تبادلني فالا ديا الحب. مع سكناها الآن في جسم ظاظا، دون أي خاطب آخر ولا صديق آخر، يمكنها أن تنجذب نحوي بدافع الامتنان أو مجرد الشعور بالوحدة؛ ولكن إذا أصبحت فالا ديا الجميلة مرة أخرى وعادت إلى قصر ملكها، محاطة بالعظماء من نبلاء دوهور، هل ستتجه عينها أو قلبها نحو مغترب وحيد بلا أصدقاء من عالم آخر؟ أشك في ذلك. على أن هذا الشك لم يمنعني من تصميمي، بقدر ما يتيحه المصير، على المضي في المخطط المجنون الذي كان يدور في ذهني.

قاطعت أفكاري المتلاطمة: «لم تجب على سؤالي، فاد فارو. لماذا تريد القيام بذلك؟».

قلت: «لتصحيح الخطأ الذي ارتُكِب في حقكِ، فالا ديا».

تنهدت. وقالت متوسلة: «لا تحاول ذلك، أرجوك. فأنت تسلبني

صديقي الوحيد، وصداقته هي مصدر السعادة الوحيد المتبقي لي. لكرمك وولائك كل تقدير عندي، على الرغم من أنني لا أفهمهما؛ فرغبتك الكريمة في مساعدتي في هذه المخاطرة الانتحارية تمسني بأعمق مما يمكن أن تكشف عنه كلماتي، مما يضيف إلى ديوني لك؛ لكنك يجب إلا تقوم بهذه المحاولة- يجب ألا تحاول».

أجبت: «إذا كان هذا الأمر يزعجكِ، فالا ديا، فلن نتكلم عنه ثانية؛ لكنكِ يجب أن تعرفي أنه لن يغيب عن ذهني أبدًا. وفي يوم ما، سأجد وسيلة، حتى إن أخفقت خطتي الآن».

مرت الأيام، وامتلأت ليالي المريخ الرائعة بقمريه المسرعين يتبع أحدهما الآخر. أنفق راس ثافاس المزيد من الوقت في توجيه عملي لنقل المخ. أصبحت ماهرًا في عملي منذ فترة طويلة؛ وأدركت أن الوقت يقترب بسرعة ليطمئن راس ثافاس بأن يعهد حياته ومستقبله ليدي ومهارتي. سيصبح تحت سلطتي كليًّا، ويعرف أنني أعرف ذلك. يمكنني قتله؛ ويمكنني أن أبقيه إلى الأبد محفوظًا في قبضة مخدره؛ أو يمكنني خداعه بأي حيلة، حتى بإعطائه جسم كالوت[١٤] أو جزءًا من مخ قرد؛ إلا أن عليه اغتنام الفرصة، كما أعرف، لأنه كان يضعف بسرعة. لقد أصبح أعمى تقريبًا، وكانت النظارة الرائعة التي اخترعها هي فقط التي تتيح له الرؤية على الإطلاق؛ وفقد السمع منذ فترة طويلة، ولذا يستخدم وسائل اصطناعية للسمع؛ وبدأت أعراض التعب تظهر

(١٤) الكالوت: الكلب المريخي، وهو بحجم المُهر ولديه عشرة أرجل، ويضم فكاه ثلاثة صفوف من الأنياب الطويلة الحادة – *http://barsoom.wikia.com/wiki/Calot* – المترجمة.

الآن على قلبه، بحيث لم يعُد يمكنه تجاهلها.

وفي صباح أحد الأيام، أرسل عبدًا يستدعيني إلى جناح نومه. وجدت الجراح العجوز مستلقيًا - كومة منكمشة يُرثى لها، من الجلد والعظم الذابل.

همس بضعف: «يجب أن نسرع، فاد فارو. يبدو أن قلبي توقف قبل قليل لعدة تالات[١٥]. ولذا أرسلت في طلبك». وأشار إلى باب في غرفته قائلًا: «ستجد هناك الجسم الذي اخترته. هناك، في المختبر الخاص الذي بنيته منذ فترة طويلة لهذا الغرض تحديدًا، ستقوم بإجراء أعظم عملية جراحية عرفها العالم: نقل المخ الأكثر كمالًا إلى أجمل وأكمل جسم شهدته هذه الأعين العجوز. سوف تجد الرأس جاهزًا لتلقي مخي؛ فقد أزلت مخ ذلك الشخص ودمرته- حرقته النيران تمامًا. فلا أريد المجازفة بوجود مخ يرغب ويخطط لاستعادة جسمه الرائع. كلا، لقد حرقته. استدعِ العبيد، واطلب منهم نقل جسدي إلى اللوح الإرسايتي».

قلت له: «ليس ضروريًّا؛ وحملت جسمه المنكمش بين ذراعي كطفل إلى الغرفة المجاورة، حيث وجدت المختبر مضاء ومجهزًا

(١٥) تال: فترة زمنة قصيرة جدًّا تعادل تقريبًا الثانية على كوكب الأرض. وقد ورد في قصة «آلهة المريخ» أن يوم المريخ يزيد بمقدار ضئيل على ٢٤ ساعة و٣٧ دقيقة (بتوقيت كوكب الأرض). ويقسمه المريخيون إلى عشرة أجزاء متساوية تسمى زود (أي أن دورة المريخ حول محوره تساوي ١٠ زود)، وينقسم الزود إلى خمسين فترة أقصر تسمى زات (أي أن الزود يعادل ٥٠ زات)، يتكون كل منها بدوره من ٢٠٠ فترة زمنية قصيرة تعادل تقريبًا الثانية في كوكب الأرض وتسمى تال (أي ٢٠٠ تال يعادل ١ زات) - المترجمة.

تمامًا، ويضم طاولتين للعمليات، توجد فوق إحديهما جثة رجل أحمر. وضعت راس ثافاس فوق سطح الطاولة الأخرى، الذي كان شاغرًا، ثم التفت لإلقاء نظرة على الجسم الجديد الذي اختاره. لا أعتقد أنني رأيت من قبل جسدًا بهذا الكمال، ووجهًا بهذه الوسامة – كان اختيار راس ثافاس جيدًا بحق؛ ثم نظرت إلى الجراح العجوز. قمت ببراعة، كما علمني، بإجراء الشقين وتعليق الأنابيب. استقر إصبعي على الزر الذي يجعل الموتور يبدأ في ضخ الدماء من عروقه وإدخال مخدر الصيانة الرائع إليها، ثم تكلمت.

قلت: «راس ثافاس، لقد دربتني لفترة طويلة تحقيقًا لهذه الغاية. وقد اجتهدت بلا كلل لإعداد نفسي حتى لا يوجد أدنى سبب للتخوف من النتائج. وعلمتني، في الوقت نفسه، أن تصرف أي شخص يجب أن تدفعه تم المصلحة الذاتية فقط. ولذا أنت تشعر بالرضى لأنني لا أفعل ذلك لأني أحبك أو أشعر بأي صداقة معك؛ لكنك تعتقد أنك عرضت لي ما يكفي لأن أضع أمامي فرصة مماثلة للخلود.

«وبغض النظر عن تعاليمك، أخشى أنني ما زلت عاطفيًّا نوعًا ما وأتوق إلى تصحيح الأخطاء. إنني أتوق إلى الصداقة والحب. السعر الذي عرضته ليس كافيًا. هل أنت على استعداد لأن تدفع لي أكثر لأنهي هذه العملية بنجاح؟».

استقرت نظرته نحوي لدقيقة طويلة. وسألني: «ماذا تريد؟». رأيته يرتجف غضبًا، لكنه لم يرفع صوته.

سألته: «هل تذكر الحالة '٤٢٩٦-ي-٢٦٣١-هـ'؟».

«الحالة التي تسكن جسم ظاظا؟ نعم، أذكرها. ماذا عنها؟».

«أريد أن يعود لها جسدها. هذا هو الثمن الذي يجب أن تدفعه لهذه العملية».

نظر نحوي شذرًا: «هذا مستحيل. ظاظا لديها الجسد. وحتى إن اهتممت بالقيام بذلك، فلن يمكنني استعادته أبدًا. هيا، عليك أن تشرع في العملية!».

قلت بإصرار: «عندما تعطيني وعدًا».

«لا يمكنني أن أعدك بشيء مستحيل، لا يمكن الحصول ظاظا. اطلب شيئًا آخر. أنا لست رافضًا لأي طلب معقول».

«هذا كل ما أريده- هذا فقط؛ لكني لست مصرًّا أن تحصل على الجسم. إذا أحضرت لك ظاظا هنا، فهل تقوم بعملية النقل؟».

استشاط غضبًا: «هذا قد يعني الحرب بين تونول وفوندال».

قلت: «وهذا لا يهمني. بسرعة! عليك أن تتخذ قرارك. سوف أضغط على الزر بعد خمس تالات. إذا وعدتني بإنجاز طلبي، ستجد نفسك بجسم جديد وجميل؛ وإذا رفضت، سوف ترقد هنا في ما يشبه الموت إلى الأبد».

قال ببطء: «أعدك، إذا أحضرت جسم ظاظا إلى هنا، سأنقل إليه أي مخ تختاره من بين الحالات الموجودة عندي».

قلت: «جيد»، وقمت بالضغط على الزر.

الفصل (٦)

الخطر

استيقظ راس ثافاس من التخدير مخلوقًا جديدًا رائعًا - شابًّا يتمتع بجمال عجيب يبدو سماويًّا أكثر منه دنيويًّا؛ لكن هذا الرأس الجميل كان يحوي المخ الصارم البارد لجراح عجوز يتجاوز عمره ألف عام. وعندما فتح عينيه، نظر نحوي ببرود.

وقال: «أحسنت».

قلت: «لقد قمت بذلك من أجل الصداقة- ربما من أجل الحب؛ يمكنك إذَنْ أن تشكر العاطفة التي تنتقدها لأنها سبب نجاح عملية النقل».

لم يردّ.

واصلت حديثي: «والآن، سوف أنتظر منك الوفاء بوعدك».

قال: «عندما تحضر جسم ظاظا، سوف أنقل إليه مخ أي حالة تنتقيها. لكني لو كنت مكانك، فيجب ألا أعرض حياتي لخطر مشروع مستحيل- لا يمكنك أن تنجح. يمكنك اختيار جسم آخر - يوجد العديد من الجميلات - وسوف أمنحه مخ الحالة '٤٢٩٦-ي-٢٦٣١-هـ'».

قلت: «لن يفي بوعدك سوى الجسم الذي تملكه الآن الجيدارة ظاظا».

هز كتفيه، وظهرت ابتسامة باردة على شفتيه الوسيمتين. قال: «حسنًا، يمكنك إحضار ظاظا. متى تبدأ؟».

«لست جاهزًا بعد. سوف أخبرك عندما أجهز».

«حسنًا. انصرف الآن- لكن، انتظر! عليك أن تذهب أولًا إلى المكتب وترى الحالات التي تنتظرنا، وإذا وجدت أي حالات لا تتطلب انتباهي الشخصي، وتقع في إطار مهارتك ومعرفتك، يمكنك رعايتها بنفسك».

لاحظت خلال مغادرتي ابتسامة رضى ماكرة على شفتيه. تُرى ماذا أثارها؟ لم يعجبني ذلك. وحينما ابتعدت، حاولت التفكير في ما قد مر بذلك المخ العجيب ليستدعي ابتسامة غير سارة في تلك اللحظة الخاصة. وعندما سرت عبرت المدخل ووصلت إلى الممر، سمعته يستدعي عبده وحارسه الشخصي يمدور- وهو زميل ضخم، يحافظ راس ثافاس على ولائه من خلال إغداقه بالهدايا الفخمة والأفضال التي لا تُعد ولا تُحصى. كانت سلطة هذا الزميل هائلة بحيث يخشاه الجميع؛ إذ يمكن لكلمة من شفتي يمدور إلى سيده أن ترسل بسهولة

أي من العبيد أو المعاونين الكثيرين إلى الخلود على لوح الإرسايت. وتطرح الشائعات أن هذا الزميل كان نتيجة لتجربة غير طبيعية، جمعت بين مخ امرأة وجسم رجل. وهناك الكثير في تصرفاته وسلوكياته تبرر هذا الاعتقاد العام. كانت لمسته، عندما يعمل مع سيده، ناعمة وخفيفة، وحركته رشيقة، وأساليبه لطيفة، لكن عقله كان غيورًا وانتقاميًّا ولا يرحم.

أعتقد أنه لم يكن يحبني، لغيرته من السلطة التي اكتسبتها في منشأة راس ثافاس؛ فما من شك أنني كنت بمثابة نائب بينما هو مجرد عبد؛ إلا أنه كان يمنحني دومًا كل تقدير واحترام. بيد أنه كان مجرد ترس صغير في آلية المنشأة العظيمة التي يرأسها العقل السيادي لراس ثافاس، ولذا منحته بعض الاعتبار؛ لكني لم أفعل ذلك الآن وأنا أخطو صوب المكتب.

لم أكن قد قطعت إلا مسافة قصيرة عندما تذكرت مسألة تتسم بالأهمية، وكان من الضروري أن أحصل بشأنها على إرشادات من راس ثافاس على الفور. ولذا عدت أدراجي نحو جناحه. وعندما اقتربت من المدخل المفتوح، سمعت الصوت الجديد للسيد الجراح. كان راس ثافاس يتحدث دائمًا بصوت مرتفع، سواء كانعكاس صوتي طبيعي لشخصيته السلطوية المهيمنة، أو بسبب إصابته بالصمم- لا أعرف؛ لكن كلماته الآن، مع الأحبال الصوتية الشابة لجسده الجديد، ترن واضحة مميزة في الممر المؤدي إلى غرفته.

كان يقول: «لهذا، يمدور، عليك أن تذهب على الفور وتختار

عبدين تثق في صمتهما وحذرهما، وتأخذوا الحالة من جناح فاد فارو وتدمروها- لا تترك أي بقايا من الجسم أو المخ. وبعد ذلك مباشرة، تحضر العبدين إلى المختبر 'ف-٣٠-ل'، ولا تسمح لهما بالتحدث إلى أي شخص، وسوف أرسلهما إلى غياهب الصمت والنسيان إلى الأبد».

«سوف يكتشف فاد فارو غياب الحالة، ويبلغني بذلك. وأثناء التحقيق، عليك أن تعترف بأنك ساعدت '٤٢٩٦-ي-٢٦٣١-هـ' على الهرب، لكنك لا تعرف إلى أين كانت تنوي الذهاب. سوف أحكم عليك بالإعدام كعقوبة، لكني في النهاية سوف أشرح مدى احتياجي المُلح لخدماتك، ثم بناء على تعهدك الرسمي أنك لن تقوم بأي مخالفة أخرى، سوف أقوم بتأجيل العقوبة لفترة استمرار حسن السير والسلوك. هل تفهم مجمل الخطة بدقة؟»

أجاب يمدور: «نعم، سيدي».

«إذَنْ توجَّهْ على الفور لاختيار العبدين لمساعدتك».

انطلقت بسرعة وفي صمت على طول الممر إلى أن أتاح لي أول تقاطع الاختباء عن أنظار أي شخص قادم من جناح راس ثافاس؛ ثم توجهت مباشرة إلى الغرفة التي تشغلها فالا ديا. فتحت الباب وأشرت لها بالخروج: «بسرعة! فالا ديا! ليس لدينا وقت نضيعه. ففي محاولتي لإنقاذك، جلبت لك الدمار. علينا أولًا أن نجد مكانًا تختبئين فيه، الآن على الفور، وبعد ذلك يمكننا التخطيط للمستقبل».

أول مكان طرأ في ذهني كمخبأ مناسب: الأقبية نصف المنسيّة

في الحُفر التي تقع تحت المختبرات، وأسرعت أنا وفالا ديا نحوها. سردت لها خلال سيرنا كل ما حدث، ولم تلمني على الإطلاق؛ بل أعربت بالأحرى عن امتنانها لما أسعدها أن تُسميه صداقتي غير الأنانية. وأكدت لي أن فشل المشروع ليس بسببي، وأصرت أنها تُفضل الموت وهي تعرف أن لديها صديقًا مثلي على العيش إلى الأبد بلا أصدقاء.

وصلنا أخيرًا إلى القاعة التي كنت أسعى إليها - القبو 'ل-٤٢-إكس' في المبنى '٤-ج-٢١'، حيث يرقد جسما القرد والرجل، الذي يمتلك كل منهما نصف مخ الآخر. كنت هنا مجبرًا على ترك فالا ديا كي أسرع إلى المكتب لأداء الواجبات التي فرضها راس ثافاس، خشية إثارة شكوكه عندما يُبلغه يمدور أنه وجد شقتها شاغرة.

وصلت إلى المكتب دون أن يكتشف أي شخص يمكنه إبلاغ راس ثافاس أنني غبت لفترة طويلة بعد خروجي من شقته. شعرت بالارتياح عندما لم أجد أي حالات. وجدتها ذريعة للخروج. ودون إبداء أي مظهر من التسرع غير المبرر، اتخذت طريقي على الفور نحو جناحي، متحركًا على مهل وبلا مبالاة، كما كنت أطلق كعادتي صفيرًا (وهي العادة الذي كانت تغضب راس ثافاس كثيرًا)، لأغنية كانت شائعة في وقت مغادرتي كوكب الأرض. كان صفيرًا لمقطع «أوه، يا فرنسيين».

كان هذا وضعي عندما التقيت بيمدور يتحرك مسرعًا على طول الممر الذي يخرج من شقتي، بصحبة عبدين من الذكور. قمت بتحيته بسرور، كعادتي، ورد التحية؛ لكن تعبيرات الخوف والشك كانت تملأ عينيه. ذهبت على الفور إلى جناحي وفتحت الباب المؤدي إلى الغرفة

التي كانت تشغلها فالا ديا، ثم سارعت فورًا إلى شقة راس ثافاس ووجدته يتحدث مع يمدور. هرعت لاهثًا ومتخذًا مظهر الانفعال الشديد.

سألته: «راس ثافاس، ماذا فعلت بالحالة '٤٢٩٦-ي-٢٦٣١-هـ'؟ لقد اختفت؛ شقتها فارغة؛ وعندما كنت أقترب من الشقة قابلت يمدور وعبدين آخرين قادمين من اتجاهها». استدرت بعد ذلك إلى يمدور وأشرت نحوه بإصبع اتهام، صائحًا: «يمدور! ماذا فعلت بهذه المرأة؟».

بدت حيرة حقيقية على راس ثافاس ويمدور، وهنأت نفسي أنني نجحت في تغيير مسار سعيهما. أعلن السيد الجراح إجراء تحقيق فوري؛ وفي الوقت نفسه أصدر أوامره ببحث شامل للمكان وللجزيرة خارج الحظيرة. أنكر يمدور أي معرفة بالمرأة، وكنت أنا، على الأقل، أعلم بصدق احتجاجاته، لكن راس ثافاس لم يكن كذلك. فقد رأيت لمحة تشكك في عينيه وهو يسأل خادمه الشخصي؛ لكنه بالفعل لا يمكنه تصور أي دافع لارتكاب يمدور هذه الخيانة، لأنه وافق على تمثيل اختطاف امرأة وما يترتب على ذلك من عصيان جسيم للأوامر.

لم يكشف التحقيق الذي أجراه راس ثافاس عن أي شيء. وأعتقد أن شكوكه في أنني ربما أعرف المزيد عن اختفاء فالا ديا أكثر مما أظهر سلوكي قد زادت تدريجيًّا بمرور الوقت، فقد أصبحت الآن على دراية بدقة إخفاء التجسس. تمكنت حتى الآن من تهريب المواد الغذائية إلى فالا ديا كل ليلة، بعد ذهاب راس ثافاس إلى جناحه للراحة. وفي إحدى المناسبات، شعرت فجأة أن هناك من يتبعني. ولذا، توجهت إلى المكتب، بدلًا من الأقبية، حيث أضفت بعض الملاحظات على تقريري

حول قضية قد عالجتها في ذلك اليوم. وكنت أدندن، خلال عودتي إلى غرفتي، بعض مقاطع من «بعيدًا هناك»، بحيث تبدو راحة بالي واضحة. وكنت على يقين من وجود أعين تراقب تحركي، من لحظة مغادرة لجناحي حتى عودتي. «ماذا أفعل؟» يجب أن تحصل فالا ديا على الطعام وإلا ستموت؛ وإذا تتبعني أحد خلال حملي الطعام إلى مكان اختفائها، ستموت؛ سيعمل راس ثافاس على تحقيق ذلك.

بقيت مستيقظًا نصف الليلة، أفكر في حلول مختلفة لهذه المشكلة. لم أجد سوى طريقة واحدة – يجب أن أتملص من الجواسيس. إذا نجحت في ذلك مرة واحدة، يمكنني تنفيذ باقي الخطة التي طرأت في ذهني وهي، كما تصورت، الخطة الوحيدة الممكنة التي قد تؤدي في نهاية المطاف إلى استعادة فالا ديا لجسدها. كان الطريق طويلًا، والمخاطر هائلة؛ لكني كنت شابًّا وواقعًا في الحب ومستهترًا بالعواقب تمامًا بقدر ما يتعلق الأمر بي؛ وكان لسعادة فالا ديا وحدها ألا أخاطر بشدة إلا تحت ضغط شديد. حسنًا، الضغوط موجودة، ويجب أن أخاطر حتى ولو بحياتي.

وضعت خطتي ورقدت مستيقظًا على حرير وفراء النوم في ظلام غرفتي، في انتظار توقيت تنفيذها. كانت نافذتي في الطابق الثالث، وتطل على الحظيرة ذات الأسوار، عند المرج القرمزي الذي كان أول موقع تطأه قدمي عند وصولي إلى برسوم. عبر النافذة المفتوحة شاهدت القمر كلوروس[١٦]، القمر الأبعد، يتخذ طريقه البطيء المتعمَّد.

(١٦) كلوروس: أحد أبعد قمري المريخ عن الكوكب الأم، ومعروف لدى سكان كوكب الأرض باسم القمر ديموس – *http://barsoom.wikia.com/wiki/Cluros* – المترجمة.

لقد غرُب بالفعل. وخلفه، تهرب ثوريا[١٧]، عشيقته بعيدة المنال، عبر السماء. وسوف تغرب ثوريا خلال خمس زاتات (حوالي ١٥ دقيقة)؛ وبعد حوالي ثلاثة ساعات وثلاثة أرباع ساعة (بساعات كوكب الأرض) سوف تظلم السماء، باستثناء وجود النجوم.

ربما تترصدني في الممر تلك الأعين الساهرة. توسلت إلى ربي ألا توجد في أماكن أخرى، إذ غرق القمر ثوريا أخيرًا تحت الأفق. توجهت إلى حافة النافذة وفي يدي حبل طويل صنعته من شرائط مجدولة من حرير النوم خلال انتظاري غروب القمرين. قمت بربط أحد طرفي الحبل بمقعد طويل من خشب السورابوس[١٨] الثقيل بعد أن وضعته بالقرب من النافذة. وقمت بإسقاط الطرف الآخر من الحبل عبر النافذة وبدأت الهبوط. ونظرًا لأنني لم أكن قد اختبرت عضلاتي المنتمية لكوكب الأرض في مثل هذه المحاولة، لم أكن واثقًا أنها ستحملني إلى حافة النافذة في قفزة واحدة عند عودتي. كنت أشعر أنها ستحملني، لكني لم أكن أعرف؛ وكان الكثير يعتمد على نجاح مغامرتي وعدم المخاطرة بأي فرصة فشل غير ضرورية. ولذا توليت إعداد هذا الحبل.

لا أعرف ما إذا كنت مراقَبًا. يجب أن أواصل كأنما لا يوجد أحد يتجسس عليَّ. سيعود القمر ثوريا بعد أقل من أربع ساعات (قبل فجر برسوم المفاجئ مباشرة)، ويجب أن أصل إلى فالا ديا خلال هذه الفترة،

(١٧) ثوريا: القمر الأقرب للمريخ من قمرين يدوران حوله؛ ومعروف في كوكب الأرض باسم فوبوس – *http://barsoom.wikia.com/wiki/Thuria* – المترجمة.

(١٨) سورابوس: نوع من الشجر معروف في برسوم بثماره النضرة المحفوظة داخل ما يشبه قشرة الجوز – *http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorapus* – المترجمة.

وإقناعها بضرورة خطتي وتنفيذها بتفاصيلها، ثم العودة إلى غرفتي قبل أن يكشفني القمر ثوريا أمام أي مراقب. حملت أسلحتي معي، وفي قلبي عزيمة لا تلين بقتل أي من أصادفه في طريقي ويتعرف عليَّ خلال مهمتي، مهما كانت نواياه بريئة من الشر ضدي.

كانت الليلة هادئة باستثناء الأصوات البعيدة المعتادة التي كنت أسمعها منذ قدومي، وفسرتها على أنها صيحات الحيوانات المتوحشة. وقد سألت راس ثافاس عنها ذات مرة، لكن مزاجه لم يكن معتدلًا وتجاهل سؤالي. وصلت إلى الأرض بسرعة، وتحركت مباشرة دون تردد إلى أقرب مدخل للمبنى، إذ سبق وبحثت وحددت الطريق الذي سأتبعه إلى القبو. لم أشهد أحدًا، وكنت واثقًا عندما وصلت أخيرًا إلى المدخل أنني وصلت دون أن يكتشفني أي شخص. شعرت فالا ديا بالسعادة لرؤيتي مرة أخرى، إلى حد امتلاء عينيَّ بالدموع.

صاحت: «تصورت أن شيئًا قد حدث لك، فأنا أعلم أنك لا يمكن أن تغيب طويلًا بمحض إرادتك».

أخبرتها عن اقتناعي بأنني تحت المراقبة، وأنه لم يعُد في إمكاني إحضار الطعام لها دون التعرض للانكشاف، مما سيعني موتها الفوري.

قلت: «هناك بديل واحد»، ولم أكن أجرؤ حتى على اقتراحه إن كانت توجد أي طريقة أخرى. يجب أن تختفي بشكل آمن لفترة طويلة إلى أن تهدأ شكوك راس ثافاس؛ إذ ما دام يضعني تحت المراقبة، لن أتمكن من تنفيذ الخطط التي وضعتها لإنقاذك واستعادة جسمك وعودتك إلى دوهور».

«إرادتك هي القانون الذي أتبعه، فاد فارو».

هززت رأسي: «سيكون الأمر أكثر صعوبة بالنسبة إليكِ مما تتخيلين».

سألتني: «ما السبيل؟».

أشرت إلى الطاولة ذات السطح الإرسايتي، وقلت: «يجب أن تخوضي المحنة مرة أخرى، حتى أتمكن من إخفائكِ في هذا القبو إلى أن يحين وقت تنفيذ خططي. هل يمكنك احتمال ذلك؟».

ابتسمت قائلة: «ولِمَ لا؟ إنه مجرد نوم- وإذا استمر إلى الأبد، لن أكون أكثر حكمة».

فوجئت بعدم رفضها للفكرة، لكني سُررت لمعرفتي أنها فرصة النجاح الوحيدة أمامنا. استلقت دون مساعدة مني على اللوح الإرسايتي.

قالت بشجاعة: «أنا مستعدة، فاد فارو؛ لكنك يجب أن تعطيني أولًا وعدًا بأنك لن تقوم بأي مخاطرة في هذا المشروع المجنون. لن تنجح. عندما أغلق عيني، أعرف أنها ستكون المرة الأخيرة إذا كان استيقاظي يتوقف على نجاح هذه المغامرة المجنونة التي لم يتصورها إنسان من قبل؛ مع ذلك، أنا سعيدة لأنني أعرف أنها مُستَلهَمة من الصداقة العظيمة التي يمكن أن تنعم بها أي امرأة».

توليت خلال حديثها ضبط الأنابيب، وأقف الآن بجوارها وإصبعي على زر تشغيل الموتور.

همست: «وداعًا، فاد فارو».

«ليس وداعًا، فالا ديا، وإنما فقط نومًا جميلًا لمدة ستكون بالنسبة إليكِ أقصر لحظة. ستبدو كأنكِ تغمضين عينيكِ وتفتحينهما مرة أخرى. وكما تريني الآن، سأكون واقفًا هنا إلى جواركِ كأنما لم أتركِ أبدًا. وبمثل ما أنا آخر ما تقع عليه عيناكِ هذه الليلة قبل أن تغلقيها، سأكون أول ما تشاهديه عندما تفتحينهما في ذلك الصباح الجديد الجميل؛ لكنكِ لن تنظري من خلال أعين ظاظا، وإنما من أعماق أعينكِ الشفافة الجميلة».

ابتسمت وهزت رأسها. وتشكلت دمعتان تحت جفنيها. أمسكت بيدها ضاغطًا، ولمست الزر.

❊ ❊ ❊

الفصل (٧)

الشكوك

وصلت إلى شقتي دون أن يكتشفني أحد، بقدر علمي. أخفيت الحبل في مكان كنت على يقين من عدم اكتشافه، ثم تدثرت بحرير وفراء النوم وسرعان ما نمت.

عندما خرجت من جناحي في صباح اليوم التالي، لمحت هيئة شخص في ممر قريب؛ ومنذ ذلك الحين، ولفترة طويلة، تمكنت من الحصول على أدلة إضافية تؤكد أن راس ثافاس كانت تساوره الشكوك تجاهي. ذهبت إلى جناحه على الفور كعادتي. كان يبدو قلقًا، لكنه لم يعطني أي تلميح بأنه على يقين بأنني مسؤول عن اختفاء فالا ديا، وأعتقد أنه لم يكن متأكدًا. فقد كانت المسألة ببساطة أن بصيرته تشير إلى أنني الشخص الوحيد الذي قد يوجد لديه سبب للتدخل بأي شكل من الأشكال في هذا الموضوع بالذات، ووضعني تحت المراقبة لإثبات أو دحض شكوكه المنطقية. وقد شرح لي أسباب قلقه.

قال: «أدرس غالبًا رد فعل الآخرين الذين خضعوا لعملية نقل المخ، ولذا لم يدهشني كليًّا رد فعلي. لم يقتصر الأمر على حفز طاقة مخي، بما أسفر عن زيادة إنتاج الطاقة العصبية، بل أشعر أيضًا بتأثير الأنسجة الشابة والدماء الشابة في جسدي الجديد. إنها تؤثر على وعيي بطريقة أشارت إليها تجربتي بغموض، لكني أرى الآن ضرورة المرور بخبرتها في الواقع حتى أفهمها تمامًا. لقد تغيرت، أو على الأقل تلونت، أفكاري وميولي، وحتى طموحاتي، نتيجة لعملية النقل. وسوف يستغرق الأمر مني بعض الوقت لأجد نفسي».

على الرغم من عدم اهتمامي، استمعت إليه بأدب حتى أنهى كلامه، ثم غيرت الموضوع وسألته: «هل عرفت مكان المرأة المفقودة؟».

هز رأسه سلبًا.

قلت: «يجب أن تُقدر، راس ثافاس، أنني أدرك تمام الإدراك أنك تعرف أن طرد أو تدمير تلك المرأة سوف يحبط خطتي بأكملها. أنت الرئيس هنا. لا شيء يحدث دون علمك».

سألني: «هل تعني أنني مسؤول عن اختفاء المرأة؟».

«من المؤكد. هذا بديهي. وأنا أطالب باستعادتها».

فقد أعصابه. وصاح: «من أنت لتطالب؟ أنت لست سوى عبد. توقف عن وقاحتك وإلا سأمحوك، سوف أمحوك. ستصبح كأنك لم توجد أبدًا».

ضحكت في وجهه، وقلت لتذكيره: «الغضب هو أكثر السمات

عُقمًا في المشاعر. أنت لن تمحوني؛ لأنني الوحيد الذي يقف بينك وبين الموت».

قال: «يمكنني تدريب شخص آخر».

قلت موضحًا: «لكنك لا تستطيع الوثوق به».

صاح: «لكنك ساومتني على حياتي عندما كنت تحت يديك».

«لا لشيء يمكن أن يضرك إذا منحته لي عن طيب خاطر. أنا لم أطلب شيئًا لنفسي. على أي حال، سوف تثق بي مرة أخرى. سوف تثق بي، ليس لأي سبب آخر غير أنك مجبر على الثقة بي. لماذا لا تحظى إذَنْ بامتناني وولائي بإعادة المرأة لي وتنفيذ شروط اتفاقنا واقعيًّا وروحيًّا؟».

استدار ونظر نحوي بثبات وهو يقول: «فاد فارو، أعطيك كلمة شرف نبيل برسومي أنني لا أعرف أي شيء على الإطلاق عن مكان وجود '٤٢٩٦-ي-٢٦٣١-هـ'».

قلت بإصرار: «ربما يمدور يعرف».

«ولا يمدور. في حدود علمي، لا يعرف أي شخص يرتبط بي بأي شكل ما حدث. لقد قلت الحقيقة».

حسنًا، لم تكن المحادثة دون جدوى كما يمكن أن تبدو، فقد كنت على يقين أنها أقنعت راس ثافاس تقريبًا أنني أجهل بالمثل مصير فالا ديا. لم تقنعه كلية لأن التجسس استمر لفترة طويلة، وهو ما جعلني أقرر استخدام أساليب راس ثافاس نفسها في دفاعي. كنت قد خصصت عددًا من العبيد، فزت بهم بالعطف والتفاهم إلى أن عرفت أنني أحوز

كامل ولائهم. ليس لديهم أي سبب لحُب راس ثافاس، بل لديهم كل ما يدعو إلى كراهيته. ومن ناحية أخرى، ليس لديهم أي سبب يدعو إلى كراهيتي، ورأيت أن لديهم كل الأسباب لمحبتي.

وكانت النتيجة أنني لم أجد أي صعوبة في تكليف اثنين منهم بالتجسس على جواسيس راس ثافاس، ما أدى إلى أنهم سرعان ما أخبروني أن شكوكي قائمة على أسس سليمة – فقد كنت تحت المراقبة الدائمة في كل دقيقة أكون فيها خارج جناحي، لكن التجسس لم يتجاوز الجدران الخارجية لغرفتي. وهذا هو سبب نجاحي في الوصول إلى القبو بتلك الطريقة؛ فقد افترض الجواسيس أنني لن أغادر غرفتي إلا من مخرجها الطبيعي، ولذا تركزت حراستهم على هذا المخرج وتركوا نوافذي دون مراقبة.

أعتقد أن التجسس استمر لحوالي شهرين، ثم أخبرني رجالي أن المراقبة توقفت تمامًا. كنت أشعر بالضيق طوال كل هذا الوقت بسبب التأخير، لأنني أردت أن أشرع في خططي التي كان من المستحيل تمامًا تنفيذها وأنا تحت المراقبة. أمضيت الفترة في دراسة جغرافية نصف الكرة الشمالي الشرقي في برسوم، حيث كنت سأنفذ أنشطتي، كما درست أيضًا عددًا كبيرًا من الحالات وتاريخها وشخوصها. وأخيرًا، مع توقف الجواسيس، بدا الأمر كأنما يمكنني البدء قريبًا في وضع خططي موضع التنفيذ الفعال.

منحني راس ثافاس لفترة قدرًا كبيرًا من الحرية لإجراء بحوث وتجارب مستقلة، وقد عزمت على الاستفادة من كل السبل الممكنة

التي قد تسهم في تحقيق خططي لاستعادة فالا ديا. كان في ذهني، خلال دراستي لتاريخ العديد من الحالات، إمكانية اكتشاف الحالات التي قد تساعدني في مشروعي. ومن بين الحالات التي استحوذت على انتباهي بعناية كانت، بطبيعة الحال، تلك الحالات التي التي أعرفها أكثر وهي: حالة '٣٧٨-ج-٤٩٣٨١١-ب'، الرجل الأحمر الذي أنقذت راس ثافاس من هجومه الأثيم يوم وصولي إلى المريخ، وهو الذي نُقل نصف مخه إلى قرد.

وحالة '٣٧٨-ج-٤٩٣٨١١-ب'، هي لشخص من فوندال، محارب شباب ملحق ببلاط ظاظا، جيدارة فوندال، وضحية اغتيال. اشترى نبيل من فوندال جسمه، كما أخبرني راس ثافاس، بغرض الفوز باستحسان جمال الشباب. شعرت أنني ربما أستفيد بخدماته، لكن ذلك سيتوقف على مدى ولائه لظاظا. ولن أتمكن من تحديد ذلك إلا بإيقاظه واستجوابه.

نشأ الشخص الذي أخذ قرد نصف مخه في بتارث[١٩]، التي تقع على مسافة بعيدة غرب فوندال ونحو الجنوب قليلًا على مسافة مساوية تقريبًا من دوهور، التي تقع على الشمال وغربها قليلًا. فكرت في أن ساكن بتارث قد يعرف الكثير عن مجمل البلد الذي يتضمنه المثلث الذي يتكون من فوندال وبتارث ودوهور. وسوف تثبت قوة وضراوة القرد قيمتها في عبور الأراضي القفر التي تنتشر فيها الوحوش. وشعرت

(١٩) بتارث: إحدى الممالك التي تضم مريخيين حُمْرًا ولديها علاقات وثيقة مع هيليوم - *https://barsoom.fandom.com/wiki/Ptarth* - المترجمة.

أن بإمكاني الحصول على وعد كافٍ من النصف البشري من مخ الوحش الكبير، الذي يسيطر الآن بالفعل على المخلوق، للفوز بتأييده وولائه. أما الحالة الثالثة التي اخترتها مؤقتًا فهي حالة القاتل التونولي سيئ السمعة، الذي أكسبته وقاحته وجسارته ومهارته كمبارز سُمعةً تجاوزت حدود بلده.

وقد أخبرني راس ثافاس نفسه، وهو من تونول، عن بعض الأشياء عن تاريخ هذا الرجل الذي لا تخلو قتامته من الشرف في برسوم، كما ارتفع جور هاجوس[٢٠] إلى أعلى تقدير عند مواطني بلده لأنه لم يقتل أبدًا امرأة أو رجلًا صالحًا، ولم يضرب أبدًا من الخلف. وكانت عمليات القتل التي قام بها نتيجة دائمًا لمعارك عادلة تتمتع خلالها الضحية بكل فرصة للدفاع عن النفس وقتل مهاجمه؛ كما اشتهر بولائه لأصدقائه. وفي واقع الأمر، أسهم ولاؤه هذا في سقوطه وأتى به إلى أحد ألواح راس ثافاس الإرسايتية منذ عدة سنوات؛ إذ اكتسب عداوة فوبيس كان، جيداك تونول، بسبب رفضه اغتيال رجل كان صديقًا بدرجة طفيفة لجور هاجوس؛ وبعدها تولدت عند فوبيس كان شكوك بأن جور هاجوس قرر قتله. وكانت النتيجة الحتمية هي إلقاء القبض على جور هاجوس والحكم عليه بالإعدام. وبعد تنفيذ الحكم مباشرة، اشترى أحد وكلاء راس ثافاس الجثة.

---

(٢٠) جور هاجوس: قاتل أحمر من مدينة تونول يخشاه الناس كثيرًا ويعجبون به، ويشتهر بقتل ضحاياه في معارك عادلة وبرفضه قتل من يعتبرهم جديرين بالعيش – *https://barsoom.fandom.com/wiki/Gor_Hajus* – المترجمة.

هؤلاء هم الثلاثة الذين اخترتُهم كشركاء في مغامرتي الكبيرة. وصحيح أنني لم أناقش الموضوع مع أي منهم، لكن بصيرتي أكدت لي أنني لن أجد صعوبة في الاستعانة بخدماتهم وضمان ولائهم في مقابل إيقاظهم الكامل.

تكمن مهمتي الأولى في تجديد أعضاء الحالة '٣٧٨-ج-٤٩٣٨١١-ب' وحالة جور هاجوس الذي كان قد أُصيب بجراح خطيرة. تحتاج الحالة الأولى رئة جديدة؛ وتحتاج الحالة الثانية قلبًا جديدًا، حيث طعنه قاتله بسيف قصير. ترددت في استئذان راس ثافاس بإجراء تجارب على هذه الحالات خوفًا من إثارة شكوكه، وعندئذ ربما يدمرهم، ولذا كنت مضطرًّا إلى إنجاز التصميمات بالحيلة وفي سرية. وتحقيقًا لهذه الغاية، اعتدت لأسابيع مواصلة عملي العادي في المختبر لفترة تمتد خلال الليل، وكثيرًا ما أطلب خدمات من المساعدين المختلفين بحيث يعتاد الجميع على رؤيتي أعمل في ساعات غير معتادة. وتعمدت عند اختياري للمساعدين، انتقاء جاسوسين كان راس ثافاس قد كلفهم بمراقبتي. فعلى الرغم من أن مهمتهم في مراقبتي قد انتهت، كنت آمل أنهم سينقلون أخبار أنشطتي إلى سيدهم، وكنت حريصًا على أن يعرفوا مني الإيحاءات الصحيحة لصياغة تقريرهم بلغة لا تُلحِق بي أي ضرر. نقلت إليهم، بأبسط الإيحاءات، فكرة أنني أعمل لفترة متأخرة لمجرد حب العمل ذاته واهتمامي الهائل به الذي أيقظه راس ثافاس في ذهني. كنت أعمل في بعض الليالي مع مساعدين، وكثيرًا ما كنت أعمل بمفردي، لكني حرصت دائمًا على أن يعرف العاملون في المكتب في

صباح اليوم التالي أنني عملت بجهد لفترة طويلة في الليلة السابقة.

وبعد إعداد هذه الأسس بعناية، شعرت ببعض الخوف نسبيًّا من نتائج اكتشاف ما سأفعله عندما أبدأ عملي على محارب فوندال وقاتل تونول. اخترت أن أبدأ بالمحارب. أُصيبت رئته بجروح بالغة عندما مر نصلي بها، لكني وجدت في المختبر بقايا أعضاء جزئية وعثرت على رئة مثالية ووضعتها محل الرئة التي أفسدتها. استغرق العمل نصف الليل. كنت متلهفًا لإكمال مهمتي، حيث شرعت فور الانتهاء من فتح صدر جور هاجوس الذي اخترت له قلبًا قويًّا وضخمًا بشكل غير عادي. أسرعت في العمل، ونجحت في إتمام عملية النقل قبل الفجر. ونظرًا لمعرفتي بطبيعة الجروح التي أودت بحياة هذين الرجلين، أمضيت أسابيع في القيام بعمليات مماثلة بحيث أتقن عملي عليهما بوجه خاص؛ ولأنني لم أُواجه أي ظروف مرضية غير عادية في أي من الحالتين، أحرزت تقدمًا في العمل بسلاسة وبسرعة كبيرة. لقد أكملت ما كنت أخشى أنه الجزء الأصعب في مهمتي. والآن، بعد إزالة أكبر قدر ممكن من دلائل العملية باستثناء الشريط العلاجي الذي يغلق الشقوق، عدت إلى جناحي لبضع دقائق لاحتياجي الشديد إلى الراحة، داعيًا ألا يفحص راس ثافاس مصادفة أيًّا من الحالتين التي أعمل عليهما، على الرغم من أنني حصنت نفسي ضد هذا الاحتمال بإدخال كامل تفاصيل العملية على بطاقة تاريخ كل حالة بحيث أواجهه بلعبة الصراحة -على أساس أنني دونت العمل- بما قد يخفف من اشتباهه في أي دوافع خفية من جانبي إذا اكتشف عملي.

استيقظت في الوقت المعتاد، وتوجهت على الفور إلى جناح راس ثافاس، حيث قُوبلت بقذيفة مدوية كادت أن تدمر رباطة جأشي. نظر نحوي عن كثب لفترة طويلة قبل أن يتحدث.

قال: «امتد عملك لفترة متأخرة الليلة الماضية، فاد فارو».

«كثيرًا ما أفعل»، أجبته بخفة، لكن قلبي كان ثقيلًا كحجر.

تساءل: «وما الذي شغل اهتمامك إلى هذا الحد؟».

شعرت كأنني فأر يلاعبه القط. أجبت: «كنت أقوم بنقل رئة وقلب، وانهمكت في العمل إلى درجة أنني لم ألحظ مرور الوقت».

«علمت أنك واصلت العمل حتى وقت متأخر من الليل. هل تعتقد أن هذا تصرف حكيم؟».

شعرت في تلك اللحظة أنه لم يكن تصرفًا حكيمًا، إلا أنني أكدت له عكس ذلك.

قال: «كنت قلقًا ولم أتمكن من النوم، فذهبت إلى جناحك بعد منتصف الليل، لكني لم أجدك. أردتُ شخصًا أتحدث معه، ولم يعرف عبيدك سوى أنك غير موجود، لا يعرفون أين كنت. ولذا أخذت أبحث عنك». وقع قلبي إلى قدمي. «خمنت أنك في أحد المختبرات، إلا أنني لم أجدك في بعض المختبرات التي ذهبت إليها بحثًا عنك». ارتفع قلبي بخفة ريشة. «منذ عملية النقل التي أُجريت لي وأنا مُصاب بلعنة القلق والأرق، إلى حد أنني أكاد أن أتمنى استعادة جسمي العجوز- شباب جسمي الحالي لا يتواءم مع قِدم مخي. فجسمي يمتلئ بدوافع ورغبات

كامنة لا تتوافق مع الموضوعات المهمة في ذهني».

قلت: «أعتقد أن جسمك يحتاج إلى تمارين رياضية. إنه جسم شاب وقوي ومعافًى. وممارسة التمارين الرياضية سوف تتيح لعقلك الراحة في الليل».

أجاب: «أعرف أنك على حق، وقد وصلت إلى هذا الاستنتاج نفسه. وفي الواقع، عندما لم أجدك، أخذت أسير في الحدائق لمدة ساعة أو أكثر قبل العودة إلى جناحي، وعندئذ نمت جيدًا. سأقوم بالمشي كل ليلة لا أستطيع فيها النوم، أو أذهب إلى المختبرات وأعمل مثلك».

أثارت عبارته الأخيرة قلقي. فلا يمكنني التأكد الآن إلا أن راس ثافاس كان يتجول ليلًا، ولا يزال أمامي ليلة مهمة لإتمام عملي، وربما ليلتان. والسبيل الوحيد لتأكدي هو أن أكون معه».

قلت: «أرسل في طلبي عندما تشعر بالقلق، وسوف أسير وأعمل معك. يجب ألا تتجول هكذا في الليل بمفردك».

قال: «حسنًا، قد أفعل ذلك أحيانًا».

تمنيت أن يفعل ذلك دائمًا، لأعرف عندما لا يرسل في طلبي أنه آمنٌ في جناحه. مع ذلك رأيت أنني يجب من الآن فصاعدًا أن أواجه خطر الكشف. ولذا عزمت على الإسراع في إنهاء خططي والمخاطرة بكل شيء بضربة واحدة جريئة.

لم تسنح لي فرصة العمل في تلك الليلة؛ لأن راس ثافاس أرسل في طلبي مبكرًا وأبلغني أننا سوف نسير في الحدائق، وبالفعل سرنا إلى أن

شعر بالتعب. ونظرًا لأنني في حاجة إلى ليلة كاملة لاستكمال ما يدور في ذهني، وسرت مع راس ثافاس حتى منتصف الليل، فقد اضطررت إلى التخلي عن كل شيء هذا المساء. لكني أقنعته في صباح اليوم التالي بالسير مبكرًا بحجة أنني أود السير إلى ما بعد الحظيرة لمشاهدة برسوم، إلى جانب مشاهدتي لما يوجد داخل مختبراته وحدائقه. لم أثق كثيرًا في أنه سيلبي طلبي، إلا أنه وافق. وأنا على يقين من أنه لم يكن ليفعل ذلك أبدًا إذا كان مرتديًا جسمه القديم العجوز؛ لكن الدماء الشابة غيرت راس ثافاس بدرجة كبيرة.

لم أذهب أبدًا خارج المباني، كما لم أشهد ما بعدها لعدم وجود نوافذ في الجدران الخارجية لأي مبنى؛ علاوة على أن الأشجار في جانب الحديقة تنمو إلى ارتفاع يحجب رؤية المشهد خلفها. سرنا لفترة في حديقة أخرى داخل الجدار الخارجي، ثم سألت راس ثافاس عما إذا أمكنني الذهاب إلى أبعد من ذلك.

قال: «لا. لن يكون آمنًا».

سألته: «ولماذا؟».

«سوف أُريك وفي الوقت نفسه أعطيك رؤية عن العالم الخارجي أوسع كثيرًا مما يمكنك أن تحصل عليه بمجرد عبور البوابة. هيا، اتبعني!».

قادني على الفور إلى برج شاهق يرتفع أعلى أكبر مبنى في المجموعة التي تضم منشأته الشاسعة. يوجد في الداخل مدرج دائري يقود إلى أعلى وإلى أسفل. صعدنا، مرورًا على فتحات في كل طابق،

حتى وصلنا أخيرًا إلى قمته الشامخة. انتشر حولي أول مشهد طبيعي لبرسوم على أي امتداد تراه عيناي خلال الأشهر الطويلة التي أمضيتها على هذا الكوكب الأحمر. منذ سنة تقريبًا بحساب كوكب الأرض وأنا محبوس داخل جدران قاتمة في المختبر الدموي لراس ثافاس، إلى أن أصبحت تلك الحياة الغريبة تبدو طبيعية وعادية تمامًا؛ فنحن مخلوقات تتملكنا العادة. ولكن مع أول لمحة لبلد مفتوح، تدفقت داخلي رغبة ملحة في الحرية، في التحرك في المكان، في الغرفة- وكنت أعرف أنني سأحقق ذلك قريبًا.

تقع في أسفل مباشرة رقعة غير منتظمة من الأراضي الصخرية، ترتفع وربما لعشرة أقدام أو أكثر فوق المستوى العام للبلد المحيط مباشرة. تبلغ مساحتها مائة فدان، حسب تخميني التقريبي. وتقف فوقها المباني والأراضي المحاطة بجدار عالٍ. ويقع البرج الذي نقف عليه في وسط إجمالي المساحة المسورة. ويوجد وراء الجدار الخارجي شريط من الأرض الصخرية نمت فوقه غابة متناثرة من الأشجار كبيرة الحجم التي تتخللها رقع من نباتات الغابة. ووراء ذلك كله، هناك ما يبدو مستنقع طيني تمر خلاله مجارٍ مائية ضيقة تربط بين مياه بحيرات صغيرة مفتوحة توجد من حين لآخر، بالكاد ما تبلغ مساحة أكبرها فدانين. امتد هذا المشهد بقدر ما يمكن أن تصل إليه العين. وكانت تقطعه أحيانًا جُزُرٌ مماثلة لجزيرتنا وعلى مسافة قصيرة من أفق مدينة كبيرة، تتألق أبراجها وقبابها ومناراتها وتومض في الشمس كأنما مطلية بمعدن لامع ومرصعة بأحجار ثمينة.

هذه بالتأكيد تونول، وحولنا مستنقعاتها الكبرى التي تمتد إلى ما يقرب من ألف وثمانمائة ميل، بمقاييس كوكب الأرض، شرقًا وغربًا؛ ويبلغ عرضها في بعض الأماكن حوالي ثلاثمائة ميل. لا يُعرف عنهم الكثير في بقاع برسوم الأخرى؛ لأن الوحوش الضارية تسكنها، كما لا تتيح أماكن لهبوط الطائرات، فضلًا عن أن طرفها الغربي يخضع لقيادة فوندال، بينما يخضع طرفها الشرقي لتونول، وهما مملكتان غير مضيافتين ولا ترحبان بأي اتصال مع العالم خارجهما، وتحافظان على استقلالهما عن طريق صعوبة الوصول إليهما وعزلتهما الوحشية.

عندما عادت عيناياَ إلى الجزيرة التي نقف عليها، رأيت هيئة مخلوق ضخم تخرج من إحدى رقع الغابة القريبة، على مسافة قصيرة خلف الجدار الخارجي. وتلاه مخلوق ثانٍ ثم ثالث. لاحظ راس ثافاس أن تلك المخلوقات أثارت انتباهي.

قال مشيرًا إليها: «هؤلاء الثلاثة هم من بين عدد من الأسباب المماثلة لعدم أمان مغامرتنا بالخارج من الحظيرة.

«إنهم القرود البيضاء الضخمة في برسوم، وهي مخلوقات وحشية إلى حد أن أسد برسوم الشرس وكذلك حيوان البانث[٢١] يترددان في عبور طريقها».

---

(٢١) البانث: حيوان مفترس شرس متعدد الأرجل، أصلع تقريبًا مثل جميع الحيوانات المريخية إلا من شعر كثيف خشن كبير كالأسد حول رقبته السميكة. جسده طويل ورشيق، ويعتمد على عشرة أرجل قوية؛ وفكاه الضخمان مجهزان بعدة صفوف من أنياب طويلة تشبه الإبرة، مثله مثل حيوانات الكالوت أو الكلاب المريخية؛ وفمه يصل إلى نقطة بعيدة خلف أذنيه الصغيرتين، بينما عيناه الخضراء هائلتان وجاحظتان وتضيفان لمسة الرعب الأخيرة إلى مظهره الفظيع – *http://barsoom.wikia.com/wiki/Banth* – المترجمة.

وأوضح: «تخدم هذه القرود غرضين. من ناحية، يثبطون عزيمة من قد يتسلل نحوي ليلًا من مدينة تونول، وأنا لست بلا أعداء، كما يمنعون من ناحية أخرى فرار عبيدي ومساعديَّ».

سألته: «ولكن كيف يصل إليك زبائنك؟ وكيف تصل إليك إمداداتك؟».

التفت وهو يشير إلى أسفل، نحو أعلى جزء من السقف غير النظامي للمبنى أسفلنا. كان مبنيًّا فوقة هيكلًا كبيرًا على شكل سقيفة. قال: «احتفظ هناك بثلاث سفن صغيرة. تذهب واحدة منهم يوميًّا إلى تونول».

كنت شغوفًا لمعرفة المزيد عن هذه السفن، التي أدركت أنها وسيلة ضرورية للفرار من الجزيرة، لكني لم أجرؤ على سؤاله خشية إثارة شكوكه.

استدرنا لنهبط على المدرج، وأعربت عن اهتمامي بالبناء الذي يدل على أنه أقدم من أي مبنى من المباني المحيطة.

قال راس ثافاس: «لقد بُني هذا البرج منذ حوالي ثلاثة وعشرين ألف سنة، وبناه أحد أسلافي الذي طرده الجيداك الحاكم حينذاك من تونول. فقام هنا، وعلى الجزر الأخرى، بجمع عدد كبير من الاتباع وسيطر على المستنقعات المحيطة، ودافع عن نفسه بنجاحٍ لمئات السنين. وعندما سُمح لعائلتي بالعودة إلى تونول، أصبح هذا بيتهم؛ وأضافوا إليه، واحدًا تلو الآخر، تلك المباني المختلفة التي تشاهدها حول البرج، حيث يتصل كل طابق منها بالمبنى المجاور، من السقف

إلى أدنى حُفرة تحت الأرض».

كانت هذه المعلومات مهمة أيضًا إلى حد كبير، فقد اعتبرتها تؤثر كثيرًا أيضًا على خطتي للهرب. ولذلك شجعت راس ثافاس، خلال هبوطنا على المدرج، على الحديث عن تشييد البرج، وعلاقته بالمباني الأخرى، ولا سيما إمكانية الوصول إليها من الحُفر. مشينا مرة أخرى في الحديقة الخارجي، وعندما عدنا إلى جناح رس ثافاس كان الظلام قد حل تقريبًا، والجراح مرهق إلى حد كبير.

قال وأنا أتركه: «أشعر أنني سأنعم بنوم جيد الليلة».

فأجبت: «آمل ذلك، راس ثافاس».

❊ ❊ ❊

الفصل (٨)

الفرار

كانت المنشأة تهدأ ليلًا في العادة بعد حوالي ثلاث ساعات من وجبة العشاء، التي تُقدم بعد حلول الظلام مباشرة. وعلى الرغم من أنني كنت أُفضل الانتظار لفترة أطول للقيام بما يدور في ذهني، لم أتمكن من تحقيق ذلك بأمان؛ لأن هناك الكثير الذي يتعين إنجازه قبل الفجر. ولذا، مع أول العلامات الدالة على انتهاء العمل ونوم شاغلي المبنى الذي أقوم فيه بعملي، غادرت جناحي وتوجهت مباشرة إلى المختبر، حيث ترقد -لحسن حظ خططي- أجسام جور هاجوس، قاتل تونول، والحالة '٣٧٨-ج-٤٩٣٨١١-ب'. استغرق نقلهما إلى طاولتين متجاورتين بضع دقائق، حيث أسرعت في تقييدهما بإحكام خشية عدم موافقة أحدهما أو كليهما على خطتي، وهو ما كان سيضطرني على تخديرهما مرة أخرى. انتهيت أخيرًا من إجراء الشقوق، وبدأت الأنابيب المرفقة والمحركات في العمل. كان '٣٧٨-ج-٤٩٣٨١١-ب'، الذي سوف أشير إليها في ما بعد باسمه، دار تاروس، أول من فتح عينيه؛ لكنه لم

يكن قد استعاد وعيه بالكامل عندما ظهرت علامات الحياة على جور هاجوس.

انتظرت إلى أن استعاد كلاهما وعيه تمامًا. كان دار تاروس ينظر نحوي بإدراك متزايد، أثار على ملامحه تعبيرًا مميتًا ينم على الكراهية. أما جور هاجوس، فقد كان في حيرة واضحة. آخر ما يتذكره هو مشهد قاعة الموت، لحظة اختراق سيف الجلاد لقلبه. كنت أول من كسر حاجز الصمت.

قلت: «دعوني أخبركم أولًا أين أنتم، إذا كنتم لا تعرفون بالفعل».

دمدم دار تاروس: «أنا أعرف جيدًا أين أنا».

وصاح جور هاجوس: «آه!»، وعيناه تتجولان في الغرفة، «يمكنني التخمين. فهل لم يسمع أي من أهل تونول عن راس ثافاس؟ باعوا جسدي إذَنْ إلى الجزار العجوز، أليس كذلك؟ وماذا الآن؟ هل وصلت الآن؟».

قلت: «أنت هنا منذ ست سنوات، وقد تظل هنا إلى الأبد إلا إذا توصل ثلاثتنا إلى اتفاق خلال الدقائق القليلة القادمة، وهذا ينطبق عليك أيضًا دار تاروس».

قال جور هاجوس وهو يفكر: «ست سنوات! حسنًا، أخبرني يا رجل، ماذا تريد؟ إذا كان قتل راس ثافاس، كلا! فقد أنقذني من التدمير التام. ولكن، أخبرني أسماء أخرى، ومن المفضل أن يكون فوبيس كان، جيداك تونول. أعطني نصلًا وسوف أقتل مائة لاستعادة حياتي».

«لست ساعيًا إلى قتل أي شخص إلا إذا وقف في طريق تحقيق رغبتي في هذه المسألة التي أريدها. اسمع! توجد هنا عند راس ثافاس فتاة جميلة من دوهور. وقد باع جسدها إلى ظاظا، جيدارة فوندال، وزرع مخ الفتاة في جسم الجيدارة البشع المليء بالتجاعيد. وهدفي هو استعادة الجسم، ونقل مخه إليه وإعادة الفتاة إلى دوهور».

ابتسم جور هاجوس ابتسامة عريضة، وقال: «تطرح بنودًا لاتفاق ضخم، على أنني أرى أنَّ روحك طيبة وأنا معك. هذا سوف يمنحني الحرية والقتال، وكل ما أطلبه هو فرصة لتوجيه طعنة إلى فوبيس كان».

قلت «أتعهد لك باسترداد حياتك. ولكن على أساس أن تخدمني بإخلاص وليس أي شخص آخر، ولا تقوم بأي عمل خاص بك إلى أن ننفذ عملي بنجاح».

أجاب: «هذا يعني أنني يجب أن أخدمك طوال الحياة؛ لأن الشيء الذي تريده لن يمكنك تحقيقه أبدًا. على أي حال، هذا أفضل من الاستلقاء هنا فوق لوح إرسايتي بارد في انتظار راس ثافاس العجوز ليأتي ويمزق أحشائي. أنا معك! دعني أنهض كي أشعر أنني أقف ثانية على ساقين».

«وأنت؟»، سألت دار تاروس بعد أن فككت قيود جور هاجوس. لاحظت الآن، للمرة الأولى، أن التعبير القبيح الذي شاهدته بداية على وجه دار تاروس قد حل محله تعبير عن اللهفة.

صاح: «فك قيودي! سوف أتبعك إلى نهاية برسوم، وعلى الطريق الذي يقود إلى تنفيذ خطتك. لكنه لن يؤدي إلى ذلك؛ بل سوف يؤدي

إلى فوندال وإلى قاعة ظاظا الشريرة التي ربما يتيح لي كرم أسلافي فرصة الانتقام من الظلم البشع الذي نالني من هذه المخلوقة. لم يكن بإمكانك اختيار شخص مناسب لمهمتك أفضل من دار تاروس، الذي كان في يوم ما جنديًّا ضمن حرس الجيدارة، وقتلتني حتى يأخذ أحد نبلائها الفاسدين جسمي السابق لكي يتودد إلى الفتاة التي أحبها».

خلال لحظات، كان الرجلان يقفان إلى جانبي. وتجنبًا لمزيد من التأخير، قمت بقيادتهم نحو المدرج الذي يهبط إلى المسار الكائن تحت المبنى. وصفت لهما، خلال سيرنا، المخلوق الذي اخترته ليكون العضو الرابع في مجموعتنا الغريبة. تساءل جور هاجوس عن مدى حكمه اختياري، قائلًا إن القرد سوف يجتذب نحونا الكثير من الانتباه. على أن دار تاروس كان يعتقد أنه قد يفيدنا من عدة نواح؛ فقد نضطر إلى قضاء بعض الوقت بين جزر منطقة المستنقعات التي تغزوها غالبًا تلك المخلوقات، ويمكننا عند الوصول إلى فوندال استخدام القرد بسهولة لتعزيز خططنا، ووجوده لن يثير أي تعليق في مدينة تحتفظ بالعديد من هذه الحيوانات قيد الاحتجاز، كما كثيرًا ما يمكن مشاهدة تلك الحيوانات تؤدي دورًا في فرض انضباط الحشود في الشوارع.

ذهبنا على الفور إلى القبو، حيث يرقد القرد وحيث أخفيت جسد فالا ديا بعد تخديرها. وهنا قمت بإيقاظ الكائن الشبيه بالإنسان، ولراحتي الكبيرة وجدت أن النصف البشري في مخه لا يزال مهيمنًا. شرحت خطتي باختصار، مثلما فعلت مع الاثنين الآخرين، وفزت بتعهده القلبي بأن يدعمني نظير إعادة مخه إلى مكانه الصحيح بعد انتهاء مشروعنا.

علينا أولًا أن نخرج من الجزيرة. أوضحت الخطوط العريضة للخطتين اللتين كانتا في ذهني. إحداهما كانت سرقة إحدى طائرات راس ثافاس الثلاث والتوجه مباشرة إلى فوندال؛ والثانية، إن لم تكن الخطة الأولى ممكنة، أن نتسلل سرًّا على متن إحداها تحينًا لفرصة التغلب على طاقمها والاستيلاء عليها بعد مغادرتها الجزيرة، أو الهرب دون انكشاف إلى أن نصل إلى تونول. كان دار تاروس يُفضل الخطة الأولى. أما القرد، الذي أطلقنا عليه اسم صاحب النصف البشري من مخه، هوفان دو، فقد كان يفضل البديل الأول للخطة الثانية؛ وكان جور هاجوس يفضل البديل الثاني.

وما دامت فوندال هي هدفنا الرئيس، كما أوضح دار تاروس، فمن الأفضل أن نسرع بالوصول إلى هناك. وجادل هوفان دو بأن الاستيلاء على السفينة بعد مغادرتها الجزيرة سوف يتيح لنا -قبل ضياع السفينة والسعي إلى البحث عنها- وقتًا للفرار أطول مما قد يتيحه الاستيلاء عليها الآن في ضوء المعرفة الكاملة بأن غيابها سوف يُكتَشَف في غضون ساعات قليلة. رأى جور هاجوس أنه من الأفضل إن نتمكن من الوصول إلى تونول سرًّا، حيث يمكننا من خلال أحد أصدقائه تأمين الأسلحة وطائرة تخصنا. وأصر على عدم إمكانية نجاح محاولة المضي بعيدًا دون تسليح نفسه ودار تاروس، كما لا يمكننا أن نأمل في الوصول إلى فوندال دون أن يلحق بنا المطاردون؛ لأن علينا أن نخطط على أساس الافتراض بأن راس ثافاس سوف يكتشف غيابي على الفور، وسيتحقق بسرعة من أن دار تاروس وجور هاجوس في عداد المفقودين، وعندئذ

لن يضيع أي وقت وسوف يُبلغ فوبيس كان، جيداك تونول، أن القاتل جور هاجوس طليقٌ، وبالتالي سيرسل الجيداك أفضل سفنه لمطاردتنا.

كان منطق جور هاجوس صحيحًا، لا سيما أنني تذكرت ما أخبرني به راس ثافاس من أن الثلاث سفن بطيئة، ولذا كان يمكنني أن أتوقع بسهولة أن حريتنا لن تستمر سوى لمدة قصيرة إذا سرقنا إحدى طائرات الجراح العجوز.

خلال مناقشتنا لهذه المسألة، اتخذنا طريقنا عبر الحُفر، ووجدنا المخرج إلى البرج. تحركنا صامتين إلى أعلى عبر المدرج وخرجنا إلى السطح. كان القمران يبحران منخفضين عبر السماء، وكان المشهد مضاءً كأنه النهار. ومن المؤكد أن إمكانية اكتشافنا كانت واردة. أسرعنا نحو حظيرة الطائرات ودخلنا. للحظة على الأقل، تنفست بسهولة أكثر كثيرًا مما كان عليه الحال تحت القمرين الرائعين على السطح المكشوف.

كان مظهر الطائرات غريبًا: منخفضة وقصيرة، وذات مقدمات ومؤخرات دائرية، وأسطح مغطاة، وتعلن بوضوح أنها ناقلات للبضائع، مُصممة لأي شيء إلا السرعة. كانت إحداها أصغر بكثير من الاثنين الأخريين، والثانية تبدو تحت الإصلاح. دخلت الطائرة الثالثة، وفحصتها بعناية. دخل معي جور هاجوس، وأشار إلى عدة أماكن يمكننا الاختباء فيها دون أن ننكشف ما لم يُشتَبه في أننا على متنها، وهذا يشكل بطبيعة الحال خطرًا حقيقيًّا؛ وخلال تفكيري في اتخاذ قرار بالمخاطرة بركوب الطائرة الصغيرة، التي أكد لي جور هاجوس أنها أسرع الثلاثة،

لصق دار تاروس رأسه في السفينة وأشار لي أن أحضر بسرعة.

وعندما وصلت إلى جانبه قال: «هناك شخص ما».

سألته: «أين؟».

قال: «تعال»، وأخذني إلى الجزء الخلفي من حظيرة الطائرات، وكان أدنى من جدار المبنى، وأشار خلال أحد النوافذ إلى الحديقة الداخلية. ولذعري، رأيت راس ثافاس يسير ببطء جيئة وذهابًا. أصابني اليأس للحظة؛ إذ أعرف استحالة مغادرة السفينة للسطح دون أن يراها أي شخص يوجد في الحديقة، وعلى الأقل راس ثافاس من كل الناس في العالم. وفجأة أضاءت في ذهني فكرة عظيمة، وناديت الثلاثة للاقتراب، وشرحت خطتي.

أدركوا إمكانات الخطة على الفور، واستطعنا خلال فترة وجيزة من تحريك الطائرة الصغيرة على السطح وتحويل مقدمتها نحو الشرق، بعيدًا عن تونول. دخل جور هاجوس الطائرة، وقام بضبط عناصر التحكم المختلفة حسب اتفاقنا، وفتح صمام التحكم في تدفق الوقود، ثم هبط إلى السطح ثانية. أسرعنا نحن الأربعة إلى الحظيرة وركضنا نحو النافذة الخلفية لنشاهد السفينة تتحرك ببطء ورشاقة فوق الحديقة وراس ثافاس، الذي من المؤكد أن أذنيه التقطتا صوت خرخرة المحرك الخافتة، إذ كان ينظر إلى أعلى عندما وصلنا إلى النافذة.

قام على الفور بتحية السفينة. وابتعدت عن النافذة حتى لا يراني وأنا أرد التحية: «وداعًا، راس ثافاس! هذا أنا، فاد فارو، أخرج لمشاهدة عالم غريب، وسوف أعود. ولتبق معك أرواح أسلافك إلى ذلك

الحين». هذه عبارة التقطتها من القراءة في مكتبة راس ثافاس، وكنت فخورًا بها».

وعلى الفور أجاب صائحًا: «عُد بسرعة، وإلا ستجد نفسك مع أرواح أجدادك قبل انتهاء يوم آخر».

لم أردّ؛ إذ كانت السفينة على مسافة خشيت معها ألا يبدو صوتي صادرًا منها، وبالتالي ينكشف أمرنا.

دون مزيد من التأخير، أخفينا أنفسنا على متن إحدى الطائرات المتبقية، التي لا تخضع لأعمال الإصلاح، وهنا بدأت أطول فترة انتظار مرت بي من قبل، وأكثرها مللًا.

كدت أن أفقد أي أمل في انطلاق السفينة ذلك اليوم، عندما سمعت أصواتًا في الحظيرة، ثم صوت خطوات على متن الطائرة. وبعد لحظات صدرت عدة أوامر، بدأت بعدها السفينة تتحرك وتخرج ببطء إلى الهواء.

احتشدنا نحن الأربعة في مقصورة صغيرة مُشيدة داخل مساحة ضيقة بين خزانات الطفو في الميمنة الأمامية والخلفية. كانت المقصورة مظلمة وسيئة التهوية، ويبدو أنها صُمِّمت كحجرة تخزين للانتفاع بما قد يُشكل، على خلاف ذلك، مساحة للنفايات. لم نجرؤْ على التحدث خشية لفت الانتباه إلى وجودنا، ولنفس السبب كانت حركتنا محدودة بأقل قدر ممكن؛ فليست لدينا وسيلة تتيح لنا معرفة ما إذا كان أحد أفراد الطاقم يقف خلف الباب الرقيق الذي يفصلنا عن المقصورة الرئيسة للسفينة. في المجمل، لم يكن الوضع مريحًا

على الإطلاق؛ لكن المسافة إلى تونول ليست كبيرة وكنا نأمل أن يتغير وضعنا قريبًا – على الأقل إذا كانت تونول هي وجهة السفينة. وسرعان ما تحقق أملنا السعيد. سمعنا تحية خافتة بعد فترة قصيرة، ثم إغلاق المحركات، وتوقفت السفينة.

«أي سفينة؟»، سمعنا صوتًا يسأل، وجاء الرد من على متن سفينتنا:

«فوسار، برج ثافاس إلى تونول». وسمعنا صوت احتكاك، عندما لمست السفينة الأخرى سفينتنا.

صاح شخص من السفينة الأخرى: «لقد أتينا لتفتيشكم باسم فوبيس كان، جيداك تونول. كانت سعادتنا قصيرة. سمعنا صوت اختلاط العديد من الأقدام، وهمس جور هاجوس في إذني.

تساءل: «ماذا نفعل؟».

أمسكت بسيفي القصير، وأجبت: «نقاتل!».

قال: «حسنًا، فاد فارو»، ثم أعطيته مسدسي ليسلمه إلى دار تاروس. سمعنا الأصوات مرة أخرى، لكنها أقرب الآن.

صاح أحدهم: «يااااه! هذا بال زاك بنفسه، صديقي القديم بال زاك!».

أجاب صوت عميق: «وليس غيره. ومن توقعت أن تجد في قيادة فوسر غير بال زاك؟».

قال الآخر: «ومن يعرف، ربما كان فاد فارو نفسه، أو حتى جور هاجوس. لدينا أوامر بتفتيش جميع السفن».

أجاب بال زاك: «ليتهم كانوا هنا، فالمكافأة كبيرة. ولكن كيف، وقد شاهدهم راس ثافاس بعينيه وهو يطيرون في السفينة بينسار قبل فجر اليوم ويختفون في الشرق؟».

قال الآخر موافقًا: «أنت على حق، بال زاك، وهي مضيعة للوقت أن نفتش سفينتك. هيا يا رجال! عودوا إلى سفينتنا!».

شعرت باسترخاء عضلات قلبي مع انحسار صوت أقدام محاربي فوبيس كان، حيث غادروا سطح السفينة فوسار إلى سفينتهم؛ وارتفعت روحي مع تجدد خرخرة محرك سفينة راس ثافاس ومواصلتها لطريقها. مال جور هاجوس بشفتيه بالقرب من أذني.

وهمس: «تبتسم لنا أرواح أجدادنا. الوقت ليل، وسوف يساعدنا الظلام في تغطية فرارنا من السفينة ومنصة الهبوط».

سألته: «ماذا يجعلك تعتقد أنه الليل؟».

«كانت سفينة فوبيس قريبة عندما قدمت التحية وسألت عن اسم سفينتنا. فإذا كنا بالنهار، كان بإمكانهم معرفة سفينتنا».

كان على حق. بقينا محبوسين في تلك الحفرة الخانقة منذ ما قبل الفجر. وعلى الرغم من أنني تصورت أنها فترة طويلة، فقد أدركت أيضًا أنها أطول كثيرًا مما بدت بسبب الظلام وعدم الحركة والضغط العصبي؛ ولذا لم أندهش كثيرًا أننا وصلنا تونول نهارًا.

لم تكن المسافة من برج ثافاس إلى تونول طويلة، بحيث بعد فترة وجيزة من حديث سفينة فوبيس مع سفينتنا، استقرت بنا السفينة على

منصة الهبوط في وجهتنا. انتظرنا طويلًا نستمع إلى أصوات الحركة على متن السفينة. كان التساؤل، من جانبي على الأقل، يتعلق بنوايا القبطان. فمن الممكن أن يعود بال زاك إلى ثافاس هذه الليلة نفسها، لا سيما إذا كان قد جاء إلى تونول لإحضار مريض ثري أو قوي إلى المختبرات؛ أما إذا جاء بغرض جلب بعض المستلزمات فقط، فقد يظل هنا حتى الغد. بقدر ما تعلمته من جور هاجوس، فإن معرفتي بحركة طائرات راس ثافاس كانت أقل كثيرًا من أي شيء؛ إذ على الرغم من أنني كنت لعدة أشهر مساعدًا للجراح، فلم أعرف إلا يوم أمس بوجود أسطوله الصغير؛ لأن سياسة راس ثافاس تقضي بعدم إبلاغي بأي شيء إلا إذا كانت معرفة هذا الشيء تتوافق مع خططه وتعززها.

كان يجيب على الأسئلة التي أطرحها، إذا رأى أن الإجابة لن تضر بمصالحه، ولم يتطوع بقول أي شيء لا يريدني تحديدًا أن أعرفه. كما أن عدم وجود نوافذ في الجدران الخارجية للمبنى المواجه لتونول، وعدم صعودي أبدًا قبل أمس الأول إلى السطح، وعدم رؤيتي أبدًا لسفينة تبحر عبر الفناء الداخلي نحو الشرق، يفسر جهلي بالأسطول وعملياته الاعتيادية.

انتظرنا بهدوء إلى أن ساد الصمت على السفينة، مما يدل على أن الطاقم يستريح ليلًا أو أنهم هبطوا واتجهوا إلى داخل المدينة. وبعد مشاورة هامسة مع جور هاجوس، قررنا أن نحاول مغادرة الطائرة. كان هدفنا العثور على مكان اختباء داخل برج منصة الهبوط، يمكننا خلاله أن ندرس السبل الممكنة للهرب إلى المدينة، إما على الفور أو

غدًا عندما يمكننا الاختلاط بسهولة أكبر مع الازدحام الذي قال جور هاجوس أنه سيبدأ في الظهور بعد بضع ساعات بعد شروق الشمس.

فتحت باب مقصورتنا بحذر، ونظرت إلى المقصورة الرئيسة وراءه. كان الظلام مخيمًا. خرجنا بصمت. كان صمت القبور يرين على الطائرة، بينما تنهض خافتة من بعيد ضوضاء المدينة. كل شيء على ما يُرام حتى الآن! ثم انطلق فجأة، دون صوت ودون سابق إنذار، ضوء لامع أضاء المقصورة من داخلها. شعرت بأصابعي تشدد قبضتها على مقبض سيفي، وأنا ألقي نظرة خاطفة حولي.

في مواجهتنا مباشرة، في مدخل المقصورة الصغيرة الضيق، وقف رجل طويل القامة يدل عتاده الوسيم على أنه ليس محاربًا عاديًّا. حملت كل يد من يديه مسدسًا برسوميًّا ثقيلًا، ووجدنا أنفسنا نحدق في فوهتيهما.

* * *

الفصل (٩)

ارفعوا أيديكم!

في نبرة هادئة، قال بلغة برسوم ما يعادل في لغتنا في كوكب الأرض: «ارفعوا أيديكم!». مس ظل ابتسامة قاتمة شفتيه، وعندما رأى ترددنا في إطاعة أوامره تحدث مرة أخرى.

– افعلوا ما أقوله لكم، وسوف تأمنون. حافظوا على صمتكم. فأي صوت يرتفع سوف يتسبب في موتكم؛ طلقة المسدس مؤكدة.

رفع جور هاجوس يديه أعلى رأسه، وفعل الآخرون مثله.

أعلن الرجل الغريب: «أنا بال زاك»، وهنا سقط قلبي.

قال جور هاجوس: «إذَنْ من الأفضل أن تبدأ في إطلاق النار؛ لأنك لن تأخذنا أحياء. نحن أربعة ضد واحد».

قال كابتن السفينة فوسار: «ليس بهذه السرعة، جور هاجوس، ليس قبل أن تعرفوا ما يدور في ذهني».

قاطعه قاتل تونول: «نحن نعرف بالفعل ماذا يدور في ذهنك، فقد سمعناك تتحدث عن المكافأة الكبيرة التي تنتظر من يأسر فاد فارو وجور هاجوس».

قال بال زاك: «لو كنت أتوق إلى هذه المكافأة، لكنت سلمتكم إلى دُوّار[٢٢] سفينة فوبيس كان عندما صعد على متن سفينتنا».

قلت لتذكيره: «لكنك لم تكن تعرف أننا على متن فوسار».

«آآه، كنت أعرف».

تنحنح جور هاجوس بما ينم عن عدم تصديقه.

فقال بال زاك لتذكيرنا: «كيف إذَنْ كنت مستعدًّا في هذا المكان بالتحديد، عند خروجكم من مكان الاختباء؟ نعم، كنت أعرف أنكم على متن السفينة».

«ولكن كيف؟»، سأله دار تاروس.

أجاب بال زاك: «هذا لا يهم، وإنما لإرضاء فضولكم الطبيعي أقول لكم إن لدي مسكنًا في غرفة صغيرة في برج ثافاس، ونوافذي تطل على السطح وحظيرة الطائرات. وحياتي الطويلة التي أمضيتها على متن الطائرات جعلتني شديد الحساسية لأي تغيير في صوت محركات السفينة، إنه يوقظني في عتمة الليل، وأعرف جيدًا صوت تشغيل المحرك أو توقفه. لقد أيقظني صوت تشغيل محركات بينسار؛ رأيت ثلاثة منكم على السطح وهبوط الرابع من على سطح السفينة عند تشغيل محركها. وعرفت بخبرتي أنكم ترسلون السفينة من دون طيار لسبب ما لا أعرفه. تأخر الوقت لمنعكم، ولذا انتظرت في صمت

(٢٢) دوار: رتبة مريخية تعادل رتبة كابتن (نقيب) – *http://barsoom.wikia.com/wiki/Dwar* – المترجمة.

لمعرفة ماذا سيعقب ذلك. رأيتكم تسرعون إلى الحظيرة، وسمعت تحية راس ثافاس والرد عليها، ثم رأيتكم تصعدون إلى السفينة فوسار. نزلت فورًا إلى السطح، وركضت إلى الحظيرة دون إحداث صوت، متصورًا أنكم تريدون الانطلاق بهذه السفينة، لكني لم أجد أحدًا بالقرب من أزرار التحكم. ومن منفذ صغير في غرفة التحكم، حيث يمكن رؤية المقصورة الرئيسة، شاهدتكم تدخلون الغرفة الصغيرة. أدركت على الفور أن غرضكم الوحيد هو الاختباء من أجل الوصول إلى تونول. وبالتالي، ذهبت إلى عملي كالمعتاد، مع مراقبة مكان اختبائكم».

سألته: «ولم تقم بإبلاغ راس ثافاس؟».

أجاب: «لم أُبلغ أحدًا. تعلمت منذ سنوات أن أهتم بشؤوني فقط. أرى كل شيء، وأسمع كل شيء، ولا أقول أي شيء إلا إذا كان لمصلحتي».

قال جور هاجوس لتذكيره: «لكنك قلت إن مكافأة القبض علينا كبيرة؛ أليس من مصلحتك الحصول عليها؟».

أجاب بال زاك: «توجد في صدور الرجال الشرفاء قوة تفوق شهوة الذهب. وفي حين من المفترض أن التونوليين متحررون من تأثير المشاعر، أنا من بين الناس الذين لم يفقدوا تمامًا الشعور بالامتنان. قبل ست سنوات، جور هاجوس، أنت رفضت اغتيال والدي؛ لأني رأيت أنه رجل طيب، يستحق أن يعيش، وتصادقتما لفترة قصيرة. وأنت تجني اليوم مكافأتك، من خلال ابنه، فضلًا عن تعويضك بقدر ما عن العقوبة التي فرضها عليك فوبيس كان بسبب رفضك قتل والد بال زاك. لقد

أرسلت طاقمي بعيدًا بحيث لا يبقى على متن فوسار سواي لأعرف سبب وجودكم. أخبروني بخططكم، وبأي طريقة يمكنني أن أخدمكم».

أجاب جور هاجوس: «نريد أن نصل إلى الشارع دون انكشاف. يمكنك مساعدتنا في ذلك، ولن نضع على عاتقك مسؤولية أخرى عن هروبنا. نحن ممتنون لك. وفي تونول، لا حاجة إلى تذكيرك، يُعتبر امتنان جور هاجوس شيئًا يتوق إليه حتى الجيداك».

وبعد لحظات من التفكير، قال بال زاك: «مشكلتكم معقدة، بسبب شخصيات مجموعتكم». فالقرد سوف يلفت الانتباه ويثير الريبة على الفور. ونظرًا لمعرفتي الكثير عن تجارب راس ثافاس، أدركت صباح اليوم، بعد مشاهدتي القرد معكم، أنه يملك مخ رجل؛ لكن هذه الحقيقة نفسها سوف تجذب له ولكم اهتمام الناس الكبير».

دمدم هوفان دو: «لا يتطلب الأمر تعريفهم بهذه الحقيقة؛ فأنا بالنسبة لهم لن أكون سوى سوى قرد أسير. أليس هذا شائعًا في تونول؟».

أجاب بال زاك: «ليس تمامًا، على الرغم من ندرته. ولكن هناك أيضًا بشرة فاد فارو البيضاء! يبدو أن راس ثافاس لا يعرف بوجود القرد معكم؛ لكنه يعرف فاد فارو جيدًا، ونشر أوصافه عبر كل وسيلة لديه. سوف يتعرف عليك فورًا أول تونولي تقع عليك عيناه. ومعكم أيضًا جور هاجوس، الذي قُتِل منذ ست سنوات. مع ذلك، لا يوجد تونولي كسر بيضته وخرج إلى الحياة قبل عشر سنوات لا يعرف وجه جور هاجوس بمثل ما يعرف وجه أمه. الجيداك نفسه ليس معروفًا لأهل تونول أكثر من جور هاجوس. وهذا يتركنا إلى شخص واحد فقط ربما

يفلت من الشك والانكشاف في شوارع تونول».

قلت: «إذا أمكننا الحصول على أسلحة لهؤلاء الآخرين، ربما حتى الوصول إلى منزل صديق جور هاجوس».

تساءل بال زاك: «تشقون طريقكم بالقتال خلال مدينة تونول؟».

قلت: «سنضطر إلى ذلك، إن لم تكن هناك أي وسيلة أخرى».

علّق قائد السفينة فوسار قائلًا: «أنا معجب بهذه الإرادة، لكني أخشى أن الجسد يفتقر إلى قوة كافية. انتظر! هناك طريقة ... ربما. يوجد في أسفل، تحت هذه المنصة، مستودع عام لاستئجار محركات التوازن.[٢٣] وإذا وجدنا وسيلة للحصول على أربعة من تلك المحركات، ستتوفر أمامكم فرصة على الأقل للإفلات من الدوريات الجوية والوصول إلى منزل صديق جور هاجوس؛ وأعتقد أنني أعرف طريقة لإنجاز ذلك. يغلقون برج الهبوط ليلًا، لكن هناك عدد من المراقبين الذين ينتشرون خلال مستوياته المختلفة. يوجد مراقب في مستودع محركات التوازن، وأنا أعرفه وأعرف أنه يحب لعبة الجيتان[٢٤]، إلى حد أنه قد يترك واجباته كحارس لكي يلعبها. وأنا غالبًا ما أظل على متن السفينة فوسار في الليل وننغمس أحيانًا في اللعبة. سوف أطلب منه أن يصعد الليلة، وفي هذه الأثناء يمكنكم الذهاب إلى المستودع وترتدون

(٢٣) محرك التوازن: هو جهاز شخصي للطيران، يتيح للمُستخدِم الطيران من دون طيار، وهو نسخة بدائية من حزام الطيران الذي يوضع عادة على الظهر ويدفع المستخدِم للطيران عبر ضغط الغازات وأحيانًا الماء – *https://barsoom.fandom.com/wiki/Equilibrimotor* – المترجمة.

(٢٤) جيتان: لعبة في برسوم تشبه إلى حد كبير لعبة الشطرنج على كوكب الأرض – *http://barsoom.wikia.com/wiki/Jetan* – المترجمة.

محركات التوازن وتُصلّون إلى أسلافكم ألا تشتبه فيهم الدوريات الجوية خلال عبوركم المدينة نحو وجهتكم. ما رأيك في هذه الخطة، جور هاجوس؟».

أجاب: «إنها رائعة». «وأنت، فاد فارو؟».

أجبت: «لو كنت أعرف ما هو محرك التوازن، لأصبحت في وضع أفضل للحُكم على جدارة الخطة. مع ذلك، فإنني التزم بكل الرضى برأي جور هاجوس. وأود أن أعرب لك، بال زاك، عن امتناننا الكبير. ونظرًا لأن جور هاجوس وافق على خطتك، فلا يسعني إلا أن أحثك على وضعها موضع التنفيذ بأقل قدر ممكن من التأخير».

صاح بال زاك: «حسنًا! تعالوا معي، وسوف أخفيكم إلى أن أستدرج الحارس للعب الجيتان داخل مقصورتي. وبعد ذلك، سيكون مصيركم بين أيديكم».

سرنا معه من السفينة إلى سطح منصة الهبوط وبالقرب من أسفل جانب السفينة فوسار المعاكس الذي سيأتي منه الحارس إلى السفينة ويدخلها. تركنا بال زاك بعد أن تمنى لنا حظًّا طيبًا.

من قمة برج الهبوط، رأيت للمرة الأولى مدينة مريخية. تمتد أدناي بعدة مئات من الأقدام مدينة تونول بطرقاتها الواسعة جيدة الإضاءة، ويزدحم كثير منها بالناس. يوجد هنا وهناك، في هذا الحي المركزي، مبنى عالٍ يرتفع على محوره المعدني الأسطواني الذي يدعمه؛ بينما أبعد من ذلك، حيث تسود المساكن، تتخذ المدينة مظهر غابة ضخمة وبشعة. ترتفع أحيانًا بين القصور الكبيرة تركيبات من غرف فوق

مستوى تركيبات مماثلة أخرى، وهذه هي شقق نوم ملاكها أو موظفيهم أو ضيوفهم؛ على أن البيوت الصغيرة توجد في مجملها مرتفعة، كإجراء احترازي يقتضيه استمرار نشاط اتباع مهنة جور هاجوس القديمة التي لا تتيح لأي شخص التحرر من التهديد المستمر بالاغتيال. وفي جميع أنحاء المنطقة الوسطى، تخترق الأبراج السامقة لمنصات الهبوط الأخرى السماء؛ على أنني عرفت لاحقًا أنها قليلة العدد نسبيًّا. وتونول ليست بأي حال مدينة طيران؛ إذ لا تضم أساطيل ضخمة من السفن التجارية وسفن الحرب كما هو حال مدينتي هيليوم التوأم، على سبيل المثال، أو العاصمة كبيرة بتارث.

تتسم إضاءة شوارع تونول بملمح غريب، ينطبق في الواقع أيضًا على إضاءة المدن البرسومية الأخرى التي زرتها، وقد لاحظته بداية في الليلة التي انتظرت فيها عند منصة الهبوط عودة بال زاك مع الحارس. بدا التألق في أسفل مقتصرًا بشكل مباشرة على المنطقة المطلوب إضاءتها؛ فالضوء لا ينتشر إلى أعلى أو خارج حدود مصابيح الإضاءة. وقد قيل لي إن هذا يرجع إلى أن المصابيح تم تصميمها وفقًا للمبادئ الناتجة عن عصور من البحث في خصائص موجات الضوء وقوانينها الناظمة، التي تتيح لعلماء برسوم احتجاز الضوء والتحكم فيه بمثل ما نحتجز المادة ونتحكم فيها. تغادر أمواج الضوء المصباح وتمر عبر دائرة محددة، ثم تعود إلى المصباح. ما من إهدار، كما لا توجد –وهو ما بدا غريبًا بالنسبة لي– أي ظلال كثيفة عند تثبيت وتعديل الأضواء بشكل صحيح، ذلك أن الموجات تنير جميع جوانب الأشياء عند عبورها حولها للعودة إلى المصباح.

وكان تأثير هذه الإضاءة رائعًا من الارتفاع الكبير للبرج. كان الظلام دامسًا، ولا توجد أقمار في تلك الساعة، وتشعر بهذا التأثير عندما تجلس في قاعة مظلمة وتنظرنا إلى منصة مضاءة ببراعة. وخلال مشاهدتي للحياة والألوان أدناه، سمعنا صوت عودة بال زاك. من الواضح أنه نجح في مهمته؛ لأنه كان يتحدث مع شخص آخر.

وبعد خمس دقائق، تسللنا بهدوء من مكان الاختباء وهبطنا إلى المستوى الأدنى حيث يقع مستودع محركات التوازن. لا توجد أي احتياطات ضد السرقة؛ ذلك أن السرقة غير معروفة عمليًّا في برسوم، إلا لأغراض منفصلة تمامًا عن الرغبة في الحصول على أرباح مالية من خلال الشيء المسروق. ولذلك وجدنا أبواب المستودع مفتوحة، وأسرع جور هاجوس ودار تاروس في انتقاء أربعة محركات توازن وضبطها علينا. يتكون محرك التوازن من حزام متسع، لا يختلف عن حزام الحياة المُستخدم على متن البواخر عابرة المحيطات على كوكب الأرض. وتمتلئ هذه الأحزمة بالأشعة الثامنة في برسوم، أو أشعة الدفع، بقدر يكفي لمساواة شد الجاذبية ومن ثم الحفاظ على الشخص في حالة توازن بين تلك القوة والقوة المعاكسة الناتجة عن الأشعة الثامنة. يتصل دائمًا محرك راديوم صغير بالجزء الخلفي من الحزام، وتوجد أزرار تحكمه على الجانب الأمامي الحزام. كما يرتبط بصرامة، ويبرز من كل جانب من جوانب الحافة العلوية للحزام، جناح قوي وخفيف يضم رافعتين يدويتين صغيرتين لتغيير موضعه بسرعة.

شرح جور هاجوس بسرعة طريقة التحكم، وأدركت أنني قد أواجه بعض الإحراج والمتاعب قبل أن أتقن فن التحليق بمحرك التوازن. أوضح لي كيفية إمالة أجنحة الهبوط إلى أسفل عندما أسير، حتى لا ارتفع عن الأرض في كل خطوة، وقادني على هذا النحو إلى حافة منصة الهبوط.

وقال: «سوف ترتفع هنا. ونسعى، ونحن نحافظ على وجودنا في ظلام المستويات العليا، إلى الوصول إلى منزل صديقي دون أن نُكتشف. ويجب أن ننفصل إذا طاردتنا الدوريات الجوية، ثم يتجمع لاحقًا الفارون غربي سور المدينة حيث توجد بحيرة صغيرة وبرج مهجورة عند حافتها الشمالية؛ وهذا البرج سيكون مكان لقائنا في حالة حدوث مشكلة. اتبعوني!». وبدأ تشغيل محركه، وارتفع برشاقة في الهواء.

تبعه هوفان، ثم جاء دوري. ارتفعت برشاقة لحوالي عشرين قدمًا، طافيًا فوق المدينة التي تقع على مسافة مئات الأقدام أدناه، ثم انقلبت فجأة رأسًا على عقب. كنت على يقين أنني فعلت شيئًا خاطئًا. أؤكد لكم أنني شعرت بإحساس مذهل، أن أطفو ورأسي إلى أسفل، عاجز تمامًا؛ بينما تقع أدناي شوارع مدينة عظيمة ليست أقل نعومة، بالتأكيد، من شوارع لوس أنجلوس أو باريس. لا يزال محركي مستمرًّا. ومع تعاملي مع أزرار التحكم المسؤولة عن تشغيل الأجنحة، بدأت في جميع أنواع الحركات الدائرية والحلقية والحلزونية إلى أن جاء دار تاروس لإنقاذي. أخبرني أولًا أن أرقد بهدوء، ثم تولى توجيه كل جناح

حتى اكتسبت وضعًا عموديًّا. واصلت بعد ذلك بشكل جيد إلى حد ما، وسرعان ما ارتفعت وطرت في أعقاب جور هاجوس وهوفان دو.

لست بحاجة إلى أن أصف بالتفصيل ساعة من الطيران، أو بالأحرى الطفو، التي تلت ذلك. قادنا جور هاجوس إلى ارتفاع كبير حيث قادتنا محركاتنا البطيئة، خلال الظلام فوق المدينة، نحو حي لبيوت رائعة محاطة بحدائق واسعة. وعندها، حلّقنا فوق قصر كبير، وروعنا فجأة باعتراض حاد قادم من فوقنا مباشرة.

سأل صوت: «من ذا الذي يطير ليلًا؟».

أجاب جور هاجوس بسرعة: «أصدقاء مو تل، أمير بيت كان».

أمرنا شخص فوقنا: «أريد رؤية تصريح طيرانكم الليلي، ورخصة الطائرات»، وانزلق في الوقت نفسه فجأة إلى مستوى طيراننا، مما منحني أول مشاهدة لشرطي مريخي. كان مزودًا بمحرك توازن أسرع من محركاتنا وأكثر براعة. وأعتقد أن هذه كانت أول حقيقة تثير إعجابنا بعمق، وتوضح عدم جدوى الرحلة؛ إذ كان بإمكانه أن يمنحنا عشر دقائق بداية واللحاق بنا خلال عشر دقائق أخرى، على الرغم من أننا اخترنا الطيران في اتجاهات مختلفة. كان الزميل محاربًا وليس شرطيًّا، رغم أنه مكلف بأداء واجبات الشرطة كما يحدث مع ضباط الشرطة في كوكب الأرض؛ فقد كان محاربي جيش فوبيس يقومون بالدوريات ليلًا ونهارًا في المدينة.

هبط الآن مقتربًا من قاتل تونول، وطالبه مرة أخرى بالتصريح والرخصة، وهو يومض في الوقت نفسه ضوءًا في مواجهة رفيقي.

صاح: «باسم سيف الجيداك! ليحالفني الحظ. من كان يتصور منذ ساعة أنني سوف أكون من سيحصل على مكافأة القبض على جور هاجوس؟».

أجاب جور هاجوس: «أي أحمق آخر قد يتصور ذلك، إلا أنه سيكون مخطئًا مثلك»، وخلال رده وجه ضربة بالسيف القصير الذي كنت أعطيته له.

ارتطمت الضربة بجناح محرك التوازن الذي يرتديه المحارب وحطمته، لكنها أصابت كتف المحارب بجرح خطير. حاول التراجع، لكن الجناح التالف تسبب في مجرد دورانه على نحو يصعب توقعه؛ ثم أمسك بصفارته وحاول إطلاق صفير هائل، لكن ضربة أخرى من سيف جور هاجوس أوقفتها، حيث شقت رأس الرجل على امتداد أنفه.

وصاح القاتل: «أسرعوا! علينا أن نهبط إلى حدائق مو تل؛ فهذه الإشارة سوف تجلب سربًا من الدوريات الجوية حول رؤوسنا».

رأيت الآخرين يهبطون بسرعة نحو الأرض، لكني واجهت مشكلة مرة أخرى. بالضغط على أجنحتي، تحركت إلى أسفل لمسافة قصيرة وفوق مسار إذا واصلته سأهبط على مسافة كبيرة من حدائق مو تل. كنت أقترب من أحد أجزاء القصر المرتفعة، ما بدا شقة صغيرة ترتفع على محورها المعدني لمسافة عالية فوق الأرض. وسمعت من جميع الاتجاهات صرخات صفارات الدوريات الجوية ردًّا على دعوة زميلهم الذي كان جسده يطفو فوقي مباشرة، كأنه دليل حتى في موته يشير إلى الطريق أمام زملائه للبحث عنا. كانوا على يقين أنهم سيكتشفونه،

عندئذ سوف يروننني بوضوح وينتهي مصيري.

ربما أجد وسيلة لدخول الشقة التي تلوح قريبة في الظلام! قد أختفي فيها حتى ينتهي الخطر، شريطة أن أدخل دون أن أُكتَشَف. وجّهت مساري نحوها. يبدو خلال الظلام شكل نافذة مفتوحة. اصطدمت بشبكة من الأسلاك الرفيعة- ستارة حماية تصد القتلة القادمين جوًّا، وتحمي شقق النوم المرتفعة. شعرت أنني ضعت. إذا أمكنني فقط الوصول إلى الأرض قد أجد مكان اختباء بين الأشجار والشجيرات التي رأيتها دون وضوح في حدائق هذا الأمير البرسومي؛ لكني لم أستطع الهبوط بزاوية كافية داخل أرض الحديقة، وعندما حاولت الهبوط على شكل حلزوني، انقلبت وبدأت أعلو ثانية. فكرت في تمزيق حزامي وفتح طريق الفرار أمام الأشعة الثامنة؛ لكني خشيت أن يؤدي عدم إلمامي بهذه القوة الغريبة إلى سقوطي بعنف شديد على الأرض، رغم تصميمي على اللجوء إلى هذه الطريقة كبديل أخير إن لم أجد شيئًا أقل قسوة.

في محاولتي الأخيرة للهبوط الحلزوني، ارتفعت بسرعة لحوالي قدم لأصطدم على نحو مفاجئ ومثير للدهشة بشيء فوقي. وبشكل محموم قمت بتصحيح وضعي، متوقعًا تمامًا أن يُمسك بي على الفور أحد أفراد الدوريات الجوية، إلا أني وجدتني وجهًا لوجه مع جثة المحارب الذي قتله جور هاجوس. اقترب صفير الدوريات الجوية، وقد يستغرق اكتشاف وجودي مجرد عدة ثوان. وفي ظل صرامة الوضع الذي يواجهني، والموت ينظر إلى وجهي، برز أمامي طريق ممكن

للفرار من هذه المعضلة.

أحكمت قبضة يدي اليسرى على عتاد التونولي الميت، ثم سحبت خنجري وشققت حزامه للطفو عشرات المرات. وعلى الفور، مع تسرب الأشعة، بدأ جسده يسحبني إلى أسفل. كان هبوطنا سريعًا، ولكن دون تهور، وما هي إلا بضع ثوان وهبطتنا بلطف فوق المرج القرمزي في حدائق مو تل، أمير بيت كان، بجوار أجمة من الشجيرات الكثيفة. انطلقت فوقي صفارات الدوريات المحلقة، وأنا أجُر جثة المحارب نحو عمق خفي داخل أوراق الشجر. لم أقترب من السلامة ولو للحظة؛ إذ انطلقت على الفور تقريبًا أشعة الكشاف اللامعة متجهة إلى الأسفل من على ظهر سفينة فضاء لدورية صغيرة، وألقت الضوء على المساحات المفتوحة حولي في الحديقة. لم تكشف لمحة سريعة خلال فروع وأوراق مخبئي عن رفاقي، وتنفست الصعداء لأنهم عثروا أيضًا على مكان للاختباء.

تحرك الضوء لفترة قصيرة حول الحدائق ثم اختفى، كما حدث أيضًا مع صوت صفارات الدورية، ثم انتقل البحث إلى أماكن أخرى؛ مما أكد لي أن الشكوك لم تشمل مكان اختبائنا.

استوليت في الظلام على ما أريد من أسلحة المحارب الميت بعد أن أزلت محرك التوازن، الذي فكرت بداية في تدميره لكني قررت أخيرًا تثبيته في إحدى الشجيرات الكبيرة فربما أحتاج إليه ثانية. الآن، ولشعوري بالأمان لاقتناعي بانتهاء خطر اكتشاف الدوريات الجوية لنا، تركت مخبئي وبدأت أبحث عن رفاقي.

تحركت في ظلال الأشجار والشجيرات في اتجاه المبنى الرئيس، الذي لاح قريبًا في الظلام؛ وكنت أعتقد أن جور هاجوس سوف يقود الآخرين في هذا الاتجاه، وذلك لمعرفتي أن قصر مو تل هو وجهتنا. تسللت بأقصى قدر من الحذر، وفجأة انطلق القمر الأقرب ثوريا فوق الأفق، لينير الليل بأشعته الرائعة. اقتربت من جدار المبنى المنحوت بالزخارف. توجد بجواري فتحة ضيقة، يلقي القمر ثوريا داخلها أعمق ظلال أشعته الرائعة؛ ويوجد على يساري جزء مفتوح من مرجة خضراء يقف عليها واضحًا بكل تفاصيله المرعبة مخلوق مخيف مخلوق لم تقع عيناي على مثله من قبل. كان وحشًا بحجم فرس قزم، لديه عشر سيقان قصيرة، ورأس مخيف يشبه قليلًا رأس الضفدع، إلا أن فكيه كانا مزودين بثلاثة صفوف من الأنياب الطويلة الحادة.

ارتفع أنف هذا الشيء في الهواء يتشمم حوله، بينما تتحرك عيناه الكبيرتان بسرعة في اتجاهات مختلفة، بما يؤكد دون شك أنه يبحث عن شخص ما. ومع أنني لست ميالًا إلى الغرور، لم أستطع أن أتجنب اقتناعي بأنه يبحث عني. إنها خبرتي الأولى مع كلب حراسة مريخي. حاولت الاختباء في الظلال الداكنة ورائي، على أن أعين المخلوق وجدتني في اللحظة نفسها، وسمعت هديره، ورأيته يتجه بهجومه نحوي مباشرة، وصدق هاجسي بأنني سأواجه خبرتي الأخيرة معه.

سحبت سيفي الطويل، وأنا أتراجع نحو الفتحة خلفي، وإن أحسست بعدم كفاية سلاحي غير المألوف في مواجهة ضراوة هذا

الجسد الذي يزن حوالي ثلاثمائة أو أربعمائة رطلٍ. أخذت أتراجع ببطء في الظلال مع اقتراب المخلوق. وعندما دخلت إلى الفتحة، اصطدم ظهري بعائق صلب يحول دون مزيد من التراجع.

❊ ❊ ❊

الفصل (١٠)

قصر مو تل

عندما دخل الكالوت إلى الفتحة، أقسم أنني شعرت بجميع ردود أفعال فأر مُحاصَر في ركن، وأعرف يقينًا أنني أعددت نفسي للقتال في هذا الوضع الذي يصفه التشبيه السابق. كان الوحش على وشك الانقضاض. وكنت، مجازًا، أركل نفسي لعدم بقائي في العراء حيث توجد العديد من الأشجار العالية، عندما ظهر الدعم خلفي فجأة؛ إذ امتدت يد من وسط الظلام خلفي وأمسكت عتادي، سرعان ما وجدتني في سواد كالحبر. أُغلق باب بعنف، واختفت صورة الكالوت الظلية عند مدخل الفتحة الذي يضيئه القمر.

تحدث صوت أجش في أذني وقال: «تعال معي!». وجدتني يد، وقادتني عبر الظلام إلى ما اكتشفت أنه ممر ضيق تكررت خلاله اصطداماتي بإحدى جانبيه أولًا ثم بالجانب الآخر.

ومع التصاعد التدريجي، تحول الممر فجأة إلى زوايا قائمة ورأيت أمام مرشدي دليل إضاءة خافت يزداد تدريجيًّا إلى أن أخذنا لمنعطف آخر أوصلنا إلى عتبة غرفة جيدة الإضاءة – شقة رائعة، ذات أثاث وزخارف جميلة يصعب حتى على لغتي الأصلية وصفه. الذهب، والعاج، والأحجار الكريمة، والأخشاب الرائعة، والأقمشة المتألقة، والفراء الرائع، والعمارة المذهلة، أثرت مجتمعة على رؤيتي كمواطن قادم من كوكب الأرض وتركت انطباعًا لصورة لم أحلم أبدًا أن أحلم حتى بها. ووجدت رفاقي الثلاثة في وسط هذه الغرفة، تحيط بهم مجموعة صغيرة من المريخيين.

قادني مرشدي نحوهم، واستداروا تجاهنا عندما دخلنا القاعة. أوقفني أمام برسومي طويل القامة، متألق في عتاده المرصع بالجواهر.

وقال: «أيها الأمير، تعرف أنني قليل الكلام. وفي واقع الأمر، عندما فتحت الباب للخروج إلى الحديقة بحثًا عنه، كما أمرتني، وجدته هناك على الجانب الآخر وأحد الكالوت في الحديقة يكاد ينقض عليه».

«جيد!»، صاح من يوجه إليه الحديث باعتباره الأمير، ثم التفت إلى جور هاجوس قائلًا: «أهذا هو، يا صديقي، الشخص الذي أخبرتني عنه؟».

أجاب جور هاجوس: «هذا هو فاد فارو، الذي يزعم أنه من كوكب جاسوم. وهذا، يا فاد فارو، هو مو تل، أمير بيت كان».

انحنيت، وتقدم الأمير ووضع يده اليمنى على كتفي الأيسر في إقرار برسومي حق عن التعارف. وعندما فعلت مثله، انتهت الطقوس. لم يقل

أحد تلك العبارات السخيفة 'سعيد لمقابلتك'، أو 'كيف حالك؟'، أو 'إنه بالتأكيد لمن دواعي سروري'.

رويت بإيجاز، بناء على طلب مو تل، ما حدث لي بعد انفصالي عن رفاقي وإلى أن أنقذني أحد ضباطه من كارثة وشيكة. أعطى مو تل تعليمات بالانتهاء قبل الفجر من إزالة جميع آثار الدورية التي لقت حتفها، خشية أن يجلب له اكتشافها مزيدًا من شكوك عمه، فوبيس كان، جيداك تونول، الذي يغار من تزايد شعبية ابن أخيه منذ فترة طويلة، وبالتالي خوفه من طموحه لاعتلاء العرش.

في وقت لاحق في المساء، وخلال إحدى تلك الوجبات الرائعة التي يشتهر بها بجدارة أمراء برسوم، أخذ مو تل يتحدث عن عمه الإمبراطوري دون قيود، بعد أن انتشى قليلًا من الخمر النادر الذي قدمه لإسعاد ضيوفه.

قال: «لقد سئم النبلاء من فوبيس كان منذ فترة طويلة، كما سئم منه الناس –إنه طاغية بلا ضمير– لكنه حاكمنا بالوراثة، ولذا يترددون في تغييره. نحن شعب عملي، لا نتأثر كثيرًا بالمشاعر؛ إلا أن هناك ما يكفي لإبقاء الجماهير على ولاء للجيداك حتى وإن لم يعد يستحق هذا الولاء، في حين أن الخوف من غضب الجماهير هو ما يُبقي على ولاء النبلاء. ولأنني أحتل الموقع الأول في خط الخلافة، هناك أيضًا الشك الطبيعي في أنني لن أكون كجيداك أقل استبدادًا من فوبيس كان، بينما قد أكون أكثر نشاطًا في الممارسات القاسية والشائنة لأني لا أزال شابًّا».

– أنا شخصيًّا لا أتردد في تدمير عمي والاستيلاء على عرشه إن تأكدت من دعم الجيش؛ فمع دعم محاربي فوبيس كان يمكنني مواجهة بقية تونول. ولهذا السبب عرضت صداقتي منذ فترة طويلة على جور هاجوس؛ ليس لأنه قد يقتل عمي، بل لأنه –بعد أن أقتل عمي في قتال عادل– يمكنه أن يفوز لصالحي بولاء محاربي الجيداك، حيث شعبية جور هاجوس هائلة بين الجنود، الذين ينظرون إلى مثل هذا المقاتل العظيم بمهابة وإخلاص. وقد عرضت على جور هاجوس موقعًا رفيعًا في شؤون تونول إذا شاركني؛ لكنه يخبرني أن عليه أولًا الوفاء بالتزاماته تجاهك، فاد فارو. ولتعزيز مغامرتك، طلب مني أن أقدم لك ما يمكنني من مساعدة. وهذا ما أقدمه لك بكل سرور، من دوافع عملية بحتة، لأن نجاحك المبكر سوف يُعجّل من نجاحي. ولذلك، فإنني أضع تحت تصرفك طائرة قوية ستحملك أنت ورفاقك إلى فوندال».

وافقت بطبيعة الحال على هذا العرض، وأخذنا بعد ذلك نناقش خطط رحيلنا. قررنا أخيرًا أن نبدأ محاولتنا في فترة مبكرة من الليلة التالية، في وقت لا يوجد فيه القمران في السماء. وبعد مناقشة موجزة للأجهزة والمعدات، وافق الجميع بناء على طلبي بأخذ قسط من الراحة؛ فلم أنم منذ أكثر من ست وثلاثين ساعة، ولم ينم رفاقي منذ أربع وعشرين ساعة.

قادنا العبيد إلى شقق النوم، التي كانت مفروشة بترف، ورتبوا لراحتنا حريرًا وفراء رائعًا للنوم.

وبعد مغادرتهم، لمس جور هاجوس زرًّا فارتفعت الغرفة سريعًا على محورها المعدني لحوالي أربعين أو خمسين قدمًا؛ وسقطت حولنا تلقائيًّا شبكة من السلك، وأصبحنا آمنين ليلًا.

وفي صباح اليوم التالي، بعد إنزال شقتنا إلى مستواها الصباحي وقبل أنا يُسمح لي بمغادرتها، أرسل لي مو تل عبدًا بتعليمات أن أصبغ جسمي كله باللون الأحمر النحاسي الجميل لأصبح مثل أصدقائي البرسوميين. زودني العبد بتمويه أعرف جيدًا ضرورته الشديدة لنجاح خطتي، نظرًا لأن بشرتي البيضاء سوف تلفت انتباهًا غير مطلوب في أي مدينة على برسوم. جلب عبد آخر عتادًا وأسلحة لجور هاجوس ودار تاروس ولي، فضلًا عن طوق وسلسلة للرجل القرد هوفان دو. وعلى الرغم من أن عتادنا كان مصنوعًا بإتقان من مواد ثقيلة، فقد كان شديد البساطة ويخلو من أي شارة، سواء لرتبة أو خدمة – أي كان يماثل العتاد الذي يرتديه عادة أي بانتان[٢٥] برسومي، أو جندي مرتزق، في الأوقات التي لا يخدم فيها قطعًا أي دولة أو فرد. هؤلاء البانتان هم عمليًّا رجال بلا بلد، بل مرتزقة متنقلون على استعداد لبيع قوة سيوفهم إلى من يدفع أكثر. وعلى الرغم من عدم وجود تنظيم يجمعهم، تحكمهم قواعد أخلاقية صارمة؛ كما أنهم يدينون بالولاء، دون استثناء، للسيد الذي يعملون تحت إمرته. ومن المفترض عمومًا أنهم رجال هربوا من غضب جيداكهم أو عدالة محاكمهم؛ لكن بينهم رجال تتوق نفوسهم

(٢٥) بانتان: هو جندي مريخي مرتزق، يتنقل من مكان لآخر ويقاتل لصالح من يرغب في شراء خدماته – *http://barsoom.wikia.com/wiki/Panthan* – المترجمة.

إلى المغامرة ويتخذون هذا السبيل لما فيه من تشويق وإثارة. ومع أنهم يحصلون على أجور مرتفعة، فهم أيضًا مقامرون بارزون وسمعتهم سيئة في إنفاق المال، ولذلك فهم يفتقرون دائمًا إلى المال وغالبًا ما يلجأون إلى وسائل غريبة لكسب عيشهم في الفترات التي تقع بين تعاقداتهم؛ وهي الحقيقة التي أضفت معقولية كبيرة على حوزتنا لقرد مُدرّب، وهو ما قد يبدو ملحوظًا على كوكب المريخ أكثر مما قد يبدو امتلاك ملاح عجوز لقرد أو ببغاء، عاد لتوه من رحلة طويلة إلى أحد المواني على كوكب الأرض.

أمضيت وقتًا طويلًا في صحبة الأمير في يوم وجودي في قصر مو تل؛ حيث وجد متعة في سؤالي عن عادات كوكب الأرض وسياسته وحضارته وجغرافيته. ولدهشتي، وجدته يعرف الكثير عنه، وأوضح لي أن ذلك يرجع إلى تطور برسوم الهائل في الأدوات الفلكية والتصوير اللاسلكي والاتصالات الهاتفية اللاسلكية. كما وصلت تطور الاتصالات الهاتفية اللاسلكية إلى حالة من الكمال أتاحت للعديد من علماء برسوم النجاح في تعلُّم عدد من لغات كوكب الأرض، لا سيما الأُردية والإنجليزية والروسية، فضلًا عن الصينية.

وهذه كانت بلا شك اللغات الأولى التي جذبت انتباههم؛ لأن أعدادًا كبيرة من الناس يتحدثون بها في مناطق شاسعة من العالم.

أخذني مو تل إلى قاعة صغيرة في قصره، ذكرتني نوعًا ما بغرف العرض الخاصة على كوكب الأرض. تسع الغرفة حوالي مائتي شخص، ومبنية على شكل الحجرة المظلمة في الكاميرا؛ حيث يجلس

الجمهور داخل الجهاز وظهورهم نحو العدسة وأمامهم رقعة زجاجية كبيرة، تملأ مساحة إحدى طرفي الغرفة بالكامل، تظهر عليها الصورة المطلوب مشاهدتها.

جلس مو تل أمام طاولة يوجد فوقها رسم تخطيطي للسماء، ويوجد فوق الرسم ذراع متحرك يحمل مؤشرًا. تولى مو تل تحريك المؤشر حتى استقر على كوكب الأرض، ثم أطفأ ضوء الغرفة وفورًا ظهر على اللوح الزجاجي مشهد مثل ذلك الذي يمكنك رؤيته من طائرة على ارتفاع ألف قدم. رأيت في هذا المشهد شيئًا مألوفًا بشكل غريب، إنه بلد قفر مهجور. رأيت جذوعًا محطمة يُعلن ترتيبها عن أن هذا المكان كان في يوم ما بستانًا مزدهرًا ومثمرًا. ورأيت ثقوبًا كبيرة وقبيحة في الأرض، تمر عبرها وفوقها مجموعة متشابكة من الأسلاك الشائكة. سألت مو تل: كيف يمكننا تغيير الصورة إلى منطقة أخرى؟ أضاء لمبة راديو صغير بيننا، ورأيت عالمًا كرويًّا، الكرة الأرضية ومؤشر صغير مثبت فوقها.

قال موضحًا: «يمثل هذا الجانب من العالم الذي تشاهده الآن وجه كوكب الأرض الذي تحول تجاهنا. وسوف تلاحظ أن الكرة الأرضية تدور ببطء. ضع هذا المؤشر في المكان الذي تريده على ذلك الكوكب، وسيكشف لك عن ذلك الجزء من جاسوم».

قمت بنقل المؤشر ببطء شديد، وتغيرت الصورة. ظهرت إحدى القرى التي تدمرت، ورأيت بعض الأشخاص يتنقلون بين أنقاضها. ليسوا جنودًا. ورأيت على بُعد قليل خنادق ومخابئ -وهنا أيضًا لا

يوجد جنود. نقلت المؤشر بسرعة شمالًا وجنوبًا على طول خط واسع من الخنادق. رأيت جنودًا هنا وهناك في القرى، لكنهم جميعًا من الجنود الفرنسيين ولم أجد أحدهم أبدًا في الخنادق. لا يوجد أي جندي ألماني، ولا يوجد قتال. انتهت الحرب إذَنْ! نقلت المؤشر إلى نهر الراين وما بعده. يوجد جنود في ألمانيا- جنود فرنسيون، وجنود إنجليز، وجنود أمريكيون. لقد انتصرنا في الحرب! كنت سعيدًا، لكن المشهد كان يبدو بعيدًا جدًّا وغير واقعي -كأنما لم يوجد مثل هذا العالم ولم تحارب هذه الشعوب من قبل- شعرت كأنني أتذكر من خلال رسوم توضيحية رواية قرأتها منذ زمن بعيد.

لاحظ مو تل: «أنت تبدو أكثر اهتمامًا بتلك الحرب التي مزقت البلاد».

«نعم»، قلت موضحًا، «لقد قاتلت في تلك الحرب. ربما قُتِلت. لا أعرف».

تساءل: «وهل انتصرتم؟».

أجبت: «نعم، انتصر شعبي. لقد حاربنا من أجل مبدأ عظيم، ومن أجل سلام وسعادة العالم. وآمل أننا لم نحارب دون جدوى».

«إذا كنت تعني أنك تأمل أن مبدأكم سوف ينتصر لأنكم حاربتم وفزتم، أو أن السلام سيتحقق، فإن آمالك بلا جدوى. الحرب لا تجلب السلام أبدًا -بل تجلب المزيد والمزيد من الحروب. الحرب هي الحالة الطبيعية في الطبيعة- فمن الحماقة مكافحتها. يجب النظر إلى السلام باعتباره مجرد فترة تحضيرية للأعمال الرئيسة لوجود الإنسان. لو لم

يكن بسبب الحرب المستمرة من أحد أشكال الحياة على شكل آخر لها، وحتى على نفسها، لاجتاحت الحياة الكواكب بحيث تخنق نفسها. وجدنا في برسوم أن فترات السلام الطويلة قد جلبت الأوبئة والأمراض الفظيعة التي أودت بحياة أعداد من الناس أكثر من الحروب، وبطريقة أكثر بشاعة وإيلامًا. ليس هناك متعة ولا تشويق ولا مكافأة من أي نوع يمكن الفوز بها بالموت في سرير نتيجة مرض كريه. إننا جميعًا يجب أن نموت – فلنخرج إذَنْ ولنمت في لعبة كبيرة ومثيرة، ونفسح المجال للملايين الذين يأتون بعدنا. لقد جربنا ذلك في برسوم، ولن نوجد دون حرب».

أخبرني مو تل بالكثير في ذلك اليوم عن فلسفة التونوليين الغريبة. فهم يعتقدون بأنه لم يتحقق أبدًا أي عمل جيد إلا بدوافع أنانية؛ وليس لديهم إله ولا دين؛ ويعتقدون، مثلهم مثل جميع المتعلمين في برسوم، أن الإنسان جاء أصلًا من شجرة الحياة. لكنهم، على عكس معظم زملائهم، لا يعتقدون أن موجودًا كلي القدرة هو من خلق شجرة الحياة. كما يعتقدون أن الخطيئة الوحيدة هي الفشل، وأن النجاح –كيفما تحقق– جدير بالتقدير؛ على أن ما قد يبدو متناقضًا أنهم لا يخلفون كلمتهم أبدًا. وأوضح مو تل أنهم يتغلبون على النتائج الوخيمة لهذا الضعف المُهين –هذا الهراء العاطفي– بنُدرة، إن حدث أصلًا، ربط أنفسهم بولاء لآخر، وإن حدث يكون لفترة زمنية محددة بالتأكيد.

وعندما أصبحت معرفتي بهم أفضل، لا سيما معرفتي بجور هاجوس، بدأت أدرك أن جزءًا كبيرًا من احتقارهم المتفاخر بالمشاعر

الجميلة كان خادعًا. صحيح أن أجيالًا من الكبت قد أدت إلى حد ما إلى ضمور خصائص القلب والروح تلك التي يقدرها عاليًا أكثرنا نبلًا؛ وأن روابط الصداقة تتراخى وأن القرابة بالدم لم توقظ أي شعور بالمسؤولية أو الحب بين الآباء والأمهات والأطفال؛ بيد أن جور هاجوس كان رجل مشاعر من حيث الجوهر، على الرغم من أنه قد يشق قلب كل من يجرؤ على اتهامه بذلك، لأنه يثبت تمامًا حقيقة اتهام الآخر له. لقد أثبت فخره بسمعته في النزاهة والولاء أنه رجل بتمتع بقلب، بمثل ما أثبتت غيرته على سمعته في القسوة أنه رجل يتمتع بمشاعر؛ وفي هذا كله، كان نموذجًا يمثل شعب تونول. إنهم ينكرون الألوهية، وفي الوقت نفسه يعبدون صنم العلم الذي سمحوا له أن يستحوذ عليهم تمامًا على نحو ضار يماثل الضرر الناجم عن قبول المتعصبين الدينيين للحكم غير الرشيد لآلهتهم الخيالية؛ وهكذا، ومع كل عجرفة معرفتهم، ليسوا أذكياء لأنهم يفتقرون إلى التوازن.

ومع اقتراب اليوم من نهايته، أصبحت أكثر شغفًا بالرحيل. تقع فوندال في أقصى الغرب، عبر تجمعات المستنقعات المقفرة. وفي فوندال، يوجد الجسد الجميل للفتاة التي أحبها وأقسمت على استعادته لمالكته الشرعية. انتهت وجبة المساء، وقادنا مو تل بنفسه إلى حظيرة سرية في أحد أبراج قصره؛ حيث أعّد لنا الصناع المهرة طائرة بعد أن أمضوا النهار في إزالة جميع الدلائل على ملكيتها الحقيقية، وحتى أجروا تغييرًا طفيفًا في خطوطها بحيث لا يرتبط اسم مو تل ببعثتنا بأي شكل من الأشكال في حال إلقاء القبض علينا. انتهى تخزين الإمدادات، بما

في ذلك الكثير من اللحوم النيئة لهوفان دو. وعندما غرق القمر الأبعد في الأفق وحل الظلام، انزلقت جانبًا لوحة في جدار البرج، أمام مقدمة الطائرة مباشرة. تمنى لنا مو تل التوفيق، وانطلقت السفينة الفضائية بصمت في الليل. كانت الطائرة، مثل العديد من نوعها، دون قمرة أو مقصورة للقيادة؛ يحيط بحافتها العليا درابزين معدني منخفض؛ وُضعت حلقات ثقيلة بصورة ملحوظة على سطح السفينة، حيث من المفترض أن يتشبث أو يتعلق بها الطاقم بواسطة خطافات في عتادهم مخصصة لهذا الغرض وأغراض مماثلة؛ وهناك درع رياح منخفض، مع بعض الميل ليمنح بعض الحماية من الرياح؛ المحرك والضوابط مكشوفة كلها، حيث تشغل خزانات الطفو المساحة التي تقع أسفل الأسطح. في هذا النوع من الطائرات، يجري التضحية بكل شيء من أجل السرعة؛ فما من راحة على متن السفينة. وعندما تتحرك بسرعة عالية، يرقد كل فرد من أفراد الطاقم ممدًا بكامل طوله على سطح السفينة، كل في مكانة المخصص لتحقيق التوازن اللازم، ومتشبثًا بالحياة العزيزة. على أن طائرات تونول لا تتمتع بسرعات هائلة، كما قيل لي، وتفوقها سرعة طائرات أمم مثل هليوم وبتارث التي كرست نفسها عبر عصور لتحقيق كمال أساطيلها. لكن سرعة هذه الطائرة تكفي لأغراضنا، التي لا يتطلب تحقيقها المقارنة بأنواع أعلى من الطائرات، وسرعتها بالتأكيد تكفي بالنسبة لي. وانطلقت سفينتنا عبر الهواء كالسهم، مقارنة بالسفينة فوسار بطيئة الحركة.

لم تضيع وقتًا في التخطيط أو التسلل، بل انطلقنا بسفينتنا بسرعة بمجرد أن أصبحنا على مسافة آمنة، ووجهناها مباشرة نحو الغرب وفوندال. وما إن عبرنا حدائق مو تل، التقينا بمغامرتنا الأولى. اصطدمنا بجسم شخص عائم في الهواء، ودوّت في الوقت نفسه تقريبًا صفارة الإنذار الخاصة بدورية جوية. سمعنا صفير طلقة نارية فوقنا دون أن تضر بنا، ومضينا في طريقنا. وفي غضون ثوانٍ قليلة، رأيت أشعة كشاف تضيء من أعلى إلى أسفل وتتحرك جيئة وذهابًا تبحث عبر الهواء. «قارب دورية!»، صاح جور هاجوس في إذني. دمدم هوفان دو بوحشية، وأخذ يهز السلسلة طوقه. أسرعنا، آملين بثقة في الآلهة الكبيرة والآلهة الصغيرة وجميع أسلافنا، ألا تجدنا عين الضوء العنيدة؛ لكنها رأتنا. ففي غضون ثوانٍ قليلة، سقطت على سطح سفينتنا بالكامل من أعلى وأمامنا وثبتت، حيث هبط زورق الدورية نحونا بسرعة بينما حافظ على معدل عال للسرعة على مسار لا يتطابق مع مسارنا. ولذعرنا، فتح النار علينا برصاصات متفجرة. تحتوي هذه القذائف على مواد شديدة الانفجار، تنفجر بواسطة أشعة ضوئية عندما ينكسر غطاء القذيفة المعتم باصطدامه مع الهدف. ولذلك، ليس ضروريًّا على الإطلاق توجيه ضربة مباشرة لتكون فعالة. فإذا اصطدمت القذيفة بأرضية أو سطح سفينة أو أي مادة صلبة بالقرب من هدفها، فإنها تُلحِق أضرارًا عند إطلاقها على مجموعة من الرجال أكثر بكثير مما تلحقه من ضرر إذا أصابت أحدهم فقط؛ لأنها عندئذ سوف تنفجر إذا انكسر الغلاف الخارجي وقتل أو جرح العديدين؛ بينما إذا دخلت جسم فرد، لن تتمكن الأشعة الضوئية

من الوصول إليه ولن تحقق سوى ما تحققه رصاصة غير متفجرة. لم يكن ضوء القمر قويًّا بما يكفي لتفجير هذه المادة المتفجرة، ولذا كانت القذائف التي تُطلق أثناء الليل تنفجر عند شروق الشمس في صباح اليوم التالي، ما لم تلمسها أشعة قوية من الكشافات. وهو ما يجعل ساحة المعركة مكانًا غير آمن في ذلك الوقت، حتى وإن لم تعُد القوات المتصارعة موجودة هناك. وبالمثل، تصبح إزالة القذائف غير المنفجرة من جثث الجرحى عملية شديدة الخطورة قد تسفر عن وفاة فورية للمريض والجراح.

أدار دار تاروس، متخذًا موقعه أمام لوحات التحكم، مقدمة طائرتنا إلى أعلى مباشرة في اتجاه زورق الدورية، وصاح في الوقت نفسه طالبًا منا تركيز طلقاتنا على مراوح الزورق. لم أتمكن سوى من رؤية عين الكشاف التي تُصيب بالعمى، وبالتالي أطلقت النار بالسلاح الغريب الذي لم أتعرف عليه سوى منذ بضع ساعات عندما أعطاني إياه مو تل. كنت أعتبر أن هذه العين الباحثة تمثل أكبر خطر يواجهنا، وإذا أمكننا إصابتها، لن يتفوق علينا زورق الدورية. ولذا صوبت بندقيتي نحوها مباشرة، وإصبعي على زر التحكم في إطلاق النار، وأدعو في صلاتي من أجل إصابتها. كان جور هاجوس راكعًا إلى جانبي، يطلق الرصاص إلى زورق الدورية. انشغلت أيدي دار تاروس بلوحات التحكم، وجلس هوفان دو القرفصاء هادرًا عند مقدمة السفينة.

وفجأة هتف دار تاروس بذعر: «لقد أُصيبت لوحات التحكم! لا يمكننا تغيير مسارنا -أصبحت السفينة بلا طائل». وفي اللحظة

نفسها تقريبًا انطفأ الكشاف- أصابته إحدى رصاصاتي. أصبحنا الآن على مقربة من العدو، وسمعنا صيحاتهم الغاضبة. كانت طائرتنا، التي أصبحت خارج نطاق السيطرة، تسير بسرعة نحو الزورق. ويبدو أننا إن لم نتصادم، فسوف نمر مباشرة أسفل عارضة زورق الدورية الجوية. سألت دار تاروس عما إذا كان يتعذر إصلاح سفينتنا.

أجاب: «يمكننا إصلاحها إذا كان لدينا وقت، لكن الإصلاح يستغرق ساعات وتأخيرنا سيتيح لقوات الدوريات الجوية كلها في تونول أن تصل إلينا».

قلت: «إذَنْ علينا أن نحصل على سفينة أخرى».

ضحك تاروس دار وأجاب: «أنت على حق، فاد فارو، ولكن أين نجد سفينة أخرى؟».

أشرت إلى زورق الدورية: «ليس علينا أن ننتظر الآن».

هز دار تاروس كتفيه قائلًا: «ولِمَ لا؟ ستكون معركة مجيدة جديرة بالموت من أجلها».

ربت جور هاجوس على كتفي وهو يهتف: «إلى الموت، أيها الكابتن!».

هز هوفان دو سلسلته وزأر.

تقترب السفينتان من بعضهما بسرعة. توقفنا الآن عن إطلاق النار خشية الإضرار بالسفينة التي نأمل في استخدامها في الهروب. ولسبب ما، توقف طاقم سفينة الدورية عن إطلاق النار علينا- لم أعرف السبب

أبدًا. نحن نتحرك على مسار سوف يجلبنا مباشرة أسفل السفينة الأخرى. وقد عقدت العزم على الصعود عليها مهما كانت التكلفة. يمكنني رؤية بكرة عارضة الصعود تتدلى أسفلها، على استعداد لخفضها من موقعها إلى سطح السفينة ما إن تمسك خطافاتها بالفريسة. مما لا شك فيه أنهم يزودونها بالرجال، وما إن نصل أسفلها، ستمتد مخالبها الصلبة نحونا وتمسك بنا، بينما يحتشد طاقمها للصعود على سطح.

ناديت هوفان دو، وتسلل إلى جانبي، فهمست بتعليماتي في أذنه. وعندما انتهيت، أومأ برأسه بهدير منخفض. ألقيت بخطاف عتادي، الذي يثبتني على سطح السفينة. وتحركت أنا والقرد إلى مقدمة سفينتنا بعد أن همست بتعليمات موجزة إلى جور هاجوس ودار تاروس. أصبحنا الآن تقريبًا أسفل زورق العدو مباشرة؛ حيث يمكنني رؤية الخطافات مستعدة للهبوط. وصلت مقدمة سفينتنا أسفل مؤخرة السفينة الأخرى، وجاءت اللحظة التي كنت في انتظارها. لا يستطيع الآن من على سطح زورق الدورية رؤيتي أو رؤية هوفان دو. تأرجحت بكرة صعود السفينة الأخرى فوق رؤوسنا بخمسة عشر قدمًا. همست بكلمة آمرة إلى القرد، ثم جثمنا ووثبنا في الوقت نفسه نحو البكرة. قد تبدو فرصة مجنونة -فالفشل يعني موتًا محققًا- لكني شعرت أن نجاح كلينا في الوصول إلى سطح زورق الدورية خلال انشغال طاقمها بالكلَّابات، يستحق المخاطرة.

أكد لي جور هاجوس أن عدد الرجال على متن زورق الدورية لن يزيد على ستة؛ وأن أحدهم سيكون منشغلًا بلوحات التحكم، بينما

ينشغل الآخرون بالخطافات. وهذا أنسب وقت للصعود إلى سطح سفينة العدو.

قمت أنا وهوفان دو بقفزتنا وابتسم لنا الحظ، على الرغم من أن القرد الضخم بالكاد ما وصل إلى البكرة بيد واحدة ممدودة، بينما حملتني عضلاتي كرجل من كوكب الأرض إلى هدفي بسهولة. شققنا معًا طريقنا سريعًا نحو مقدمة قارب الدورية. ودون تردد، وكما رتبنا مسبقًا، تسلق القرد بسرعة أعلى جانب الميمنة، وأنا إلى الميسرة. وفي حين كنت أكثر رشاقة في القفز، فقد تفوق عليَّ هوفان دو في التسلق، بحيث وصل إلى درابزين السفينة وأخذ يتسلقه بينما كانت عيناي لا تزالان دون مستوى سطح السفينة. وربما كان ذلك، بالمصادفة، من حسن حظي، فقد اخترت الوصول إلى سطح السفينة مباشرة عند موقع لا أعرفه وينشغل فيه أحد أفراد طاقمها بالخطافات.

كان يمكن أن يقتلني بضربة واحدة قبل أن أتمكن من وضع قدمي على سطح السفينة لو لم تنجذب عيناه إلى مكان آخر، نتيجة صياح أحد زملائه الذي كان أول من رأى وجه هوفان دو الوحشي يرتفع فوق الحافة العليا للسفينة.

وجد القرد نفسه مباشرة أيضًا أمام محارب تونولي، أطلق صيحة من المفاجأة وسعى إلى امتشاق سيفه، لكن القرد، رغم ضخامة حجمة، كان أسرع منه. وما إن اعتلت عيناي الدرابزين، رأيت القرد الجبار الشبيه بالإنسان يمسك بالرجل تعيس الحظ من عتاده، ويجره إلى الجانب ليلقيه نحو الدمار في أسفل.

صعد كلانا على الفور أعلى الدرابزين وأصبحنا مباشرة على سطح السفينة، بينما ترك بقية أفراد طاقمها مواقعهم وركضوا نحونا لمواجهتنا. أعتقد أن مشهد الوحش الهمجي الضخم أضعف من معنوياتهم لأنهم ترددوا، كأنما يرغب كل منهم أن يمنح زميله شرف الاشتباك الأول معنا. لكنهم اقتربوا، وإن كان ببطء. أسعدتني رؤية هذا التردد، لأنه يتفق تمامًا وخطتي التي تعتمد إلى حد كبير على النجاح الذي يمهد الطريق أمام جهود جور هاجوس ودار تاروس للوصول إلى سطح زورق الدورية عندما يقترب ارتفاع طائرتنا أسفلها بما يكفي ليتيح لهما الوصول إلى بكرة الصعود.

حذرني جور هاجوس بضرورة قتل الرجل المسؤول عن لوحات التحكم في أسرع وقت ممكن، حيث سيتمثل أول تصرف له في إلحاق الضرر بتلك اللوحات بمجرد ظهور أي احتمال لنجاح محاولة استيلائنا على سفينته. ولذا، ركضت نحوه بسرعة وقتلته قبل أن يتمكن من امتشاق سيفه. يوجد الآن أربعة ضدنا. انتظرنا تقدمهم بحيث يمكننا كسب الوقت حتى يصل رفاقنا إلى سطح السفينة.

تقدم الأربعة ببطء إلى مسافة تتيح الهجوم، وعندئذ رأيت رأس جور هاجوس تظهر أعلى درابزين مؤخرة السفينة، وسرعان ما أعقبتها رأس دار تاروس.

صحت نحو الأعداء: «انظروا! واستسلموا»، مشيرًا إلى الوراء.

استدار أحدهم لينظر، وما رآه جعله يطلق تعبير بالمفاجأة على

شفتيه، هتف: «إنه جور هاجوس!»، ثم قال لي: «ماذا ستفعل لنا إذا استسلمنا؟».

أجبت: «لسنا في خصومة معكم. ولا نريد سوى مغادرة تونول والمضي في طريقنا بسلام- ولن نلحق بكم أي ضرر».

التفت إلى زملائه بينما أوقف رفاقي الثلاثة، بإشارة مني، تقدمهم وانتظروا. تحادث المحاربون الأربعة لبضع دقائق بنبرة منخفضة، ثم خاطبني المحارب الذي تحدث معي أولًا.

قال: «هناك عدد قليل من التونوليين الذين لن تسعدهم خدمة جور هاجوس، الذي اعتقدنا أنه مات منذ وقت طويل، لكن تسليمكم سفينتنا يعني موتنا المؤكد عندما نُبلغ هزيمتنا إلى مقر قيادتنا. ومن ناحية أخرى، إذا واصلنا دفاعنا، سوف يُقتل معظمنا هنا على سطح هذه الطائرة. فإذا أمكنك أن تؤكد لنا أن خططكم لا تستهدف سلامة تونول، يمكنني تقديم اقتراح سيتيح لكم مجالًا للهروب ويضمن سلامتنا جميعًا».

أجبت: «نحن لا نريد سوى مغادرة تونول. وما نسعى إلى تحقيقه لن يسبب أي ضرر لتونول».

- جيد! وأين تريدون الذهاب؟

- هذا لن أخبركم به.

قال مؤكِدًا: «يمكنكم الوثوق بنا إذا قبلتم اقتراحي، وهو أن ننقلكم إلى وجهتكم، وبعد ذلك يمكننا العودة إلى تونول وتقديم تقرير أننا اشتبكنا معكم في معركة طويلة، أسفرت عن مقتل اثنين منا، ثم تمكنتم

من المراوغة في الظلام وهربتم».

«هل يمكننا الوثوق بهؤلاء الرجال؟»، سألت جور هاجوس، الذي أكد لي ذلك. وبالتالي اتفقنا، وأسرعنا في اتجاه فوندال على متن إحدى طائرات فوبيس كان.

❊ ❊ ❊

الفصل (١١)

فوندال

أنزلنا الطاقم التونولي في الليلة التالية داخل جدار مدينة فوندال، وفقًا لتوجيهات دار تاروس وهو من مواطني المدينة، وكان محاربًا ضمن حرس الجيدارة، وقبلها خدم في سلاح البحرية الصغير في فوندال. وظهرت معرفته بكافة تفاصيل دفاعات فوندال ونُظُم دورياتها، حيث هبطت دون انكشاف وارتفعت السفينة التونولية وغادرت دون أن يلحظها أحد.

كان موقع هبوطنا هو سطح مبنى منخفض مبني على سور المدينة من الداخل. قادنا دار تاروس من هذا السطح دار أسفل مدرج مائل إلى الشارع، الذي كان عندئذ مهجورًا تمامًا. كان الشارع ضيقًا ومظلمًا، تحيط بإحدى جانبيه أبنية منخفضة ملاصقة لسور المدينة وتحيط بالجانب الآخر أبنية مرتفعة بعضها بلا نوافذ ولا يظهر ضوء من أي مبنى منها. أوضح دار تاروس أنه اختار هذه البقعة لدخولنا؛ لأنها كانت منطقة

مخازن، وبينما تضج بالزحام والعمل خلال النهار، لا تحتاج في الليل إلى وجود حتى حارس واحد بسبب انعدام السرقة تمامًا في برسوم.

قادنا أخيرًا، بطرق ملتوية وغير مباشرة، إلى قسم الدرجة الثانية من المتاجر وأماكن الطعام والفنادق مثل التي يتردد عليها الجنود العاديون والحرفيون والعبيد، حيث الاهتمام الوحيد الذي قد ينجذب نحونا يكون بسبب الفضول الذي يثيره هوفان دو. ونظرًا لأننا لم نأكل منذ مغادرة قصر مو تل، انصب أول اهتمامنا على الطعام. كان مو تل قد أمد جور هاجوس بالمال، حتى يتسنى لنا إشباع رغباتنا. كانت محطتنا الأولى في متجر صغير، حيث ابتاع جور هاجوس أربعة أو خمسة أرطال من لحم الثوات لهوفان دو، ثم توجهنا إلى مكان لتناول الطعام يعرفه دار تاروس. لم يقبل صاحب المكان في البداية إدخال هوفان دو، لكنه وافق أخيرًا بعد جدال كثير بإدخال القرد إلى غرفة داخلية، حيث اضطر هوفان دو البقاء مع لحم الثوات خلال جلوسنا على طاولة في الغرفة الخارجية.

ويجدر بي القول إن هوفان دو لعب دوره جيدًا، ولم يحدث ولو لمرة واحدة أن تصور مالك المكان، أو أي من رعاته، أو الحشد الكبير الذي تجمع للاستماع إلى الجدال، أن جسم هذا الوحش الهمجي يحركه مخ بشري. وفي الحقيقة لم يمارس النصف القردي من مخ دوفان دو أي تأثير كبير عليه إلا عندما يتناول الطعام أو يقاتل؛ لكن هناك شك قليل أن هذا النصف كان يصبغ دائمًا كل أفكاره وتصرفاته إلى حد ما، بما يفسر صمته المعتاد وسرعة إثارة غضبه، فضلًا حقيقة عدم ابتسامه أبدًا، ولا

تقديره بأي درجة لفكاهة الموقف. على أنه أكد لي أن النصف البشري من مخه لا يُقدّر فحسب الأحداث والمصادفات الخفيفة لمغامرتنا والقصص والفكاهات التي يرويها القاتل جور هاجوس، بل يستمتع بها كثيرًا أيضًا؛ لكن تشريحه القردي لم يُطور عضلات تتيح التعبير البدني عن ردود أفعاله العقلية.

تناولنا طعامنا بشهية رغم فظاظتها وبساطة سعرها، لكننا كنا سعداء بالإفلات من تطفل وفضول وثرثرة صاحب المكان، الذي أرهقنا بالعديد من الأسئلة بشأن ماضينا وخططنا المستقبلية التي كان على دار تاروس، مُتحدِثنا هنا، أن يجيب عليها بسرعة بردود مفبركة ويجب أن تتسم دائمًا بالاتساق. وأخيرًا انتهينا وخرجنا إلى الشارع ثانية، حيث قادنا دار تاروس إلى دار إقامة عام يعرفه. اقتربنا من مبنى كبير رائع الجمال، تتدفق داخله وخارجه تيارات متواصلة من الناس. وعندما وصلنا أمامه، طلب منا دار تاروس الانتظار في الخارج وسوف يدخل أولًا. وعندما سألته عن السبب، أخبرني أن هذا كان معبد طور، الإله الذي يعبده شعب فوندال.

وقال: «لقد غبت لفترة طويلة، ولم تتح لي فرصة لتقديم الاحترام لإلهي. لن أدعكم تنتظرون طويلًا. جور هاجوس، هل يمكنك أن تقرضني بضع قطع من الذهب؟».

أخرج التونولي في صمت بضع قطع من المال من أحد جيوب حقيبته وأعطاها إلى دار تاروس، لكني رأيت كيف أخفى التونولي بصعوبة تعبيرًا عن الازدراء نظرًا لأن التونوليين غير مؤمنين.

سألت دار تاروس عن إمكانية أن أرافقه إلى المعبد، وقد أسعده ذلك كثيرًا. دخلنا مع تيار من البشر يقترب من المدخل الواسع. أعطاني دار تاروس قطعتين ذهبيتين من القطع التي اقترضها من جور هاجوس، وقال لي أن أسير خلفه مباشرة وأقوم بعمل كل ما أرى أنه يقوم به. اصطف الكهنة داخل المدخل الرئيس مباشرة، وعلى طوله تمامًا عبر فواصل تتيح مساحة لمرور المتعبدين، وكانت أجسادهم مغطاة كاملة، بما في ذلك رؤوسهم ووجوههم، بعباءة من قماش أبيض. ويوجد أمام كل منهم منضدة كبيرة فوقها درج للنقود. وعندما اقتربنا من أحدهم أعطيناه قطعة من الذهب، قام على الفور بتبديلها إلى العديد من القطع الأقل قيمة، أسقطنا إحداها في صندوق بجانبه. وعندئذ قام بتمرير يديه عدة مرات فوق رؤوسنا، ثم غمس أحد أصابعه في وعاء من المياه القذرة وفركه عند نهايات أنوفنا وهو يتمتم ببعض الكلمات التي لم أستطع فهمها، ثم تحول إلى الشخص التالي في الصف بعد انصرافنا وذهابنا إلى داخل المعبد الهائل. لم أشهد أبدًا من قبل مثل هذا العرض الرائع للثروة والإسراف في الزخارف التي وقعت عليها عينايَ هنا، في أول معابد طور التي من حسن حظي أن شاهدتها.

كانت الأرضية الضخمة متواصلة، لا يقطعها عمود واحد، انتظمت فوقها على فترات متساوية صور منحوتة تستقر على ركائز رائعة. كانت بعض هذه الصور لرجال وبعضها لنساء، تتمتع كثيرات منهن بالجمال؛ وهناك صور آخرون لوحوش ومخلوقات غريبة قبيحة، وكثير منها يتسم بالبشاعة. كان أول اقترابنا لشخصية امرأة جميلة، ويرقد على الأرض

حول قاعدة تمثالها عدد من الرجال والنساء يضربون رؤوسهم سبع مرات، ثم ينهضون ويلقون قطعة من النقود في وعاء مخصص لهذا الغرض، ثم يتحركون إلى شخصية أخرى. كان التمثال التالي الذي زرناه أنا ودار تاروس لرجل له جسد سيليان[٢٦]، وانتظمت حول قاعدة التمثال سلسلة من قضبان خشبية أفقية في دوائر متحدة المركز. بلغ ارتفاع القضبان حوالي خمسة أقدام من الأرض، ويتدلى منها عدد من الرجال والنساء من رُكبهم، وتكرر ذلك على نحو رتيب بدا لي كأنه ثرثرة فارغة.

انتقلت مع دار تاروس إلى القضبان مثل الآخرين، وتمتمنا بعبارات لا معنى لها لمدة دقيقة أو دقيقتين، ثم توجهنا إلى أسفل وألقينا عملة في الصندوق، وواصلنا. سألت دار تاروس عن الكلمات التي كررناها ومعناها، لكنه قال إنه لا يعرف. وسألته إذا كان هناك من يعرف، لكنه بدا مصدومًا، وقال إنه سؤال تدنيسي ويكشف عن نقص ملحوظ في الإيمان. عند التمثال التالي الذي زرناه، كان الناس جميعًا يزحفون على أيديهم وركبهم بجنون في دائرة حول قاعدة التمثال. زحفوا سبع مرات حوله، ثم نهضوا ووضعوا بعض النقود في صحن، وبعدها واصلوا طريقهم. وعند تمثال آخر، كان الناس يتدحرجون وهو يقولون: «طور هو طور؛ طور هو طور؛ طور هو طور»، ثم بعد ما ينتهون يقومون بإسقاط المال في وعاء ذهبي.

---

(٢٦) السيليان هو مخلوق مائي في بحر كوراس المفقود، وينشط ليلًا. *http://barsoom.wikia.com/wiki/Silian* – المترجمة.

«ما هذا الإله؟»، همست قائلًا لدار تاروس بعد أن غادرنا هذا التمثال الأخير، الذي لم يكن لديه رأس، وكانت عيناه وأنفه وفمه في وسط بطنه.

أجاب دار تاروس بمهابة: «لا يوجد سوى إله واحد، هو طور!».

سألته: «هل كان ذلك هو طور؟».

همس دار داروس: «اصمت يا رجل. سوف يمزقونك إذا سمعوا مثل هذه الهرطقة».

صحت: «أوه، معذرة. لا أقصد أي إساءة. أرى الآن أنه مجرد أحد أصنامك».

وضع دار تاروس يده على فمي: «شششش»، وحذرني بضرورة الصمت. «نحن لا نعبد الأصنام- هناك إله واحد هو طور!».

«حسنًا، ما هذه؟»، سألته بإصرار، مع دفع اليد التي احتضنت العديد من الصور التي اجتمع حولها آلاف المتعبدين.

قال مؤكِّدًا: «يجب ألا نسأل. يكفي إيماننا بأن جميع أعمال طور عادلة وصالحة. تعال! لنواصل حتى ننتهي ونلحق برفاقنا».

قادني إلى تمثال بشع، يمتد فمه حول رأسه؛ ولديه ذيل طويل وثديا امرأة. التف حوله عدد كبير من الناس، يقف كل منهم على رأسه وهم يرددون، مرارًا وتكرارًا: «طور هو طور؛ طور هو طور؛ طور هو طور». قمنا بذلك لمدة دقيقة أو دقيقتين، كانت وقتًا عصيبًا حاولت خلاله الحفاظ على توازني، ثم نهضنا وألقينا عُملة نقدية في الصندوق الذي

يقع عند قاعدة التمثال وتحركنا.

وقال دار تاروس: «يمكننا الذهاب الآن. كان أدائي جيدًا عند مرأى طور».

قلت: «لاحظت أن الناس تكرر أمام هذا التمثال نفس العبارة التي كرروها أمام التمثال السابق- طور هو طور».

صاح دار تاروس: «أوه، كلا، بل على العكس. لقد قالوا الآن عكس ما قالوه تمامًا أمام التمثال الآخر. عند التمثال الآخر قالوا: طور هو طور، بينما عند هذا التمثال قالوا العكس تمامًا: طور هو طور. أترى؟ قالوها معكوسة، وهذا فارق كبير جدًّا».

قلت بإصرار: «بدا الأمر نفس الشيء بالنسبة لي».

قال بحزن: «هذا لأنك تفتقر إلى الإيمان». خرجنا من المعبد، بعد إيداع باقي أموالنا في صندوق ضخم يقف حوله العديدون بعملاتهم المعدنية.

وجدنا جور هاجوس وهوفان دو ينتظرانا بفارغ الصبر، وسط حشد غفير وغريب من العديد من المحاربين الذين يرتدون معادن ظاظا، جيدارة فوندال. كانوا يريدون مشاهدة أداء هوفان دو، لكن دار تاروس أخبرهم أنه مُتعب ومزاجه سيئ.

وقال: «غدًا، بعد أن يستريح، سوف أخرج به إلى الشارع لتسليتكم».

تمكنّا بصعوبة من تخليص أنفسنا وذهبنا إلى شارع أكثر هدوءًا، واتخذنا طريقًا ملتويًا للوصول إلى مكان الإقامة، حيث وضعنا هوفان

دو في غرفة صغيرة، بينما قادنا العبيد -أنا وجور هاجوس ودار تاروس- إلى شقة كبيرة للنوم، وتولوا ترتيب الحرير والفراء لنا على منصة منخفضة تطوق الغرفة، لا يقطعها سوى مدخل واحد للغرفة. ينام هنا بالفعل عدد كبير من الرجال، بينما يتولى عبدان مسلحان القيام بدوريات في الممر لحراسة الضيوف من القتلة.

لا يزال الوقت مبكرًا، وهناك بعض النزلاء الآخرين يتحدثون بهمس. ولذا سعيت الحديث مع دار تاروس حول معتقده الديني، الذي شعرت بفضول لمعرفته.

قلت له: «تفتنني دائمًا أسرار الأديان، دار تاروس».

صاح: «آآه، لكن هذا هو جمال دين طور، لا توجد به أسرار. إنه دين بسيط وطبيعي وعلمي، ويمكن إثبات كل كلمة وعمل فيه من خلال صفحات طورجان: الكتاب العظيم الذي كتبه طور بنفسه.

«يقع بيت طور فوق الشمس. وهناك، منذ مائة ألف سنة، صنع برسوم وألقاها إلى الفضاء. ثم قام لتسلية نفسه بخلق الإنسان بأشكال مختلفة وفي جنسين؛ وصمم الحيوانات في وقت لاحق لتكون طعامًا للإنسان ولبعضها البعض، وتسبب في ظهور النباتات والمياه ليتمكن الإنسان والحيوان من العيش. ألا ترى كم هو بسيط وعلمي؟».

على أن جور هاجوس هو من أخبرني بالكثير عن دين طور، في يوم لم يكن فيه دار تاروس بجوارنا. قال إن الفونداليين يعتقدون أن طور لا يزال يخلق كل شيء حي بيديه. وإنهم ينكرون بشدة أن الإنسان يمتلك القدرة على إعادة إنتاج نوعه، ويعلمون الصغار أن الاعتقاد في ذلك

يُعد جديرًا بالازدراء؛ ويخفون دائمًا أي دليل على الإنجاب الطبيعي، مُصرين حتى الموت على أن تلك الأشياء التي شهدوها بأعينهم وعاشت أجسامهم خبرتها في إنجاب صغارهم لم تحدث أبدًا.

لقد علّمهم طورجان أن برسوم مسطحة، وهم يغلقون عقولهم أمام أي دليل على العكس. إنهم لا يرحلون بعيدًا عن فوندال خشية السقوط من حافة العالم؛ ولا يسمحون بتطوير الملاحة الجوية؛ لأنه في حالة إبحار إحدى سفنهم حول برسوم، سوف يُعد ذلك تدنيسًا شريرًا في أعين طور الذي أنشأ برسوم مسطحة.

كما أنه لن يسمحوا باستخدام التلسكوبات؛ لأن طور علّمهم أنه لا توجد عوالم أخرى غير برسوم، وبالتالي من الهرطقة إلقاء نظرة على أي عالم آخر؛ ولن يسمحوا في المدارس بتدريس أي تاريخ لبرسوم سابق على خلق طور لبرسوم، على الرغم من وجود تاريخ مكتوب جيد التوثيق لبرسوم يعود إلى أكثر من مائة ألف سنة؛ ولن يسمحوا بأي جغرافيا لبرسوم إلا ما يظهر في طورجان، ولا أي أبحاث علمية على أساس بيولوجي. طورجان هو كتابهم الوحيد – وما لا يوجد في طورجان يُعد كذبة شريرة.

إن الكثير من هذا كله، وقدرًا أكبر كثيرًا جمعته من مصدر أو آخر أثناء إقامتي قصيرة في فوندال، قادني إلى الاعتقاد أن شعب فوندال هو الأقل تقدمًا في الحضارة من أي أمة حمراء أخرى على برسوم. وباعتماد أفضل ما لديهم من تفكير على مثل تلك المسائل الدينية كليًّا، أصبحوا جهلاء ومتعصبين وضيقي الأفق، ويذهبون نحو أقصى طرف بمثل ما

يذهب التونوليون إلى الطرف الأقصى الآخر.

على أي حال، أنا لم آتِ إلى فوندال للبحث في ثقافتها وإنما لسرقة ملِكتها، وهي الفكرة التي احتلت موقع الصدارة في ذهني عندما استيقظت على يوم جديد – يومي الأول في فوندال. بعد وجبة الصباح، اتخذنا طريقنا في اتجاه القصر للاستطلاع، وقادنا دار تاروس إلى موقع يتيح له بسهولة توجيهنا إلى باقي الطريق؛ لأنه لم يجرؤ على مرافقتنا إلى المناطق المجاورة مباشرة للأراضي الملكية خوفًا من أن يتعرف عليه أحد، فالجسد الذي لديه الآن كان ينتمي إلى أحد النبلاء المشهورين.

رتبنا أن يتصرف جور هاجوس باعتباره المتحدث، وأنا بوصفي حارس القرد. وبعد أن اتفقنا على ذلك، ودعنا دار تاروس وواصلنا طريقنا. سار ثلاثتنا على طول شارع واسع وجميل يؤدي مباشرة إلى بوابات القصر. أخذنا نخطط ونتمرن على أدوارنا، التي كنا نأمل أن تنجح في فتح البوابات أمامنا وتفوز لنا بالمثول أمام الجيدارة.

وخلال سيرنا وعلامات الاطمئنان بادية علينا، أُتيحت لي فرصة كبيرة للاستمتاع بالمشاهد الجديدة الجميلة لشارع القصور الغني هذا. أشرقت الشمس فوق المروج القرمزية المفعمة بالحيوية، وازدهرت أشجار البيماليا[٢٧] الرائعة وغيرها من الأشجار والشجيرات نادرة الجمال في برسوم، بينما ظللت نماذج مثالية من أشجار السورابوس البديعة الطريق نفسه. كانت شُقق النوم في المباني قد انخفضت جميعها

(٢٧) شجرة بيماليا: شجرة مزهرة كبيرة في حدائق المريخ /*https://barsoom.fandom.com/wiki/Pimalia* – المترجمة.

إلى مستواها خلال النهار، ورأيت في مئات الشرفات الحرير والفراء معلقًا للتهوية في الشمس. وينشط العبيد في أداء واجباتهم حول المباني، بينما تجلس النساء والأطفال في العديد من الشرفات يتناولون وجبة الصباح. أثار مرورنا، أو على الأقل مشهد هوفان دو، حماسًا كبيرًا بين الأطفال، كما أثار اهتمام الكبار. كان يمكن أن يوقفنا البعض مطالبين رؤية عرض للتسلية، لكننا تحركنا بثبات نحو القصر؛ فليس لدينا أي عمل أو شاغل آخر داخل أسوار فوندال.

تجمع حول بوابات القصر الحشد المعتاد من المتسكعين الفضوليين؛ فالطبيعة البشرية لا تختلف في أي مكان، سواء كانت البشرة سوداء أو بيضاء أو حمراء أو صفراء أو بنية، سواء على كوكب الأرض أو على سطح المريخ. كان الحشد أمام قصر ظاظا يتكون إلى حد كبير من الزوار القادمين من جزر ذلك الجزء من منطقة المستنقعات التونولية الكبرى التي تدين بالولاء لملكة فوندال، ويتوقون مثلهم مثل جميع أبناء القرى إلى لمحة من الأسرة الملكية؛ ومع ذلك كان يمكن أن يثير سلوك القرد الغريب اهتمامهم، ولذا كان في انتظارنا جمهور جاهز. تسبب الخوف الطبيعي من الوحش الضخم في تراجعهم قليلًا عند اقترابنا، مما فتح أمامنا طريقًا واضحًا للبوابات نفسها، وهناك وقفنا بينما تشكل الحشود خلفنا نصف دائرة حولنا. تحدث جور هاجوس بصوت عالٍ يمكن أن يسمعه المحاربون وضباطهم ما بعد البوابات، فهؤلاء هم من نريد حقًّا الترفيه عنهم وليست الحشود التي لم نعرها أدنى اهتمام.

صاح جور هاجوس: «يا رجال ونساء فوندال، انظروا إلينا، بانتانان

فقيران، خاطرنا بحياتنا وأمسكنا ودربنا واحدًا أكثر الأنواع وحشية وشراسة وأيضًا أكثرها ذكاء من القرود البيضاء الكبيرة في برسوم، التي لم يأسرها أحد من قبل، وأحضرناه بتكلفة باهظة إلى فوندال لإبلاغكم والترفيه عنكم. أيها الأصدقاء، يتمتع هذا القرد الرائع بذكاء بشري؛ إنه يفهم كل كلمة أقولها لكم. ومع انتباهكم الكريم، يا أصدقائي، سأحاول إثبات الذكاء الاستثنائي الذي يتمتع به هذا الوحش الشرس، آكل لحوم البشر- الذكاء الذي استمتع به ملوك برسوم وقادتها، وأدهش عقول أفضل علمائها».

أعتقد أن جور هاجوس أتقن دوره جيدًا كفنان في الدعاية والإعلان. وجدتني أبتسم وأنا أستمع، هنا على المريخ، إلى العبارات المألوفة التي علمتها له من واقع خبرتي على كوكب الأرض عن أسواق المقاطعات ومتنزهات الترفيه، حيث بدت مُضحكة وهي تتساقط من شفاه قاتل تونول؛ لكنها أثارت بالتأكيد اهتمام مستمعيه وأعجبتهم أيضًا؛ لأنهم رفعوا أعناقهم ووقفوا صامتين تبدو الجدية في أعينهم انتظارًا لأداء هوفان دو. بل والأفضل أن عددًا من أفراد حرس الجيدارة ركزوا سمعهم وتحركوا نحو البوابات؛ وكان من بينهم ضابط.

وجّه جور هاجوس أوامره إلى هوفان دو بالاستلقاء، ثم النهوض، ثم الوقوف على قدم واحدة، والإشارة إلى عدد الأصابع التي يرفعها جور هاجوس بأن يهدر مرة واحدة لكل إصبع، وبالتالي إرضاء الجمهور بأنه يستطيع العد؛ لكن هذه الحركات البسيطة كانت مجرد تحضير لتحقيق أداء أكثر لفتًا للانتباه، نأمل أن يفوز بإعجاب جمهور

أمام الجيدارة. اقترض جور هاجوس مجموعة تضم عتادًا وأسلحة من رجل في الحشد، وجعل هوفان دو يرتديها ويبارزه، وعندئذ سمعنا صيحات الدهشة والإعجاب.

اقترب محاربو ظاظا والضابط من البوابات وكانوا من بين المتفرجين المهتمين، وهذا بالتحديد ما كنا نأمل فيه. وأصبح جور هاجوس الآن مستعدًّا للعرض النهائي المذهل لذكاء هوفان دو.

صاح: «ما شاهدتموه ليس شيئًا؛ فهذا الوحش الرائع يستطيع حتى القراءة والكتابة. لقد أمسكنا به في مدينة مهجورة بالقرب من بتارث، ويمكنه القراءة والكتابة بلغة ذلك البلد. هل يوجد بينكم، مصادفة، من أتى من ذلك البلد البعيد؟».

قال عبد: «أنا من بتارث».

«جيد!»، قال جور هاجوس، «اكتب بعض التعليمات البسيطة وأعطها إلى القرد. وأنا سوف أدير ظهري بحيث تتأكدون أنني لا أستطيع مساعدته بأي حال».

أخرج العبد لوحًا من جيب حقيبته وكتب عبارة موجزة، وأعطى ما كتبه إلى هوفان دو. قرأ القرد الرسالة وتحرك بسرعة دون تردد نحو البوابة وسلمها إلى الضابط الذي يقف على الجانب الآخر، وكانت البوابة مصنوعة من معدن مشغول بتصميمات عجيبة لا تعوق رؤية أو مرور المواد الصغيرة. أخذ الضابط الرسالة وفحصها.

وسـأل العبد الذي كتبها: «ماذا تقول؟».

أجاب العبد: «تقول خُذ هذه الرسالة إلى الضابط الذي يقف داخل البوابات مباشرة».

تعالت صيحات الدهشة من الحشد كله، واضطر هوفان دو تكرار أدائه عدة مرات برسائل مختلفة توجهه إلى القيام بأشياء مختلفة، في حين اهتم الضابط كثيرًا بالمتابعة.

وأخيرًا قال: «هذا عرض رائع، وسوف تستمتع الجيدارة كثيرًا بأداء هذا الوحش. انتظر هنا، إذَنْ، حتى أرسل لها، فربما ترغب في رؤيتكم».

لا يوجد شيء يناسبنا أكثر من ذلك، وانتظرنا بصبر عودة الرسول. واستمر هوفان دو، خلال انتظارنا، في إثارة حيرة جمهوره ببراهين جديدة على ذكائه الشديد.

* * *

الفصل (١٢)

ظاظا

عاد الضابط، وتأرجحت البوابات مفتوحة، وأمرونا بدخول فناء قصر ظاظا، جيدارة فوندال. تطورت الأحداث بعد ذلك بسرعة كبيرة – أحداث مفاجئة وغير متوقعة تمامًا. قادونا عبر متاهة معقدة من الممرات والغرف حتى إنني تشككت أنهم يضللوننا عن عمد. واقتنعت بأن ذلك سواء كان مقصودًا أو غير مقصود، يجعلني غير قادر على اقتفاء أثر خطواتي للعودة إلى الفناء الخارجي بمثل ما لا يمكنني الطيران دون أجنحة. كانت خططنا تقضي بأننا –في حالة السماح لنا بدخول القصر– يجب أن نلاحظ بعناية كل ما قد يكون ضروريًّا لهروبنا السريع. لكني عندما سألت جور هاجوس همسًا عما إذا كان يمكنه أن يجد طريق الخروج مرة أخرى، أكد لي أنه يعاني من نفس حيرتي.

لم يكن القصر لافتًا للنظر أو مثيرًا للاهتمام بأي شكل؛ فقد كانت أعمال فناني فوندال ثقيلة وكئيبة ولا تدل على عبقرية عالية الخيال. كانت معظم المشاهد المرسومة ذات طبيعة دينية تصور مقاطع من

طورجان، الكتاب المقدس في فوندال، وأغلبها عبارة عن سلسلة من التكرار الرتيب. هناك مشهد ورد مرارًا وتكرارًا، يصور طورجان يخلق المريخ على شكل مسطح مستدير ويلقيه في الفضاء، وهو المشهد الذي ذكرني دائمًا بالطاهي البارع الذي يلقي بفطيرة داخل نافذة طفل.

وكانت توجد أيضًا لوحات عديدة لما يبدو أنها مشاهد البلاط التي تحدد أعضاء السلالة الملكية في فوندال في أنشطة مختلفة؛ وكان ملحوظًا أن أحدث اللوحات، التي ظهرت فيها ظاظا، قد أُعيد طلاء الشخصية الرئيسة بحيث كانت تواجهني من وقت لآخر صورًا، ليست جيدة، لوجه وهيئة فالا ديا الجميلة في الأغطية الملكية للجيدارة. ليس من السهل أن أصف تأثير هذه الصور عليَّ. فقد ذكرتني أنني أقترب من -وسوف أقف الآن وجهًا لوجه مع -شخصية المرأة التي كرست لها حبي وحياتي، وإن كنت سأواجه في هذه الشخصية نفسها من أكرهها وسوف أدمرها.

أوقفونا أخيرًا أمام باب كبير. ومن عدد المحاربين والنبلاء المحتشدين أمامه، كنت على يقين أنهم سرعان ما سينادون علينا للمثول أمام الجيدارة. وقد بدا لي خلال انتظارنا أن المجتمعين حولنا ينظرون إلينا بنظرة عداء أكثر من الفضول. وعندما تأرجح الباب مفتوحًا، رافقونا إلى داخل القاعة، باستثناء عدد قليل من المحاربين. كانت الغرفة متوسطة الحجم، وتجلس ظاظا في جانبها الأبعد، خلف طاولة ضخمة. تجمع حولها عدد من النبلاء مدججين بالأسلحة. وعندما نظرت إليهم، أخذت أتساءل عما إذا كان من بينهم الشخص الذي سُرِق

من أجله جسم دار تاروس؛ فقد تعهدنا له بأن نحاول استرداد جسمه إذا كانت الظروف مواتية.

نظرت نحونا ظاظا ببرود ونحن نقف أمامها، ثم قالت آمرة: «دعونا نرى أداء الوحش»، ثم صاحت فجأة: «ماذا يعني السماح للغرباء بالمثول أمامي وهم يحملون السلاح؟»، واستدارت نحو محارب وسيم شاب يقف بالقرب منها وقالت: «ساج أور، تأكد من نزع أسلحتهم!».

ساج أور! هذا هو الاسم. وقف أمامي النبيل الذي عانى دار تاروس بسببه من فقدان حريته وجسمه وحبيبته. تعرّف جور هاجوس أيضًا على الاسم وكذا هوفان دو؛ يمكن قول ذلك من نظرة أعينهم للرجل وهو يتحرك. طُلب منا أن نعطي أسلحتنا إلى اثنين من المحاربين تقدما لأخذها. تردد جور هاجوس. واعترف أنني لم أكن أعرف ماذا أفعل.

بدا العداء على الجميع، وربما لم يكن، دون شك، إلا انعكاسًا لموقفهم تجاه جميع الغرباء. لسنا سوى ثلاثة ضد غرفة مزدحمة، إذا رفضنا تسليم أسلحتنا؛ وإذا اختاروا اللجوء إلى القوة أو إذا أخرجونا من القصر بسبب ذلك، سوف نخسر الفرصة التي منحها لنا الرب للفوز بالوجود داخل قصر ظاظا وفي حضرتها، حيث يجب أن نفوز في النهاية قبل أن نقاتلهم. هل يمكن أن تُتاح لنا مثل هذه الفرصة ثانية؟ تشككت في ذلك وشعرت من الأفضل أن نخاطر الآن، بدلًا من أن يثير رفضنا طلبهم شكوكهم بالتأكيد. وبالتالي نزعت أسلحتي بهدوء وسلمتهم للمحارب الذي ينتظر استلامهم؛ وتبعني جور هاجوس، على الرغم من أنني أتصور أنه قام بذلك مُكرهًا.

أشارت ظاظا ثانية أنها تريد رؤية أداء هوفان دو. بدأ جور هاجوس في توجيه القرد للقيام بألعابه الغريبة، وكانت ظاظا تشاهد بفتور؛ كما لم يثر أي شيء قام به القرد أدنى اهتمام بين كل المتجمعين حول الجيدارة. ومع مرور الوقت، تملكتني هواجس الخوف من أن كل شيء لم يكن صحيحًا. وبدا لي أن هناك جهدًا يُبذل لاحتجازنا لغرض ما، لكسب الوقت. لم أفهم، مثلًا، لماذا طلبت ظاظا أن نكرر عدة مرات أقل أداءات القرد إثارة للاهتمام. وطوال الوقت، كانت ظاظا تجلس وفي يدها خنجر طويل رفيع، ورأيتها تنظر نحوي بقدر ما تنظر نحو هوفان دو، بينما وجدت من الصعوبة أن أبعد عيني عن ذلك الوجه المثالي، حتى وإن كنت أعرف أنه ليس سوى قناع مسروق يكمن خلفه العقل القاسي لطاغية وقاتلة.

وأخيرًا قُوطع الأداء. فُتح الباب ودخل نبيل، توجه مباشرة إلى الجيدارة وخاطبها بإيجاز وبصوت منخفض. رأيتها تسأله عدة أسئلة، وأن ردوده كدرتها، ثم بإشارة مقتضبة أمرته بالانصراف واستدارت نحونا.

صاحت: «يكفي هذا!». استقرت عيناها على عيني، ووجهت خنجرها الرفيع نحوي. وسألت: «أين الشخص الآخر؟».

سألت مستفسرًا: «أي شخص آخر؟».

«أنتم ثلاثة، إلى جانب القرد. لا أعرف شيئًا عن القرد، لا أعرف أين أو كيف حصلت عليه؛ لكني أعرف كل شيء عنك يا فاد فارو، وعن جور هاجوس، قاتل تونول، وعن دار تاروس. أين دار تاروس؟». كان

صوتها منخفضًا وموسيقيًّا وجميلًا -فهو صوت فالا ديا- لكني أعرف أن وراءه شخصية ظاظا الرهيبة، وأعرف أيضًا أنه من الصعب خداعها، فمن المؤكد أنها حصلت على تلك المعلومات من راس ثافاس مباشرة. كان من الغباء ألا أتوقع أن راس ثافاس سوف يُخمن على الفور غرض مهمتي ويُحذر ظاظا. وقد أدركت في الحال أن من الأسوأ إنكار هويتنا، بل يجب أن أفسر أسباب وجودنا - إن كان بإمكاني.

كررت سؤالها: «أين دار تاروس؟».

أجبت: «كيف لي أن أعرف؟ دار تاروس لديه أسباب للاعتقاد بأنه غير آمن في فوندال، وأتصور أنه لا يرغب في أن يعرف أي شخص مكانه، بما فيهم أنا. لقد ساعدني على الهرب من جزيرة ثافاس، وكانت حريته هي مكافأته. ولم يختر مرافقتي في مغامراتي».

هدأت ظاظا للحظات لأنني لم أنكر هويتي- من الواضح أنها افترضت أنني سأفعل ذلك.

وقالت: «تعترف إذَنْ أنك فاد فارو، مساعد راس ثافاس؟».

- وهل سعيت في أي وقت إلى إنكار ذلك؟

- لقد تنكرت كرجل أحمر من برسوم.

- وكيف يمكنني الترحال غير ذلك، حيث يعادي كل رجل أي شخص غريب؟

«ولماذا ترتحل في برسوم؟»، وضاقت عيناها وهي تنتظر ردي.

قلت لها: «مثلما أخبرك راس ثافاس دون شك، أنا من عالم آخر

وأود أن أرى الكثير عن هذا العالم. أهذا شيء غريب؟».

«وهل بحضورك إلى فوندال، وسعيك دخول قصري والمثول أمامي، ومعك قاتل تونول سيئ السمعة، تشاهد بذلك الكثير في برسوم؟».

أوضحت: «جور هاجوس لن يعود إلى تونول، ولذا عليه أن يسعى إلى عمل لسيفه في بلاط آخر غير بلاط فوبيس كان - ربما في فوندال، أو إن لم يكن هنا عليه أن يواصل إلى مكان آخر. وآمل أن يقرر مرافقتي؛ لأنني شخص غريب في برسوم وغير معتاد على عادات وأساليب شعب هذا الكوكب. قد أعاني كثيرًا دون مرشد ومُعلم».

صاحت: «سوف تعاني. لقد رأيت كل ما هو مُقدر لك أن تراه في برسوم - وقد وصلت إلى نهاية مغامرتك. أتعتقد أن بإمكانك خداعي، هه؟ ربما لا تعرف أنني سمعت عن افتتانك بفالا ديا، أو أنني لا أعرف تمامًا هدف زيارتك إلى فوندال». أبعدت عينيها ووجهتها إلى نبلائها ومحاربيها، صائحة: «خذوهم إلى الحُفر! وسوف نختار في ما بعد طريقة موتهم».

أحاطت بنا على الفور عشرات من السيوف. ما من مفر لي أو لجور هاجوس، لكني فكرت في فرصة لفرار هوفان دو. كانت إمكانية حدوث هذه الحالة الطارئة واردًا في ذهني منذ البداية، وكنت أبحث دومًا عن سبيل لفرار أحدنا؛ ولذا لم تغب النوافذ المفتوحة على يمين الجيدارة عن ملاحظتي، ولا الأشجار الكبيرة التي تنمو في الفناء أسفلنا. وكان هوفان دو يقف بجواري خلال حديث ظاظا.

قلت له هامسًا: «اذهب! النوافذ مفتوحة. اذهب وقل لدار تاروس ما حدث لنا»، ثم تراجعت إلى الوراء بعيدًا عنه وسحبت معي جور هاجوس كأنما سنحاول مقاومة الاعتقال. وبينما صرفت الانتباه بهذه الطريقه عن هوفان دو، انطلق هو نحو نافذة مفتوحة. ولم يكن قد اتخذ سوى خطوات قليلة عندما حاول محارب إيقافه؛ على أن المخ الشرس لشبيه الإنسان هيمن على المخلوق الضخم. قفز برشاقة القط، وهو يُطلق هديرًا بشعًا، على الفوندالي سيئ الحظ، وأرجحه عاليًا بيديه العملاقتين، ثم استخدام جسمه كآلة درس الزرع لإسقاط زملائه إلى اليمين واليسار وهو يقطع مسافة هائلة نحو أقرب نافذة مفتوحة.

ساد الهرج على الفور في الشقة. تركز اهتمام الجميع على القرد الضخم، وحتى من كانوا يواجهوننا تحولوا إلى مهاجمة هوفان دو. وفي خضم الفوضى رأيت ظاظا تخطو نحو ستائر ثقيلة تقع خلف مقعدها مباشرة، وفتحتها لتختفي وراءها.

«تعال!»، همست إلى جور هاجوس. وبغرض مشاهدة الصراع بين القرد والمحاربين، تقدمت إلى الأمام مع المقاتلين، ونحو اليسار دائمًا، إلى المقعد الذي غادرته ظاظا لتوها. كان هوفان دو يبلي بلاءً حسنًا. تخلص من ضحيته الأولى وأمسك بالآخرين واحدًا تلو الآخر عندما أصبحوا على مدى ذراعيه الطويلتين ويديه القويتين، وكان يمسك أحيانًا بأربعة في وقت واحد وهو يقف على أهبة الاستعداد على قدمين من أقدامه التي تشبه اليدين ويقاتل بالأربعة الأخرى. انتصبت كتلة شعره الخشن فوق جمجمته واستشاطت أعينُهُ الوحشية غضبًا، وهو

يقف أعلى من خصومه، يحارب من أجل حياته – إنه أكثر المخلوقات الوحشية في برسوم إثارة للرعب. ربما تكمن ميزته الكبرى في أن كل رجل في هذه الغرفة كان يخشاه ويخاف من مواجهته، وهي الميزة التي ساعدتني أيضًا في وضع خطة سريعة لأنها أبقت جميع الأعين متجهة نحو هوفان دو بحيث تمكنت مع جور هاجوس من شق طريقنا إلى الجزء الخلفي من مقعد ظاظا. وأعتقد أن هوفان دو قد استشعر مقصدي، لأنه قام بأفضل شيء مناسب لجذب كل الأعين نحوه وبعيدًا عنا، كما ألمح لي أن النصف البشري من مخه لا يزال يقظًا وساهرًا على مصلحتنا.

من المؤكد أن الفونداليين كانوا ينظرون إليه قبل الآن كعينة استثنائية لقرد ضخم جيد التدريب، لكنه الآن، وفجأة، أصابهم بشلل يمتزج بالرهبة؛ إذ اتخذ زئيره وهديره شكل الكلمات وتحدث بلسان البشر. إنه يقف الآن بالقرب من النافذة. وكان العديد من النبلاء يندفعون بشجاعة إلى الأمام، ومن بينهم ساج أور. تقدم نحوه هوفان دو وأمسك به، وجرده من أسلحته، وصاح: «أنا ذاهب، لكني سأعود وأمزق قلب ظاظا إذا لحق بأصدقائي أي ضرر. قل لها ذلك، نقلًا عن قرد بتارث الأكبر».

وقف المحاربون والنبلاء للحظات ثابتين من الرعب. واتجهت جميع الأعين نحو هوفان دو، حيث يقف ممسكًا بشخص ساج أور الذي يكافح في قبضة هوفان دو الجبارة. وأصبحت أنا وجور هاجوس منسيين. استدار هوفان دو وقفز إلى عتبة النافذة ومنها قفز بخفة إلى

فروع أقرب شجرة؛ وكان معه ساج أور، أو الشخص المُفضل لدى ظاظا، الجيدارة. وفي اللحظة نفسها، سحبت جور هاجوس معي وراء الستائر في الجزء الخلفي من مقعد ظاظا، حيث وجدنا أنفسنا عند مدخل ضيق لممر مظلم.

دون معرفة بطريق المرور وإلى أين يقودنا، واصلنا طريقنا على عمى، تدفعنا ضرورة اكتشاف مكان للاختباء أو سبيل للهروب من القصر قبل أن يلحق بنا المطاردون الذين نعرف أنهم سيشرعون على الفور في البحث عنا. زادت سرعة حركتنا عندما اعتادت أعيننا على الظلام، الذي بددته جزئيًّا إضاءة باهتة، ووصلنا الآن إلى مدرج حلزوني ضيق يهبط إلى حفرة مظلمة أدنى مستوى الممر، كما تبدو هي الأخرى في ظلام دامس كالمستوى أعلاها.

سألت جور هاجوس: «أي طريق نتخذ؟».

أجاب: «سوف يتوقعون هبوطنا، حيث يقع في هذا الاتجاه أقرب شارع للهرب».

«لنصعد إذَنْ».

صاح: «جيد! كل ما نسعى إليه الآن هو مكان للاختباء حتى هبوط الليل، لأننا لا نستطيع الهرب نهارًا».

ما إن بدأنا نصعد، حتى سمعنا أول صوت للمطاردة – قعقعة المعدات والتجهيزات في الممر الأسفل. وحتى مع هذا الدافع الذي يحثنا، اضطررنا إلى التحرك بحذر شديد؛ لأننا لا نعرف ما يوجد أمامنا.

وجدنا مدخلًا في المستوى التالي. كان الباب مغلقًا وموصدًا، لكننا لم نجد أي ممر ولا أي مكان للاختباء، فواصلنا الصعود. كان المستوى الثاني مطابقًا للمستوى الأدنى، على أننا وجدنا في المستوى الثالث ممرًّا واحدًا يتجه مباشرة نحو ظلام دامس وعلى يميننا باب موارب. اقتربت أصوات المطاردة الآن، وزادت ضرورة الاختباء مع زيادة حجم أصواتهم إلى أن طغت على أي اعتبار. وهو ليس بالأمر الغريب مع معرفة غرض مغامرتي، بما يعني ضرورة إحباطها وتدمير أي شعاع أمل لإيقاظ فالا ديا لتجد نفسها في جسمها الأصلي.

لم تكن لدينا حتى لحظة للتفكير. كان الظلام يكتنف الممر أمامنا – قد يكون مجرد زقاق مظلم. كان الباب مغلقًا على نحو موارب.

دفعت الباب برفق نحو الداخل. استقبلتنا رائحة بخور ثقيلة، وشاهدنا من خلال الفتحة الصغيرة جزءًا من غرفة كبيرة ذات زخارف مبهرجة. يقف أمامنا مباشرة، ويعوق رؤيتنا كلية للغرفة بأكملها تقريبًا، تمثال ضخم لشخصية تشبه رجل يجلس القرفصاء. سمعنا أصوات خلفنا. كان مطاردونا يصعدون الفعل الدرج الحلزوني، وسيصلون إلينا خلال بضع ثوانٍ. فحصت الباب، واكتشف أن قِفله زنبركي. نظرت ثانية إلى الغرفة، ولم ألمح أي شخص في نطاق رؤيتي، ثم أشرت إلى جور هاجوس لمتابعتي داخل الغرفة وأغلقت الباب خلفنا. لقد أحرقنا جسورنا؛ فمع إغلاق الباب، تثبت القفل بنقرة حادة معدنية.

«ما هذا؟»، سأل صوت قادم، على ما يبدو، من أقصى نهاية الغرفة.

نظر نحوي جور هاجوس وهز كتفيه في استسلام (من المؤكد أنه كان يفكر فيما أفكر فيه – من أننا اخترنا الطريق الخطأ من بين طريقين)، لكنه ابتسم ولم يظهر أي عتاب في عينيه.

جاءت إجابة من صوت ثانٍ: «بدا الأمر من اتجاه طور العظيم».

قال المتحدث الأول: «ربما شخص ما عند الباب».

التصقت أنا وجور هاجوس بظهر التمثال بحيث نؤجل إلى أطول فترة ممكنة اكتشافنا الحتمي من المتحدثين إذا قررا استبيان أصل الضوضاء التي أثارت شكوكهم. كنت مستندًا إلى الحجر المصقول في ظهر التمثال، وطوقته بيدي. تحت أصابعي كانت القطع المنحوتة من عتاده المزخرف– كانت أغطية التمثال الحجرية تضم نتوءات بارزة، هي جواهر باهظة الثمن، وهناك تطعيم ذهبي رائع للثقوب؛ لكن عينايَ لم تنشغلا بهذه الأمور الآن. استطعنا سماع حديث الشخصين خلال اقترابهما. ربما كنت عصبيًّا، لا أعرف. أنا متأكد أنني لم أتراجع أبدًا من أي مواجهة، سواء استدعاها الواجب أو المنفعة؛ لكن كليهما الآن يتطلب تجنب الصراع والبقاء دون انكشاف. على أي حال، يبدو أن أصابعي كانت تتحرك بعصبية فوق جواهر عتاد التمثال عندما أصبحت أدركت على نحو غامض، وربما لا شعوريًّا، أن إحدى الجواهر كانت مفكوكة عن إطارها. لا أذكر أن هذا ترك أي انطباع على عقلي الواعي، لكني أعرف أنه أثار اهتمام أصابعي المتجولة التي من المؤكد أنها توقفت مؤقتًا لتعبث بالحجر المفكوك.

زاد اقتراب الأصوات الآن، وربما نواجه أصحابها خلال بضع ثوانٍ. توترت عضلاتي من اللقاء المرتقب، ودون وعي ضغطت بشدة على الإطار المفكوك. وهنا تراجع بصمت جزء من ظهر التمثال، وكشف لنا عن داخله المُضاء إضاءة خافتة. لسنا في حاجة إلى دعوة أخرى؛ ففي الوقت نفسه خطونا عبر العتبة، واستدرت في نفس الحركة تقريبًا وأغلقت اللوح بلطف خلفنا. أعتقد لم يصدر أي صوت على الإطلاق من هذا الإجراء؛ وبعدها بقينا في صمت مطلق، بلا حراك – بالكاد ما نتنفس. سرعان ما اعتادت أعيننا الجزء الداخلي المظلم الذي اكتشفنا أنه مُضاء خلال الفتحات الصغيرة العديدة في هيكل التمثال، الذي كان مجوفًا بالكامل، ومن خلال هذه الفتحات تناهى إلى أسماعنا بوضوح كل صوت خارجي.

سمعنا الأصوات في الخارج مباشرة بمجرد أن أغلقنا الفتحة، وفي الوقت نفسه سمعنا دق على الباب الذي دخلنا منه إلى الشقة عبر الممر. سأل صوت داخل الغرفة: «من الذي يسعى إلى دخول معبد ظاظا؟».

علا صوت من الخارج: «أنا تيس آي، دوّار حرس الجيدارة، نحن نبحث عن الشخصين الذين جاءا لاغتيال ظاظا».

– هل جاءا من هذا الطريق؟

– أتعتقد أيها الكاهن أنني كنت لأبحث عنهما هنا إن لم يتخذا هذا الطريق؟

– منذ متى؟

أجاب الدوّار: «منذ حوالي عشرين تال».

أكد الكاهن قائلًا: «إذَنْ ليسا هنا، لأننا هنا منذ زود كامل[٢٨] ولم يدخل أي شخص آخر إلى المعبد خلال ذلك الوقت. ابحث بسرعة في شقق ظاظا في أعلى، والسطح والحظائر؛ لأنك إذا تابعتهما أعلى المدرج الحلزوني لن تجد أي مكان آخر يمكنهما الفرار منه».

صاح المحارب: «راقب المعبد بعناية إذَنْ حتى أعود»، ثم سمعنا صوت صعوده مع رجاله أعلى المدرج الحلزوني. سمعنا الآن الكهنة يتحدثون خلال مرورهم ببطء بجوار التمثال.

سأل أحدهم: «ما سبب الضوضاء التي جذبت اهتمامنا في البداية؟».

اقترح الآخر: «ربما حاول الهاربان فتح الباب».

– يبدو ذلك، لكنهما لم يدخلا، وإلا كنا رأيناهما عند خروجهما من خلف طور العظيم؛ لأننا كنا في مواجهته حينذاك ولم تبتعد أعيننا أبدًا عن أقصى نهاية هذا المعبد.

– إذَنْ هما، على الأقل، ليسا داخل المعبد.

– وأينما كان وجودهما في أي مكان آخر، هذا ليس من شأننا.

– لا، إلا إذا وصلوا إلى شقة ظاظا، إن لم يمرا من خلال المعبد.

– ربما وصلا إليها.

---

(٢٨) التال يعادل حوالي الثانية الواحدة، والزود يقرب من ساعتين ونصف ساعة – بزمن كوكب الأرض.

- وهما من القتلة!

- أسوأ الأمور قد تصيب فوندال.

- صمتًا! للآلهة آذان.

- آذان من الحجر.

- لكن آذان ظاظا ليست من الحجر، وتسمع الكثير من الأشياء التي من المفترض ألا تسمعها.

- هذه البانث العجوز!

- إنها الجيدارة والكاهنة العليا.

«نعم، ولكن ...» - تجاوزت الأصوات في أقصى نهاية المعبد نطاق سمعنا، إلا أنها أخبرتنا بالكثير: أن جماعة الكهنة تخشى ظاظا وتكرهها، وأن الكهنة أنفسهم لا يبجلون إلههم كما اتضح من قول أحدهم إن الآلهة بآذان من حجر. كما أخبرتنا بأشياء أخرى، أشياء مهمة، عندما كان الكهنة يتحدثون مع دوّار حرس الجيدارة.

شعرت الآن، أنا وجور هاجوس، أننا وقعنا مصادفة في أفضل مكان مثالي للاختباء؛ ذلك أن الأوصياء على المعبد يمكنهم أن يقسموا أننا لم نكن، ولا يمكن أن نكون، حيث كنا. لقد أبعدوا مطاردينا بالفعل عن مسارنا.

تتوفر لدينا الآن، للمرة الأولى، فرصة لفحص مكان اختبائنا. كان الجزء الداخلي من التمثال مجوفًا، بإمكاننا أن نرى على ارتفاع كبير فوقنا، ربما لأربعين قدمًا، الضوء يسطع في الخارج ظاهرًا من الفم

والأذنين والأنف، وأسفلهم مباشرة يمكن تمييز منصة دائرية حول الرقبة من الداخل. يوجد سُلم بدرجات مسطحة يؤدي إلى أعلى، من القاعدة إلى المنصة. يغطى تراب كثيف الأرضية التي نقف عليها، ويطرح أقصى وضعنا إجراء فحص متأنٍّ لهذا التراب، أسفر على الفور عن إعجابي بالأدلة التي كشفها؛ فقد أشارت إلى أننا أول من دخل التمثال منذ فترة طويلة، ربما لسنوات؛ لأن الغلاف الناعم غير المحسوس تقريبًا للتراب الذي غطى الأرضية لم تنطبع عليه أي آثار. وخلال فحصي وقعت عينايَ على شيء مُلقًى متجمعًا بالقرب من قاعدة السلم، ورأيت مع زيادة اقترابي أنه هيكل عظمي بشري؛ في حين كشف فحص أدق أن الجمجمة قد سُحِقت وأن أحد الذراعين والعديد من الأضلاع مكسورة. ويوجد حوله -مُغطى بالتراب- أجمل أغطية مزخرفة رأيتها. موقعها في أسفل السلم، فضلًا عن أن سحق الجمجمة وكسور العظام، ظهرت كأدلة قاطعة على طريقة وفاته - لقد سقط الرجل برأسه من المنصة الدائرية التي ترتفع فوقنا بأربعين قدمًا، وحمل معه إلى الأبد، دون شك، سر المدخل إلى الأجزاء الداخلية لطور العظيم.

اقترحت ذلك على جور هاجوس، الذي فحص أغطية الرجل الميت واتفق معي على أن هذه كانت طريقة وفاته.

«لقد كان أحد كهنة طور الكبار»، همس جور هاجوس، «وربما من أفراد البيت الملكي- من المحتمل جيداك. لقد مضى على موته وقت طويل».

قلت: «سوف أصعد، واختبر السُّلَّم. إذا كان آمنًا، اتبعني. أعتقد أننا

سنتمكن من رؤية المعبد من الداخل عن طريق فم طور».

قال جور هاجوس ناصحًا: «تحرك بحذر، السلم قديم جدًّا».

ذهبت بحذر، اختبر كل درجة قبل أن أثق في تحملها لوزني، لكني وجدت خشب السورابوس القديم الذي بُنيت منه صلبًا وقويًّا كالفولاذ. ستظل وفاة الكاهن لغزًا دائمًا؛ ذلك أن السُّلَّم أو المنصة الدائرية كانت لتتحمل وزن مائة رجل أحمر.

من المنصة تمكنت من الرؤية عن طريق فم طور. كانت الغرفة أسفلي كبيرة، تصطف على جانبيها أصنام أخرى وإن كانت أصغر. كانوا أكثر بشاعة حتى من تلك التي رأيتها في المعبد بالمدينة، وكان ثراء أغطيتها المزخرفة يتجاوز مفهوم رجل قادم من كوكب الأرض- فقد كانت جواهر برسوم تتلألأ بأشعة غير معروفة لنا، وبجمال مذهل يُعمي الأبصار من روعته ويفوق أي وصف. يقع مذبح مصنوع من البالثون[٢٩]، وهو حجر نادر وجميل، بلون حمرة الدم، يمكن العثور عليه بلون أبيض نقي في أروع تصميمات الطبيعة خيالًا؛ يعززه كليًّا الطلاء المصقول العجيب الذي يتخذه من صنع يد حرفي ماهر.

لحق بي جور هاجوس، وتفحصنا معًا الجزء الداخلي من المعبد. تصطف نوافذ طويلة على الجانبين، تتيح دخول فيض من الضوء. وفي النهاية القصوى، مقابل طور العظيم، يوجد بابان يتسمان بالضخامة،

(٢٩) بالثون: حجر نادر وجميل، ولا يوجد إلا على المريخ. لونه أحمر دموي ومغطى بعلامات بيضاء. يحظ بتقدير كبير عند المريخيين؛ وبسبب قابليته للتصنيع، يُستخدم عادة في بناء التماثيل وصُنع المجوهرات – *https://barsoom.fandom.com/wiki/Palthon* – المترجمة.

ويغلقان المدخل الرئيس للغرفة، وهناك وقف الكاهنان اللذين سمعنا حديثهما. وغير ذلك، كان المعبد مهجورًا. يحترق البخور فوق مذابح صغيرة أمام كل صنم من الأصنام الصغيرة، لكننا لم نستطع رؤية ما إذا كان هناك أي بخور يحترق أمام طور العظيم.

وبعد أن أشبعنا فضولنا تجاه المعبد، عاد اهتمامنا إلى مواصلة فحص ما بداخل رأس طور الضخمة. وكانت المكافأة هي اكتشاف سُلم آخر يؤدي إلى أعلى، عند الجدار الخلفي لمنصة أكبر وأخرى أصغر، يبدو واضحًا أنه يقود إلى العينين. لم أستغرق وقتًا طويلًا في الفحص، وهنا وجدت مقعدًا مريحًا أمام لوحة تحكم من شأنها تشغيل العينين، بحيث يمكن تحريكهما من جانب إلى آخر، أو لأعلى أو أسفل، وفقًا لرغبة القائم على التشغيل؛ وهنا أيضًا وجدت أنبوب تخاطب يصل إلى الفم. يتطلب الأمر أيضًا فحص هذا الأنبوب. عُدت إلى المنصة السفلية، حيث اكتشفت جهازًا تحت لسان الصنم. ويتصل هذا الجهاز، الذي يشبه مكبر الصوت، بأنبوب التخاطب من أعلى. لم أستطع منع ابتسامة، متأملًا تلك التماثيل كشهود صامتين على غدر البشر، وفكرت في الشيء المكسور الملقى أسفل السُّلَّم. وبإمكاني أن أقسم أن طور صامت منذ سنوات طوال.

عُدت أنا وجور هاجوس إلى المنصة الأعلى، ثم اكتشفت شيئًا آخر- أعين طور عبارة عن منظار حقيقي؛ وعند تدوريهم يمكننا رؤية أي جزء من المعبد، وما رأيناه من خلال الأعين كان مُضخمًا. لا شيء يمكن أن يفلت من أعين طور. والآن، عندما بدأ الكهنة يتحدثون ثانية،

اكتشفنا أن لا شيء يمكن أن يفلت من أذني طور؛ فقد استمعنا بوضوح إلى أدنى صوت في المعبد. من المؤكد أن طور العظيم كان إضافة ذات قيمة للكهنة في تلك الأيام التي كان فيها هذا الهيكل العظمي المكسور الملقى أمامنا يمتلئ بالدماء والحياة!

* * *

الفصل (١٣)

طور العظيم

سار اليوم بضجر بالنسبة لجور هاجوس، ولي. شاهدنا كهنة مختلفين يأتون في أزواج على فترات حتى يتمكن سابقوهم من الراحة. واستمعنا إلى ثرثراتهم الفارغة، ومعظمها من القيل والقال عن فضائح البلاط. تحدثوا عنا أحيانًا، وعرفنا أن هوفان دو هرب مع ساج أور ولم يتمكنوا من تحديد مكانهما بعد، كما لم يتمكنوا من تحديد مكان دار تاروس. كان البلاط بأسره في حيرة من معجزة اختفائنا. يبحث عنا ثلاثة آلاف شخص، فضلًا عن نزلاء القصر والأفراد الملحقين به. قاموا بتفتيش كل جزء من القصر وأراضيه عددًا من المرات. كما فتشوا الحُفر بدقة شديدة أكثر من أي تفتيش يمكن أن يتذكره أقدم خادم، ويبدو أن عمليات التفتيش الشاملة أسفرت عن اكتشاف أشياء غريبة –أشياء لم تكن حتى ظاظا تحلم بها، وتهامس الكهنة أن بيتًا واحدًا على الأقل، كبيرًا وقويًّا، قد يسقط بسبب ما اكتشفه دوّار حرس الجيداك في منطقة نائية من الحُفر.

بعد غروب الشمس في الأفق وحلول الظلام، أُنير المعبد من الداخل بضوء أبيض خافت، إضاءة بارعة وإن كانت دون وهج الإضاءة الاصطناعية على كوكب الأرض. جاء المزيد من الكهنة، والعديد من الفتيات الشابات الكاهنات. قاموا بأداء طقوس أمام الأصنام، مع ترديد كلام غريب لا معنى له. امتلأت الغرفة تدريجيًّا بالمتعبدين، نبلاء بلاط الجيدارة مع نسائهم وخدمهم، مُشكلين صفين على جانبي المعبد أمام الأصنام الصغيرة، تاركين ممرًّا واسعًا من المدخل الكبير عند أقدام طور العظيم، ومتواجهين جميعًا في حالة انتظار في اتجاه هذا الممر. ماذا ينتظرون؟ تحولت أعينهم بتوقع نحو أبواب المدخل الكبير المغلقة، وشعرت أنا وجور هاجوس أن أعيننا مثبتة أيضًا في هذا الاتجاه، مسحورة بما هم على وشك فتحه وانكشاف مشهد مذهل.

تنفتح الأبواب الآن ببطء، وكل ما رأيناه هو لفة كبيرة من السجاد ملقاة على جانبها عبر الفتحة. وقف عشرون عبدًا، عرايا إلا من عتاد جلدي قليل، وراء اللفة الضخمة. وعندما انفتحت الأبواب على مصراعيها، قاموا بدحرجة السجادة إلى الداخل أسفل المذبح أمام تمثال طور العظيم، مع تغطية الممر الواسع من المدخل إلى الصنم بسجادة سميكة ناعمة ذات ألوان ذهبية وبيضاء وزرقاء. كانت أجمل شيء في المعبد، حيث كان كل شيء صاخبًا وصارخًا ومبهرجًا أو قبيحًا أو بشعًا. ثم أُغلِقت الأبواب وانتظرنا مرة أخرى؛ ولكن ليس لفترة طويلة. صدر صوت الأبواق من الخارج، وزاد الصوت مع اقترابهم من المدخل. وانفتحت الأبواب ثانية. وقف عند المدخل نبلاء مزدوجو

الرتبة يرتدون أغطية فاخرة. دخلوا المعبد ببطء وخلفهم مركَبة رائعة يجرها اثنان من حيوانات البانث، أسدان برسوميان شرسان، وفي المقود عبيد على الجانبين. وفوق العربة يوجد مهاد تتكئ عليه ظاظا في راحة. وبمجرد دخولها المعبد، بدأ الناس يرددون بصوت رخيم أنشودة رتيبة في مدحها. كان محارب أحمر مكبلًا بالسلاسل إلى العربة ويسير على قدميه، وخلفه موكب يتألف من خمسين شابًّا وعدد مماثل من الشابات.

لمس جور هاجوس ذراعي، وهمس قائلًا: «السجين، هل تعرفت عليه؟».

صحت: «دار تاروس!».

إنه دار تاروس –لقد اكتشفوا مكان اختبائه وقبضوا عليه، ولكن ماذا عن هوفان دو؟ هل أمسكوا به أيضًا؟ في هذه الحالة، من المؤكد أنهم لم يتمكنوا من ذلك إلا بعد قتله، لأنهم لا يمكن أن يسعوا أبدًا إلى الإمساك بهذا الوحش الشرس، ولا يقدرون حتى على ذلك. بحثت عن ساج أور، لكني لم أتمكن من رؤيته في أي مكان داخل المعبد، مما أعطاني الأمل في أن هوفان دو ربما لا يزال مطلق السراح.

وقفت العربة أمام المذبح وترجلت ظاظا. فتحوا القفل الذي يربط سلسلة دار تاروس بالعربة، واقتاد الخدم حيواني البانث بعيدًا إلى أحد جوانب المعبد وراء الأصنام الصغيرة. ثم اقتادوا دار تاروس إلى المذبح وألقوه عليه. صعدت ظاظا عدة درجات عند قاعدة المذبح، واقتربت من جانب دار داروس، ونظرت من خلال القيود الممتدة أعلاه إلى طور العظيم التي يرتفع شاهقًا. يا لجمالها! ويا لثراء أغطيتها! آآه، فالا ديا!

إن جسدك الجميل هذا، الذي يُهان باستخدامه في أغراض قاسية لعقل شرير، يجب أن يعود إليك الآن!

استقرت عينا ظاظا الآن على وجه طور العظيم. صاحت: «يا طور، أبو برسوم، ها نحن نضع أمامك القربان، وأنت ترى كل شيء، وتعرف كل شيء، وأقوى من كل شيء، فلا تنظر إلينا عابسًا في صمت. لمائة عام لم تتكرم بالتحدث بصوت عالٍ إلى عبيدك المخلصين؛ لم تفتح شفتيك للتحدث إلى شعبك منذ أن أخذت هورا سان، الكاهن الأكبر، في تلك الليلة الغامضة التي مضت منذ زمن طويل. تحدث، يا طوران العظيم! أعطنا علامة، قبل أن نغرز هذا الخنجر في قلب قرباننا، أن أعمالنا تحظى برضا أعينك. أخبرنا أين ذهب الشخصان اللذان وصلا إلى هنا اليوم لاغتيال كاهنتك الكبرى؛ واكشف لنا عن مصير ساج أور. تحدث، يا طور العظيم، قبل أن أسدد ضربتي، ثم رفعت نصلها الرفيع أعلى قلب دار تاروس ونظرت إلى أعين طور أعلاها مباشرة.

وعلى حين غرة، جاءني إلهام هائل. سعت يدي إلى ذراع التحكم في أعين طور، وأدرتها إلى أن أكملت دائرة كاملة حول الغرفة واستقرت ثانية عند ظاظا. كان التأثير سحريًّا. لم أشهد أبدًا من قبل غرفة كاملة مملوءة بالناس الذين أصابهم الذهول والرعب مثل هذه. عندما عادت الأعين إلى ظاظا، بدت وكأنها تحولت إلى حجر واصطبغت بشرتها النحاسية بمسحة أرجوانية شاحبة. ظل خنجرها مُثبتًا بجمود أعلى قلب دار تاروس. لم يشهدوا منذ مائة عام أعين طور العظيم تتحرك. ثم وضعت أنبوب التخاطب أمام شفتي، وانطلق صوت طور مدويًا

عبر الغرفة. ارتفع لهاث، كأنما من حلق واحد كبير، من أرضية المعبد المزدحم؛ وركع الناس على ركبهم، ودفنوا وجوههم في أيديهم.

قلت صائحًا: «الحُكم لي! لا تضرِبوا خشية أن تندموا! القربان مُقدم إلى طور!».

ثم بقيت صامتًا، في محاولة لوضع خطة تتيح أفضل السبل للاستفادة من الميزة التي اكتسبتها. ارتفعت الرؤوس المنحنية بخوف، واحدة تلو الأخرى، وتوجهت الأعين المرعوبة نحو وجه طور. منحتهم تشويقًا آخر بالسماح لأعين الإله أن تتجول ببطء عبر وجوههم المقلوبة. وخلال قيامي بذلك، جاءني إلهام آخر، نقلته إلى جور هاجوس في همس منخفض. أكاد أسمع ضحكته المكتومة وهو يهبط السُّلَّم لتنفيذ خطتي الجديدة. لجأت ثانية إلى أنبوب التخاطب.

واصلت هادرًا: «القربان مُقدم إلى طور. وسيضرب طور بيده. اطفئوا الأنوار، ولا يتحرك أحد تحت وطأة الموت الفوري إلى أن يتحدث طور. عليكم أن تسجدوا وتدفنوا أعينكم في راحة أياديكم؛ فسوف يُصاب بالعمى كل من ينظر عندما تسير روح طور بين شعبه».

سجدوا مرة أخرى، وأسرع أحد الكهنة بإطفاء الأنوار، وغاص المعبد في ظلام دامس. وبينما كان جور هاجوس منشغلًا بالدور المنوط به في هذا الأداء، حاولت التغطية على أي ضجيج قد يصنعه، بأن واصلت ما اعتبروه حديث الإله.

«تسأل ظاظا، الكاهنة العليا، عما حدث للشخصين اللذين تعتقد أنهما جاءا لاغتيالها. أنا، طور، قد أخذتهما لنفسي. طور هو المنتقم!

وأخذت ساج أور أيضًا. لقد أتيت على هيئة قرد ضخم وأخذت ساج أور، ولم يعرفني أحد؛ على الرغم من أن أي أحمق كان يمكنه التخمين، فمن الذي سمع قردًا ضخمًا يتحدث بلسان البشر ما لم تحركه روح طور؟».

أعتقد أنهم اقتنعوا بكلامي، فهو نوع من المنطق يتناسب مع تصوراتهم الدينية، أو كان يمكن أن يقنعهم إن لم يكونوا مقتنعين بالفعل. تساءلت عما قد يدور في ذهن الكاهن المتشكك الذي قال من قبل إن للآلهة آذانًا حجرية.

أسمع الآن ضوضاء أسفل السُّلَّم، وخلال لحظة كان شخص يصعد على الجزء الدائري.

سمعت صوت جور هاجوس: «كل شيء جيد. ومعي دار تاروس».

قلت آمرًا عبر أنبوب التخاطب: «أضيئوا المعبد! انهضوا وانظروا إلى مذبحكم».

لمعت الأضواء، ونهض الناس على أقدامهم يرتجفون. مالت جميع الأعين نحو المذبح، وما شاهدوه كان يكفي لسحقهم من الرعب. صرخت بعض النساء وفقدت الوعي. تعجبت من أنهم جميعًا لم يأخذوا هذا الإله بأي قدر كبير من الجدية، أما الآن فقد سحرتهم تمامًا مشاهدة إثبات دامغ على قواه الخارقة؛ حيث شاهدوا قبل عدة لحظات قربانًا حيًّا ينتظر سكين الكاهنة العليا، والآن لا يرون سوى جمجمة بشرية يغطيها التراب. ربما بدا الأمر معجزة لأي شخص؛ لأن جور هاجوس ركض مسرعًا من قاعدة التمثال ومعه جمجمة الكاهن

الميت ثم عاد ومعه دار تاروس. كنت قلقًا إلى حد ما بشأن موقف دار تاروس، الذي لم يكن إلمامه بالخدعة أكثر من إلمام الفونداليين، لكن جور هاجوس همس في أذنه عبارة «من أجل فالا ديا»، وقد فهم المعنى وأسرع معه.

والآن أعلنت ما يلي: «طور العظيم غاضب من قومه. فقد أبعدوه من قلوبهم، منذ فترة طويلة، رغم إعلانهم الواضح بعبادته. طور العظيم غاضب من ظاظا. ومن خلال ظاظا فقط، يمكن إنقاذ شعب فوندال من الدمار، ذلك أن طور العظيم غاضب. غادروا إذن المعبد والقصر، دون بقاء أي شخص هنا غير ظاظا، كاهنة طور العليا. اتركوها هنا بمفردها بجوار المذبح. سوف يتحدث طور معها وحدها».

أمكنني رؤية ظاظا ترتجف في ذعر.

سألتها: «هل الجيدارة ظاظا، كاهنة الإله طور العظيم العليا، تخشى من الاجتماع مع سيدها؟». ارتعد فك المرأة بحيث لم تقدر على الرد. قلت صارخًا: «الطاعة! أو تموت ظاظا وشعبها كله!».

استداروا كالبهائم يفرون نحو المدخل؛ وترنحت خلفهم ظاظا، التي كانت ركبتاها تهتز بحيث بالكاد ما تقف منتصبة. رآها أحد النبلاء ودفعها بخشونة إلى الخلف، لكنها صرخت وركضت وراءه عندما تركها. ثم سحبها آخرون إلى المذبح وألقوها بخشونة أسفله، وهددها أحدهم بسيفه. لكني أعلنت بصوت عالٍ أنني لا أريد إصابة الجيدارة بأي ضرر، وإلا سيقع عليهم جميعًا غضب طور. تركوها راقدة هناك، وفي حالة من الضعف والخوف تحول دون نهوضها. أصبح المعبد

خاليًا خلال لحظات، ولكن ليس قبل أن أصيح فيهم بإخلاء القصر بكامله لمدة رُبع زود؛ فقد كانت خطتي تتطلب ميدان عمل خاليًا دون عوائق ودون مراقبة.

وما إن ابتعد آخرهم عن نظرنا، حتى نزل ثلاثتنا من رأس طور ووقفنا على أرضية المعبد خلف التمثال. أسرعت نحو المذبح، على الجانب الآخر، حيث سقطت ظاظا في إغماءة. كانت ترقد هناك، حملتها بين ذراعي وركض بسرعة إلى الباب الذي يقع في الحائط خلف التمثال – المدخل الذي دخلت منه أنا وجور هاجوس إلى المعبد في وقت سابق من اليوم.

صعدت المدرج، يسبقني جور هاجوس ويليني دار تاروس، متجهًا نحو السطح؛ فقد عرفنا من حديث الكهنة موقع حظائر الطائرات الملكية. كانت سعادتي لتكتمل لو كان معنا هوفان دو وساج أور؛ فما بدا خلال نصف يوم فشلًا تامًّا وهزيمة، قد تحول إلى نجاح مضمون تقريبًا. عند المهبط، حيث تقع شقق ظاظا، وقفنا ونظرنا داخلها. فكرت أن الرحلة خلال ليلة طويلة ستكون باردة، بينما يجب الحفاظ على جسم فالا ديا دافئًا في رداء مناسب حتى ولو كانت روح ظاظا هي من تسكنه. لم نشهد أي شخص، فدخلنا وسرعان ما وجدنا ما نحتاجه. استعادت الجيدارة وعيها، بينما أضع رداءً ثقيلًا من جلد الأورلوك[٣٠] حولها. وعلى الفور تعرفت عليَّ، ثم على جور هاجوس، وأخيرًا

(٣٠) أورلوك: هو وحش شرس يشبه الفيل، يوجد على وجه الحصر تقريبًا في مناطق أقصى شمال المريخ – *http://barsoom.wikia.com/wiki/Orluk* – المترجمة.

دار تاروس. تحسست خنجرها تلقائيًّا، لكنها لم تجده؛ وعندما رأت ابتسامتي أصابها شحوب غاضب. من المؤكد أنها خلُصت في البداية إلى أنها كانت ضحية لخدعة، لكن الشكوك دخلت عقلها الآن- ربما أخذت تتذكر بعض ما حدث داخل معبد طور العظيم، والتي لا هي ولا أي بشر غيرها يمكنه تفسيرها.

سألتني: «من أنت؟».

أجبت بوقاحة: «أنا طور».

- وماذا تريد مني؟

أجبت: «سوف آخذكِ بعيدًا عن فوندال».

«لكني لا أود الذهاب. أنت لست طور. أنت فاد فارو. سأستدعي المساعدة، وسيأتي حراسي ويقتلونك».

قلت لتذكيرها: «لا يوجد أحد في القصر. ألم أبعدهم، أنا طور، عن القصر؟».

أعلنت بحزم: «أُفضل الموت على أن أذهب معك».

قلت: «سوف تذهبين معي، ظاظا». وعلى الرغم من أنها قاتلت وناضلت، فقد حملناها من شقتها، وصعدنا المدرج الحلزوني إلى السطح، حيث يجب أن نجد الحظائر والطائرات الملكية. وعندما خرجنا إلى هواء ليلة مريخية جديدة، شاهدنا الحظائر أمامنا، لكننا رأينا شيئًا آخر- مجموعة من محاربي فوندال، من حرس الجيدارة الذين

يبدو أن أوامر طور لم تصلهم. وما إن رأتهم ظاظا، نادت عليهم بصوت عال طالبة الغوث».

صاحت: «تعالوا! تعالوا إلى الجيدارة! وجهوا ضربتكم إلى هؤلاء القتلة وأنقذوني!».

كانوا ثلاثة وكنا ثلاثة. لكنهم كانوا مسلحين، ونحن لم يكن لدينا سوى خنجر ظاظا الرفيع. أخذ جور هاجوس الخنجر. يبدو أن النصر تحول إلى هزيمة، حيث اندفعوا نحونا؛ لكن جور هاجوس أوقفهم. أمسك ظاظا ورفع الخنجر مصوبًا سنه إلى قلبها. صاح: «توقفوا! أو أقتلها».

تردد المحاربون، وبقت ظاظا صامتة يعتريها الخوف. وهكذا وقفنا جميعًا في جمود، وعندئذ رأيت خلف محاربي فوندال الثلاثة حركة عند حافة السطح. ما هذا؟ رأيت في الضوء الخافت شيئًا يشبه رأس إنسان لكنه ليس إنسانًا، يرتفع ببطء فوق حافة السطح، ثم يتبعه بصمت جسم كبير، وهنا تعرفت عليه- إنه هوفان دو، القرد الأبيض الضخم.

قلت لظاظا بصوت عال كي يسمعني هوفان دو: «أخبريهم أنني طور، انظروا، لقد جئت مرة أخرى على هيئة قرد أبيض!»، وأشرت إلى هوفان دو، «ولن أقتل هؤلاء المحاربين المساكين. عليهم إلقاء أسلحتهم والذهاب في سلام».

استدار الرجال، وعندما شاهدوا القرد الضخم يقف خلفهم، اهتزوا لتصورهم أنه تجسد من الهواء الرقيق.

سألها أحدهم: «من هو يا جيدارة؟».

أجابت ظاظا بصوت ضعيف: «إنه طور؛ ولكن، أنقذوني منه! أنقذوني منه!».

قلت لهم آمرًا: «عليكم إلقاء أسلحتكم وعتادكم، ثم تذهبون! أو سيوجه لكم طور ضربة مميتة. ألم تسمعوا الناس يتدافعون خارج القصر بناء على أوامر طور؟ أكان بإمكاننا إحضار ظاظا هنا بقوة أقل من قوة طور عندما كان قصرها كله يمتلئ برجالها المقاتلين؟ اذهبوا، حيث يمكنكم الذهاب بأمان».

فك أحدهم رباط عتاده وألقاه مع أسلحته على السطح. وما إن بدأ في التوجه نحو الدرج الحلزوني، حتَّى حذا رفاقه حذوه. اقترب هوفان دو ناحيتنا.

قال هادرًا: «حسنا فعلت، فاد فارو، على الرغم من عدم معرفتي أي شيء».

قلت له: «سوف نخبرك لاحقًا، لكننا يجب أن نعثر الآن على طائرة سريعة ونواصل طريقنا. أين ساج أور؟ ألا يزال حيًّا؟».

أجاب القرد: «لقد قيدته جيدًا وأخفيته بأمان في أحد أبراج القصر العالية. ويمكننا الوصول إليه بسهولة عندما ننطلق بالطائرة».

كانت ظاظا تتطلع إلينا في غضب. صاحت: «أنت لست طور! لقد كشفك القرد».

أكدت لها: «ولكن بعد فوات الأوان لكي تفيدي من ذلك بأي حال،

يا جيدارة. ولا يمكنك إقناع أي من الأشخاص الذين وقفوا في المعبد هذه الليلة أنني لست طور. كما أنك أنت نفسك، لا تعرفين أنني لست طور. فأساليب طور – القدرة الكلية والمعرفة الكلية– تتجاوز مفهوم البشر. بالنسبة لك إذَنْ، يا جيدارة، أنا طور؛ وسوف تجدينني أتمتع بقدرة كاملة تكفي لتحقيق أغراضي».

أعتقد أنها كانت لا تزال في حيرة عندما سحبناها إلى متن الطائرة، ثم حولنا مقدمة الطائرة نحو البرج الشاهق الذي أخبرنا هوفان دو أنه أخفى فيه ساج أور.

قال دار تاروس ضاحكًا: «سوف أسعد لرؤية نفسي مرة أخرى».

قلت له: «وسوف تستعيد نفسك ثانية، دار تاروس، بمجرد أن نصل إلى حُفر راس ثافاس».

تنهد قائلًا: «ويمكن أن يجتمع الشمل مع حبيبتي كارا فاسا. وعندئذ، فاد فارو، لك أعظم امتناني».

– أين يمكن أن نجدها؟

– للأسف، لا أعرف. فقد أمسك بي عملاء ظاظا خلال بحثي عنها. عندما ذهبت إلى قصر والدها، عرفت أنهم اغتالوه وصادروا ممتلكاته. وهم إما لا يعرفون مكان كارا فاسا وإمَّا لا يفصحون عن؛ لكنهم أمسكوني بحجة أو أخرى حتى تأتي كتيبة حرس الجيدارة لتقبض عليَّ.

قلت: «علينا أن نستفسر من ساج أور».

توقفنا الآن بجانب إحدى نوافذ البرج الذي أشار إليه هوفان

دو، وقفز هو ودار تاروس إلى حافة النافذة ودخلا. كانت معنوياتنا مرتفعة؛ فجميعًا يحمل سلاحًا الآن، بعد أن أخذنا الأسلحة التي ألقاها المحاربون الثلاثة في الحظيرة، ولدينا طائرة جيدة، واجتمع شمل مجموعتنا الصغيرة، بالإضافة إلى ظاظا وساج أور الذي يقتادونه الآن على متن الطائرة.

شرعنا في طريقنا ثانية، مع توجيه مقدمة الطائرة نحو الشرق. سألت ساج أور إذا كان يعلم ماذا حدث لكارا فاسا، لكنه أكد لي، بنبرة عابسة، أنه لا يعرف.

حذرته قائلًا: «فكر مرة أخرى، ساج أور، فربما تتوقف حياتك على الإجابة».

«ما هي فرصة بقائي على قيد الحياة؟»، سأل ساخرًا وهو يلقي نظرة قبيحة نحو دار تاروس.

أجبته: «لديك فرصة بالفعل. حياتك تكمن في يدي؛ وإذا أسديت لي هذه الخدمة، سوف تعيش وإن كان في جسدك وليس جسد دار تاروس».

– ألا تنوي تدميري؟

أجبت: «لا أنوي تدميرك أو تدمير ظاظا. سوف تعيش ظاظا في جسدها وأنت في جسدك».

قاطعتنا الجيدارة: «لا أود أن أعيش في جسدي».

وقف دار تاروس ينظر نحو ساج أور – ينظر، روحًا بلا جسد، إلى

جسده الأصلي – يا له من وضع غريب لم أواجهه من قبل أبدًا.

وقال: «أخبرني ساج أور ماذا حدث لكارا فاسا. وعندما أستعيد جسدي وتستعيد جسدك، لن أضمر ضدك أي عداوة إن لم تكن أصبت كارا فاسا بضرر وأخبرتني بمكانها».

«لا أستطيع أن أخبرك، لأنني لا أعرف. لم يلحق بها أي ضرر، لكنها اختفت من فوندال بعد يوم اغتيالك. كنا على يقين أن والدها اختطفها، لكننا لم نستطع أن نعرف منه أي شيء. وبعد ذلك جرى اغتياله»، نظر الرجل محملقًا نحو ظاظا، «ومنذ ذلك الحين، لم نعرف أي شيء. وقد أخبرنا أحد العبيد أن كارا فاسا ركبت طائرة، مع بعض محاربي والدها، واتجهوا إلى هيليوم سعيًا لحماية إله الحرب العظيم في برسوم؛ لكننا في الحقيقة لا نعرف أي شيء. هذه هي الحقيقة. أنهيت حديثي، أنا ساج أور!».

لم يكن مجديًا أن نبحث عن كارا فاسا في فوندال، وبالتالي اتخذنا مسارنا نحو الشرق وبرج ثافاس.

* * *

الفصل (١٤)

العودة إلى ثافاس

أسرعنا طوال تلك الليلة، تحت قمرَي المريخ المندفعين، مجموعة غريبة أقسم أن مثلها لم يتجمع من قبل على أي كوكب: رجلان، يمتلك كل منهما جسد الآخر؛ وإمبراطورة عجوز شريرة ينتمي جسدها الجميل إلى فتاة شابة يحبها رجل في هذه المجموعة؛ وقرد أبيض ضخم يهيمن عليه نصف مخ بشري؛ وأستكمل أنا، مخلوق من كوكب بعيد، وجور هاجوس، قاتل تونول، القائمة المجنونة.

نادرًا ما أمكنني إبعاد عينَي عن جسد ظاظا ووجهها الجميلين. ومن حظ الحظ أنني كنت مفتونًا بها، لأنني أمسكتها وهي تحاول إلقاء نفسها من فوق ظهر السفينة؛ إذ كانت كارهة لفكرة العيش مرة أخرى في جسدها القديم البشع. أبقيتها بعد ذلك مقيدة بحزم على سطح السفينة، على الرغم من أن مشاهدتي للقيود على أطرافها الجميلة كانت تؤلمني.

كان دار تاروس مفتونًا بالقدر نفسه بتأمل جسده، الذي لم يره لسنوات عديدة.

صاح: «باسم سلفي الأول، من المؤكد أنني أقل الزملاء شأنًا، لأعطيك كلمة ليست لديَّ أي فكرة أنني سأتمكن من تنفيذها. بمقدوري أن أقول ذلك الآن دون غرور؛ لأنني أتكلم عن ساج أور»، ثم ضحك بصوت عالٍ على فكاهته الصغيرة.

ولكن تبقى الحقيقة، أن جسم ووجه دار تاروس كانا جميلين حقًّا، على الرغم من وجود لمحة قسوة في العينين والفكين تدل على دماء القتال. ما من عجب، إذَنْ، أن الجسد الذي يمتلكه الآن دار تاروس يتسم بالتهتك والعَجز؛ ولا أن دار تاروس يتوق لجسده ثانية.

هبطنا قبل الفجر مباشرة على إحدى الجزر العديدة الصغيرة التي تنتشر بين المستنقعات التونولية الكبرى، وحشرنا السفينة بين سيقان الأشجار الكبيرة لتستقر على سطح الأرض، نصف مدفونة في الغابة المورقة الرائعة، ومخفية جيدًا عن مرأى المطاردين المحتملين. وهنا وجد لنا هوفان دو الفاكهة والجوز، التي أكد القسم القردي في مخه أنها آمنة للاستهلاك البشري، وقادته الغريزة إلى نبع قريب تتدفق منه مياه لذيذة. كنا نحن الأربعة جوعى وفي شدة التعب، ولذا رحبنا بالطعام والمياه؛ ولم ترحب بهما ظاظا وساج أور، أو رفضاهما. تناولنا الطعام، ثم رقد ثلاثة منا على سطح السفينة للنوم، بعد أن قيدنا أسرانا جيدًا بالسلاسل، بينما وقف الرابع للمراقبة. وتناوبنا بهذه الطريقة، بحيث نمنا أغلب اليوم. ومع شعورنا بالراحة والانتعاش عند هبوط الليل، أصبحنا على استعداد لاستئناف رحلتنا.

تجنبنا تونول بانعطاف واسع نحو الجنوب، وشاهدنا برج ثافاس

الشاهق قبيل الفجر بساعتين تقريبًا. أعتقد أننا جميعًا كنا نشعر بأعلى درجة من الإثارة؛ فلم يكن هناك أحد على متن هذه الطائرة إلا وحياته كلها سوف تتأثر بجدية بنجاح أو فشل مغامرتنا. كإجراء احترازي أول، قمنا بتقييد أيدي ظاظا وساج أور خلف ظهورهم، ووضعنا كمامات على أفواههم، خشية نجاحهم في التحذير باقترابنا.

غرُب القمر كلوروس منذ فترة طويلة، وكان القمر ثوريا يتجه نحو الأفق ونحن نوقف محركات طائرتنا ونجنح دون أضواء لمسافة ميل أو ميلين جنوب البرج. انتظرنا بفارغ الصبر مغادرة القمر ثوريا للسماء وتركها في الظلام وتركنا في العالم. وفي اتجاه الشمال الغربي، كانت أضواء تونول تلمع صراحة على الخلفية الداكنة لنوافذ المختبر الكبير التابع لراس ثافاس، لكن البرج نفسه كان مظلمًا من القاعدة إلى القمة.

انخفض الآن القمر الأقرب تمامًا تحت الأفق، وترك المشهد للظلام ولنا. بدأ دار تاروس تشغيل المحرك، محرك برسوم الصامت الرائع، وتحركنا ببطء بالقرب من الأرض، نحو جزيرة راس ثافاس، دون أي صوت عدا طنين مروحتنا اللطيف؛ وحتى هذا كان يصعب سماعه على مسافة مائة قدم لدوران المروحة ببطء. توقفنا بالقرب من الجزيرة وراء مجموعة من الأشجار العملاقة، وأصدر هوفان دو هديرًا منخفضًا وهو يتقدم نحو مقدمة السفينة. وقفنا في صمت، ننتظر ونسمع. هناك حفيف في الشجيرات الكثيفة على الشاطئ. أطلق هوفان دو ثانية نداءه الشرس المنخفض، وجاءت الإجابة هذه المرة من الظلال السوداء. تحدث هوفان دو بلغة القردة، وأجاب المخلوق غير المرئي.

استمر الحديث لمدة خمس دقائق، أدركنا خلالها من الأصوات المختلفة انضمام آخرين إليه من الشاطئ، ثم استدار هوفان دو نحوي.

وقال: «انتهى ترتيب الأمر. سوف يسمحون لنا بإخفاء سفينتنا تحت هذه الأشجار، وسوف يسمحون لنا بالذهاب مرة أخرى عندما نصبح جاهزين على متنها، ولن يلحقوا بنا أي ضرر بأي شكل. كل ما يطلبونه هو أن نترك البوابة المؤدية إلى البلاط الداخلي مفتوحة بعد دخولنا».

– هل يفهمون أن أي قرد يدخل معنا لن يعود معنا؟

سألت.

– نعم؛ لكنهم لن يلحقوا بنا أي أذى.

– لماذا يرغبون أن نترك البوابة مفتوحة؟

أجاب هوفان دو: «لا تسأل كثيرًا، فاد فارو، يكفي أن القرود الضخمة ستتيح لك إمكانية استعادة جسم فالا ديا لمخه والهروب معها من هذا المكان الرهيب».

قلت: «هذا يكفي. متى يمكننا الهبوط؟»

– على الفور. سوف يساعدونا على سحب السفينة تحت الأشجار، وتثبيتها.

قمت بتذكيره: «ولكن علينا الارتفاع أولًا أعلى الجدار إلى داخل البلاط».

- نعم، صحيح- لقد نسيت أننا لا نستطيع فتح البوابة من هذا الجانب.

تحدث ثانية مع القرود، الذين لم نراهم حتى الآن؛ ثم أخبرنا أنه انتهى من ترتيب كل شيء، وأن سيعود هو ودار تاروس مع السفينة بعد إنزالنا في الداخل على الجانب الآخر من الجدار.

ارتفعنا مرة أخرى ببطء فوق الجدار الخارجي، ثم هبطنا بصمت إلى الفناء وراءه. كانت الليلة مظلمة على نحو غير معتاد، حيث تبعت الغيوم القمر ثوريا وطمست النجوم بعد أن غادر القمر. لا يستطيع أحد أن يرى السفينة على مسافة خمسين قدمًا. تحركنا دون ضجيج تقريبًا. أنزلنا أسرانا بهدوء على الجانب الآخر، وبقيت معهم أنا وجور هاجوس، بينما ارتفع دار تاروس وهوفان دو ثانية وقادا السفينة إلى مكان إخفائها.

تحركت على الفور نحو البوابة، وفتحت المزلاج، ثم انتظرت. لم أسمع أي شيء. أعتقد أنني لم أتحمل من قبل أبدًا مثل هذا الصمت المطلق. لم يصدر أي صوت من الكومة الكبيرة التي ترتفع خلفي، ولا من الغابة المظلمة وراء الجدار. تمكنت في العتمة من رؤية أشكال جور هاجوس وظاظا وساج أور بجواري- وإلا لكنت وحدي في ظلام الفضاء واتساعه.

بدا انتظاري هناك أبديًّا قبل أن أسمع صوت خدش خافت على ألواح البوابة الثقيلة. دفعتها لفتحها، ودخل دار تاروس وهوفان دو بصمت، ثم أغلقتها وأعدت تثبيت المزلاج. لم يتحدث أحد. كل شيء

كان بتخطيط دقيق، بحيث لم تكن هناك حاجة للكلام. قدنا الطريق أنا ودار تاروس، وتولى جور هاجوس وهوفان دو الجزء الخلفي مع السجناء. توجهنا مباشرة نحو مدخل البرج، ووجدنا المدرج وهبطنا إلى الحُفر. كان الحظ حليفنا. لم نلتقِ بأحد، ولم نجد صعوبة في العثور على القبو المطلوب. قمنا بتأمين الباب جيدًا بمجرد دخولنا، خشية المقاطعة التي كانت شاغلنا الأول، ثم أسرعت إلى الموقع الذي أخفيت فيه فالا ديا ملفوفة، وراء جثة محارب ضخم، بجوار الجدار في الظلام. شعرت بقلبي يتوقف وأنا أسحب جسم المحارب جانبًا؛ إذ كنت أخشى دائمًا أن يفتش راس ثافاس في كل غرفة وحفرة وأن يفحص كل جسم إلى أن يجدها، لأنه يعرف اهتمامي بها ويتوقع غرض مغامرتي. لكن مخاوفي كانت بلا أساس، فها هو جسم ظاظا، العلبة العجوز المملوءة بالتجاعيد التي تحوي مخ محبوبتي الجميل، حيث أخفيته انتظارًا لهذه الليلة. رفعت الجسم برفق، وحملته إلى واحدة من الطاولتين ذات السطح الإرسايتي. وهناك، تقف ظاظا مقيدة ومكممة، تنظر بعينيها اللتين تطلقان نار البغض والكراهية نحوي ونحو ذلك الجسم البشع الذي سرعان ما يستعيده مخها.

حاولت التملص من قبضتي وإلقاء نفسها على الأرض وأنا أرفعها على لوح الطاولة المجاورة، لكني أمسكتها جيدًا وسرعان ما ربطتها بقوة في المكان. فقدت وعيها بعد لحظة، وسارت إجراءات إعادة النقل سيرًا حسنًا. كان جور هاجوس وساج أور وهوفان دو متفرجين مهتمين.

أما دار تاروس، الذين وقف مستعدًّا لمساعدتي، كانت الإجراءات بمثابة قصة قديمة لأنه يعمل في المختبر وشهد عمليات كثيرة مماثلة. لن أزعجكم بوصف العملية – فهي ليست سوى تكرار لما فعلته مرات عديدة تحضيرًا لهذا الحدث.

انتهت العملية أخيرًا، وشعرت بقلبي يتوقف عند إحلال دماء حياة فالا ديا محل سائل التحنيط، ورأيت اللون يمتد إلى خديها ويرتفع صدرها وينخفض مع تنفسها اللطيف، ثم فتحت عينيها ونظرت إلى عينيّ.

تساءلت: «ماذا حدث، فاد فارو؟ هل هناك خطأ بحيث أيقظتني بسرعة، أم أنني لم أستجب للسائل؟».

تجولت عيناها ووقعت على وجوه الآخرين الذين يقفون حولي. وتساءلت: «ما معنى ذلك؟ مَن هؤلاء؟».

رفعتها بلطف بين ذراعي، وأشرت إلى جسم ظاظا الذي يرقد كالميت فوق اللوح الإرسايتي بجوارها. اتسعت عينا فالا ديا، وصاحت: «هل حدث؟»، ثم صفقت بيديها على وجهها وتحسست جميع ملامحها وعنقها الرقيق الناعم. على أنها لم تكن قادرة بعد على تصديق ما حدث، وطلبت مرآة؛ فأعطيتها مرآة أخذتها من جيب حقيبة ظاظا. نظرت في المرآة لفترة طويلة، وبدأت دموعها تنهمر على خديها، ثم نظرت نحوي خلال دموعها ووضعت ذراعيها العزيزين حول عنقي وجذبت وجهي إلى أسفل بالقرب من وجهها. همست كلمة واحدة:

«يا قائدي»، لكنها كانت كافية. لقد خاطرت بحياتي وواجهت مخاطر مجهولة من أجل أن أسمع هذه الكلمة، ويسعدني أن أخاطر بحياتي ثانية لأحصد دائمًا وإلى الأبد المكافأة نفسها.

مرت ليلة أخرى قبل أن أنتهي من استعادة دار تاروس وهوفان دو. تركت ظاظا وساج أور والقرد نائمين في ما يشبه الموت نتيجة للمخدر الرائع الذي ابتدعه راس ثافاس. لم تكن لديَّ نية لإعادة القرد، لكني شعرت بالتزام تجاه عودة الآخرين إلى فوندال، على الرغم من أن دار تاروس –الذي يتألق الآن في جسده الأصلي وأغطية ساج أور المزخرفة– كان يحثني على عدم تعريضهم مرة أخرى لمعاناة الفوندال الطويلة.

قلت له: «لكني وعدتهم».

فقال: «إذَنْ يجب إعادتهم».

أضفت قائلًا: «على الرغم من أن ما قد أفعله بعد ذلك هو مسألة أخرى»، فقد طرأت لي فجأة خطة جريئة.

لم أخبر دار تاروس بالأمر، ولم يتيسر لي الوقت لأخبره؛ إذ سمعنا في تلك اللحظة صوت شخص في الخارج يحاول فتح الباب، ثم سمعنا عدة أصوات، والآن هناك من يحاول ثانية فتح الباب وإن كان بالقوة هذه المرة. لم يصدر عنا أي ضجيج، بل بقينا في حالة انتظار. كنت آمل أن يبتعد هذا الشخص، أيًّا من كان. الباب شديد القوة، ولا بد أنهم أدركوا، بعد محاولة فتحه بالقوة، عدم جدوى محاولاتهم، ذلك أنهم سرعان ما

توقفوا وسمعنا أصواتهم لمجرد فترة قصيرة ويبدو أنهم ذهبوا بعد ذلك.

قلت: «يجب أن نغادر المكان قبل عودتهم».

قمت بتقييد أيدي كل من ظاظا وساج أور خلفهما ووضعت الكمامات على فميهما، وأيقظتهما بسرعة. لم أشهد من قبل شخصين أقل امتنانًا.

كانت نظراتهما تجاهي تكاد تقتلني، لو أن النظرات قادرة على القتل. كما كانت نظرات الاشمئزاز تجاه أحدهما الآخر بادية بوضوح في أعينهما.

فتحت الباب بحذر وبهدوء شديد، وفي يدي اليمنى سيفي، ودار تاروس وجور هاجوس وهوفان دو جاهزين بسيوفهم خلف أكتافي. كشف الباب، عندما تأرجح مرتدًا، عن شخصين يقفان في الممر للمراقبة- هما من عبيد راس ثافاس؛ وأحدهما هو يمدور، حارسه الشخصي. أطلق العبد عند رؤيتنا صرخة مدوية تدل على تعرفه علينا. وقبل أن أتمكن من القفز عبر المدخل ومنعهما، استدار الاثنان وركضا عبر الممر بأسرع ما يمكنهما.

لا يوجد الآن وقت نضيعه- يجب التضحية بكل شيء في مقابل الإسراع. ودون تفكير في توخي الحذر أو الصمت، أسرعنا خلال الحُفر نحو المدرج في البرج؛ وعندما خرجنا إلى الفناء الداخلي كان الوقت ليلًا مرة أخرى، لكن القمر الأبعد يحلق في السماء ولا توجد غيوم. وبالتالي كشفنا الحارس على الفور، ودق ناقوس الخطر وهو يركض إلى الأمام لاعتراضنا.

ماذا يفعل الحارس في فناء راس ثافاس؟ لم أفهم. ومن هؤلاء؟ عشرات المحاربين المسلحين يسرعون عبر الفناء في أعقاب الحارس.

«التونوليون!» صاح جور هاجوس، «إنهم محاربو فوبيس كان، جيداك تونول!».

ركضنا لاهثين نحن البوابة. آه لو أمكننا الوصول إليها أولًا! لكن أسرانا يعرقلون حركتنا، حيث توقفوا في لحظة اكتشافهم إمكانية إرباكنا، مما نتج عنه أننا التقينا جميعًا أمام البوابة. قمت مع دار تاروس وجور هاجوس ودو هوفان بوضع فالا ديا وأسرانا خلفنا، وقاتلنا المحاربين التونوليين العشرين باحتمالات خمسة منهم ضد واحد منا؛ على أن ميزتنا ربما تكمن في تعلُق قلوبنا بالمعركة، على الرغم من يقيني أن جور هاجوس كان وحده كعشرة رجال، ويكفي تأثيره الرهيب على رجال تونول.

صاح أول من تعرف عليه منهم: «جور هاجوس!».

أجاب القاتل: «نعم، أنا جور هاجوس. استعِد لملاقاة أسلافك!»، وانطلق نحوهم مندفعًا وأنا على يمينه وهوفان دو ودار تاروس على يساره.

كانت معركة بارعة، إلا أنها كانت لتنتهي ضدنا، لأنهم يفوقوننا عددًا إلى حد كبير، ما لم أفكر في القرود والبوابة بجانبنا. شققت طريقي إلى البوابة وفتحتها. وهناك، على الجانب الخارجي، وقفت عشرات من الوحوش الضخمة اجتذبتها ضوضاء القتال. دعوت جور هاجوس

والآخرين إلى التراجع بجوار البوابة. وما إن تدافعت القرود، أشرت إلى محاربي تونول.

أعتقد أن القرود كانوا في حيرة لمعرفة من الأصدقاء ومن الأعداء، لكن هجوم التونوليين عليهم حسم الأمر، بينما وقفنا نحن جانبًا وأسنة سيوفنا موجهة نحو الأرض. وقفنا في حالة انتظار للحظات. وعندما اندفعت القرود بين محاربي تونول، تسللنا في ظلام الغابة وراء الجدار الخارجي وتوجهنا نحو الطائرة. سمعنا خلفنا هدير وزئير الوحوش مختلطًا بصيحات ولعنات الرجال؛ وما زال الصوت يرتفع من الفناء ونحن نصعد على متن الطيار ونشق طريقنا في الليل.

وبمجرد شعورنا أننا هربنا بأمان من جزيرة ثافاس، أزلت الكمامات من أفواه ظاظا وساج أور، ويمكنني القول أنني ندمت فورًا على قيامي بذلك؛ فلم أتعرض أبدًا في حياتي من قبل لمثل هذه الإساءة البشعة التي انطلقت من الشفاه العجوز المجعدة للجيدارة؛ وفقط عندما بدأت تكميمها مرة أخرى أن وعدت بالكف.

وضعت خططي الآن جيدًا، وتضمنت العودة إلى فوندال حيث لا يمكنني بدء الطيران إلى دوهور مع فالا ديا دون إمدادات ووقود، ولا يمكن الحصول عليها إلا من فوندال، التي شعرت أنني أحمل المفتاح الذي يتيح لي تأمين تلك الموارد منها؛ بينما كانت تونول كلها تحمل السلاح ضدنا نظرًا لخوف فوبيس كان من جور هاجوس.

اتخذنا طريقنا نحو فوندال سرًّا، كما سبق ووصلنا إليها سرًّا؛ فلم أكن مستعدًّا لأن نتعرض للاعتقال قبل النجاح في دخول قصر ظاظا.

توقفنا نهارًا لنستريح على نفس الجزيرة التي منحتنا ملاذًا قبل يومين، ثم انطلقنا عند حلول الظلام نحو المحطة الأخيرة في رحلتنا إلى فوندال. لم نشهد وجود من يطاردنا، وهو ما يمكن أن يفسره بسهولة حجم المستنقعات غير المأهولة الكبير التي طرنا فوقها والمسار الجنوبي البعيد الذي اتبعناه بالقرب من الأرض.

عندما اقتربنا من فوندال، قمت بتكميم ظاظا وساج أور ثانية، فضلًا عن وضع عصابة على أعينهما حتى لا يتعرف عليهما أحد؛ ثم أبحرنا مباشرة فوق المدينة في اتجاه القصر، على أمل عدم الانكشاف، وعلى أهبة الاستعداد في الوقت نفسه في حال انكشافنا.

وصلنا إلى حظائر الطائرات على السطح دون انكشاف، وقمت بتدريب كل شخص على الجزء الذي من المقرر أن يؤديه. وخلال هبوطنا ببطء على السطح، سرعان ما تولى دار تاروس وهوفان دو وفالا ديا تقييدي وتقييد جور هاجوس ولف عصابات حول أعيننا؛ لأننا شهدنا أدناه شخوص حراس الحظيرة. كان تقييدي وتقييد جور هاجوس ليصبح غير ضروري، إن كنا وجدنا السطح دون حراسة.

ومع اقتراب هبوطنا، قام أحد الحراس بتحيتنا، ثم سأل: «ما هذه السفينة؟».

أجاب دار تاروس: «الطائرة الملكية لجيدارة فوندال، تعود بظاظا وساج أور».

تهامس المحاربون فيما بينهم خلال اقتراب هبوطنا، ويجب أن أعترف أنني شعرت بالتوتر تجاه نتائج خدعتنا؛ إلا أنهم سمحوا لنا

بالهبوط دون كلمة، وقدموا التحية بأسلوب برسوم لفالا ديا عندما رأواها، وقد نزلت من سطح السفينة وفقًا لمراسم النقل الملكي لإمبراطورة.

أمرت الحراس: «خذوا السجناء إلى شققي!». وبمساعدة هوفان دو ودار تاروس، حمل الحراس الأربعة المقيدين معصوبي الأعين من الطائرة إلى أسفل المدرج الحلزوني لشقق ظاظا، جيدارة فوندال. وهنا سارع العبيد المتحمسون إلى إطاعة الجيدارة. يبدو أن خبر عودة ظاظا طار عبر القصر بسرعة الضوء؛ إذ بدأ موظفو البلاط يأتون على الفور ويُعلن عن وصولهم، لكن فالا ديا أبلغت أنها لن ترى أحدًا لفترة من الوقت، ثم صرفت عبيدها. تولى دار تاروس، بناء على اقتراحي، البحث في الشقق بغية إيجاد مخبأ آمن لجور هاجوس، ولي، وللسجناء. وسرعان ما وجده في غرفة انتظار صغيرة تقع مباشرة أمام الشقة الرئيسة للجناح الملكي. أُزيلت قيودي وقيود القاتل، وحملنا معًا ظاظا وساج أور إلى الغرفة.

كان المدخل هنا مزودًا بباب ثقيل، عليه ستائر تخفيه تمامًا. أمرت هوفان دو، الذي يرتدي مثل بقيتنا عتاد فوندال، أن يقف لحراسة الستائر وألا يدع أحدًا يدخل ما عدا أفراد جماعتنا. اتخذت أنا وجور هاجوس مواقعنا داخل الستائر، وقطعنا فيها ثقوبًا صغيرة تتيح لنا رؤية كل ما يجري في الغرفة الرئيسة؛ فقد كنت أشعر بالقلق إلى حد كبير على سلامة فالا ديا وهي تؤدي دور ظاظا، لأنني أعرف أن شعب ظاظا يخشاها ويكرهها على حد سواء، ولذا فهي عُرضة دائمًا للاغتيال.

استدعت فالا ديا العبيد وأمرتهم بالسماح لمسؤولي البلاط بالدخول. وعندما فُتِحت الأبواب على مصراعيها، دخل عشرات النبلاء. لم يَبْدُ عليهم الارتياح. وأعتقد أنهم كانوا يتذكرون ما حدث في المعبد عندما تركوا الجيدارة، بل وألقوها بخشونة عند قدمي طور العظيم. لكن فالا ديا سرعان ما جعلتهم يشعرون بالارتياح.

قالت: «لقد استدعيتكم لتسمعوا كلمة طور؛ فسوف يتحدث مرة أخرى إلى قومه. لقد أمضيت مع طور ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. إن غضبه من فوندال كبير. وقد أمرني أن أستدعي جميع النبلاء الأعلى مقامًا إلى المعبد بعد وجبة العشاء الليلة، وكذا جميع الكهنة والقادة ودوّار الحرس، والعديد من النبلاء الأقل مرتبة في القصر؛ وسوف يستمع شعب فوندال إلى كلماته وقانونه. وكل من يطيعه سوف يعيش، وكل من لا يطيعه سوف يموت؛ والويل لمن لا يذهب إلى المعبد هذه الليلة بعد هذا الاستدعاء. أنا ظاظا، جيدارة فوندال، قد تحدثت! اذهبوا!».

ذهبوا، وبدوا سعداء بذهابهم. استدعت فالا ديا بعد ذلك أودوار[٣١] الحرس –وهي رتبة جنرال على كوكب الأرض– وطلبت منه إخلاء القصر من كل كائن حي، من مستوى المعبد إلى السطح، قبل وجبة العشاء بساعة، وعدم السماح لأي شخص بدخول المعبد أو المستويات أعلاه إلى أن يحين موعد التجمع في المعبد لسماع كلمة طور، باستثناء كل من قد تكون في شققها، التي لا يمكن دخولها

(٣١)أودوار: قائد أو جنرال.

– *http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=odwar* – المترجمة.

تحت وطأة ألم الموت. لقد أوضحت كل شيء بجلاء وبساطة وأعتقد أن الأودوار ارتعد قليلًا، ذلك أن الجميع كان يخشون ظاظا الجيدارة كثيرًا؛ ثم ذهب، وصُرِف العبيد، وأصبحنا وحدنا.

❊ ❊ ❊

الفصل (١٥)

جون كارتر

حملنا ظاظا وساج أور قبل وجبة العشاء بنصف ساعة أسفل المدرج الحلزوني إلى قاعدة تمثال طور العظيم، واتخذت أنا وجور هاجوس مواقعنا على المنصة العلوية خلف عينَي التمثال وصوته. ظلت فالا ديا ودار تاروس وهوفان دو في الشقق الملكية. كانت خططنا جيدة الإعداد. لم يكن هناك أحد بين الباب الذي يقع خلف تمثال طور العظيم والطائرة المستعدة للإقلاع من السطح في حالة اضطرارنا للفرار إذا تعرضت خطتنا الجنونية للفشل.

مرت الدقائق ببطء، وهبط الظلام. اقترب الموعد. سمعنا صوت فتح أبواب المعبد، ورأينا الممر الكبير مضاء ببراعة. كان خاليًا باستثناء كاهنين وقفا مترددين بعصبية عند المدخل. وأخيرًا استجمع أحدهما ما يكفي من شجاعة للدخول وتشغيل الأضواء. تقدما الآن بمزيد من الشجاعة، وسجدا أمام مذبح طور العظيم. وعندما نهضا ونظرا في وجه التمثال، لم أستطع مقاومة إغراء تحويل أعين التمثال الضخمة لتتجول

داخل الغرفة إلى أن استقرت ثانية على الكاهنين؛ لكني لم أتكلم، وأعتقد أن الصمت المرعب في حضرة إله حي كان أكثر تأثيرًا من الكلمات. انهار الكاهنان ببساطة. انزلقا على الأرض ورقدا مرتجفين، يئنان ويتوسلان طور أن يرحمها، ولم ينهضا قبل وصول أول المتعبدين.

سرعان ما امتلأ المعبد، وأدركت أنهم نشروا أوامر طور بشكل جيد ودقيق. لقد جاءوا مثلما حدث من قبل؛ لكن العدد أكبر هذه المرة. وقفوا عند جانبي الممر الأساسي منتظرين، وأعينهم مقسمة بين المدخل والإله. ومع حلول توقيت عرض المشهد، قمت بتحريك أعين طور لتتجول عبر المجتمعين لتوجيهها نحو الموضع المناسب للمشهد الذي كان على وشك الحدوث. جاءت ردود أفعالهم مماثلة لرد فعل الكاهنين؛ سقطوا على الأرض يئنون ويتوسلون إلى أن أعلنت أصوات الأبواق عن قدوم الجيدارة. نهضوا على أقدامهم. تأرجحت الأبواب الكبيرة مفتوحة، ثم وُضع البساط وجاء العبيد في الخلف. ارتفعت أصوات الأبواق مع تدحرُج البساط نحو المذبح، وظهرت بداية الموكب الملكي. كنت قد أمرت بذلك لإتاحة أكبر قدر ممكن من الفخامة بمجرد فتح الأبواب عند وصول رأس الموكب. سمحت خطتي أن يرى الجمهور الحاشية الملكية تتقدم أسفل الممر الطويل، وكانت النتيجة الرائعة. دخل بداية النبلاء من المرتبتين، وخلفهم العربة التي يجرها اثنان من حيوانات البانث، وتحمل المهاد الذي تتكأ عليه فالا ديا. سار خلفها دار تاروس، على أن الجميع داخل تلك الغرفة كانوا يعتقدون أنهم يتطلعون إلى ظاظا الجيدارة والشخص الأثير بالنسبة

لها: ساج أور. وسار هوفان دو خلف ساج أور، وتلاه خمسون شابًّا وخمسون فتاة.

توقفت العربة أمام المذبح، ونزلت منها فالا ديا وركعت. سكتت الأصوات التي تردد أناشيد مديح ظاظا، حيث مدت المخلوقة الجميلة يديها نحو طور العظيم ونظرت إلى وجهه.

صاحت: «نحن مستعدون، سيدي! تحدث! نحن ننتظر كلمة طور!».

ارتفع لهاث من الحشد الراكع، لهاث انتهى بتنهدات. شعرت بحماسهم وأن كل شيء يمكن أن يمضي دون عقبات. وضعت أنبوب التخاطب على شفتي.

قلت بصوت كالرعد، أخاف الحضور: «أنا طور! جئت لأصدر حكمي على شعب فوندال. قد تزدهرون أو تهلكون، حسبما تستقبلون كلمتي. يمكن التكفير عن خطايا الشعب، وذلك من خلال اثنين أرى أنهما اقترفا أكبر الخطايا». قمت بتحريك أعين طور حول الجمهور، حتى استقرت عند فالا ديا. «ظاظا، هل أنتِ مستعدة للتكفير عن خطاياكِ وخطايا شعبكِ؟».

أحنت فالا ديا رأسها الجميلة، وأجابت: «إرادتك هي القانون، يا سيدي!».

واصلت كلامي: «وأنت ساج أور. لقد أخطأت. هل أنت مستعد للتكفير عن خطاياك؟».

قال دار تاروس: «كما يأمر طور».

أعلنت بصوت مدوٍّ: «إنها إرادتي أن تُعيد ظاظا وساج أور الأجسام الجميلة التي يرتدونها الآن إلى أصحابها؛ وأن الشخص الذي أخذ ساج أور جسمه يصبح جيداك فوندال والكاهن الأعلى لطور؛ وأن تعود الإنسانة التي سرقت ظاظا جسمها إلى بلدها الأصلي في موكب عظيم. لقد تحدثت. فليتكلم الآن كل من يخالف كلمتي أو يصمت إلى الأبد».

لم يصدر أي اعتراض؛ وكنت أشعر بيقين أنهم لن يعترضوا. وأشك أن أي إله قد نظر من قبل إلى قطيع أكثر هدوءًا وتأدبًا مثل هذا القطيع. خلال حديثي، نزل جور هاجوس إلى قاعدة الصنم وأزال القيود من قدمي وساقي ظاظا وساج أور.

أصدرت أوامري: «آمركم بإطفاء الأنوار!». أطاع كاهن مرتجف أمري.

كانت فالا ديا ودار تاروس يقفان متجاورين أمام المذبح عندما انطفأت الأنوار. قاما مع جور هاجوس بعملها سريعًا خلال دقيقة، بحيث عندما سمعت صوت صفارة منخفض من داخل قاعدة الصنم -وهي الإشارة المتفق عليها مسبقًا للدلالة على أن جور هاجوس انهى مهمته- أمرت بإعادة الأضواء مرة أخرى. وهناك، كان يقف كل من ظاظا وساج أور في نفس الموقع الذي وقف عنده من قبل كل من فالا ديا ودار تاروس، اللذين اختفيا حاليًا من المشهد. أعتقد أن التأثير الدرامي لهذا التبديل على الشعب كان مذهلًا أكثر من أي شيء آخر رأيته على الإطلاق. لا توجد أي قيود أو كمامات على ظاظا أو ساج

أور، أي شيء يدل على إحضارهما إلى هنا بالقوة –فمن الذي يمكنه ذلك. كانت الخدعة مثالية– كانت لمحة تشير إلى قدرة كلية أذهلت ببساطة العقل. لكني لم أتوقف.

قلت: «كنت سمعتم ظاظا تتخلى عن عرشها، وساج أور يستسلم لحُكم طور».

صاحت ظاظا: «أنا لم أتخلَّ عن عرشي! إنها ...».

قلت بصوت كالرعد: صمتًا! عليكم الاستعداد لتحية جيداك فوندال الجديد، دار تاروس!»، ثم أدرت عيني نحو الأبواب الكبيرة وتبعتني أعين الحشد. تأرجحت الأبواب مفتوحة لتكشف عن دار تاروس يقف متألقًا في أغطية وزخارف هورا سان، الجيداك والكاهن الأكبر الذي مات منذ فترة طويلة جيداك وسرقنا عظامه في قاعدة التمثال منذ ساعة. لا أعرف كيف استطاع دار تاروس إجراء التبديل بهذه السرعة، لكنه فعلها وكان التأثير هائلًا. كان يشبه كل شبر من الجيداك؛ يتحرك ببطء ومهابة على طول الممر الواسع فوق السجادة ذات الألوان البيضاء والزرقاء والذهبية. تحولت ظاظا إلى اللون الأرجواني وهي غاضبة، وصرخت: «الدجال! أمسكوا به! اقتلوه!»، وركضت نحوه كأنما لتقتله بيديها العاريتين.

«خذوها بعيدًا»، قال دار تاروس بصوت هادئ، وعندئذ سقطت ظاظا غاضبة على الأرض. صرخت ولهثت، ثم رقدت ساكنة– امرأة عجوز شريرة، ماتت بسكتة دماغية. وعندما رآها ساج أور مُمددة، ربما كان أول من أدرك أنها ماتت، ولا يوجد الآن من يحميه من الكراهية

الموجهة دائمًا نحو الشخص الأثير لدى الحاكم. نظر حوله بهياج للحظة، ثم ألقي بنفسه تحت أقدام دار تاروس.

صرخ: «لقد وعدت بحمايتي!».

أجاب دار تاروس: «لن يؤذيك أحد، اذهب في طريقك وعِش في سلام». ثم رفع عينيه إلى أعلى، نحو وجه طور، قائلًا: «ما إرادتك، سيدي؟ إن خادمك دار تاروس ينتظر أوامرك!».

تركت فرصة لتأثير الصمت المؤثر قبل أن أجيب.

«دع كهنة طور، والنبلاء الأقل مرتبة، وعدد معين من حرس الجيدارة، يتوجهون إلى المدينة وينشرون كلمة طور بين الناس، ويخبرونهم أن طور يبتسم مرة أخرى في فوندال، وأنه يوجد الآن جيداك جديد يعمل لصالح طور. ودع النبلاء الأعلى مرتبة يحضرون الآن إلى غرف ظاظا السابقة لأداء مراسم الشرف لفالا ديا، حيث حكمت الجيدارة ذات يوم مرتدية جسمها المثالي، وبدء الترتيبات اللازمة لعودتها سالمة إلى دوهور، مدينتها الأصلية. سوف يجدون هناك أيضًا اثنين خدما طور جيدًا، ولذا يجب منحهما ضيافة وصداقة كل فوندالي - إنهما جور هاجوس من تونول، وفاد فارو من جاسوم. اذهب! وعندما يخرج آخر شخص، اتركوا المعبد مظلمًا. أنا طور، وقد تحدثت!».

كانت فالا ديا قد توجهت مباشرة إلى شقق الجيدارة السابقة. وفي لحظة إطفاء الأضواء، انضممت إليها ومعي جور هاجوس. لم تطق صبر الانتظار لتسمع نتائج حيلتنا. وامتلأت عيناها بدموع الفرح عندما أكدت لها أننا لم نواجه أي عقبات.

همهمت: «لقد أنجزت المستحيل، يا قائدي، وأستطيع أن أرى بالفعل تلال دوهور وأبراج مدينتي الأصلية. آآه، فاد فارو، لم أحلم أن الحياة قد تحمل لي ثانية مثل هذه التوقعات السعيدة. أنا مدينة لك بالحياة، وأكثر من الحياة».

قاطعنا مجيء دار تاروس، ومعه هوفان دو وعدد من نبلاء المرتبة الأعلى الذين استقبلونا بسرور، على الرغم من اعتقادي أنهم كانوا متحيرين بشأن كيفية اتصالنا بخدمة إلاههم، كما أنني على يقين أن أحدًا لن يعرف أبدًا. كانت سعادتهم واضحة بالتخلص من ظاظا؛ وفي حين أنهم لم يتمكنوا من فهم غرض طور في رفع مستوى محارب سابق في الحرس إلى العرش، فقد كان يسعدهم ذلك لأنه قد يمنع عنهم غضب إلاههم، الذي أصبح الآن إلهًا حقيقيًّا ورهيبًا لما شاهدوه من معجزات في المعبد. وقد خفف انتماء دار تاروس إلى عائلة نبيلة من حرجهم، وقد لاحظت أنهم عاملوه باحترام كبير. كنت متأكدًا أنهم سيواصلون معاملته على هذا النحو؛ لأنه كان أيضًا الكاهن الأعلى، وسوف يجلب -لأول مرة منذ مائة عام- إلى طور العظيم في المعبد الملكي صوت الإله؛ إذ وافق هوفان دو على أداء الخدمة مع دار تاروس، كما وافق جور هاجوس أيضًا، ولذا لن يفتقروا أبدًا إلى لسان يتحدث به طور. إنني أتوقع إمكانيات عظيمة لعهد دار تاروس، جيداك فوندال.

تقرر في الاجتماع الذي عُقِد في شقق ظاظا أن فالا ديا تحتاج إلى الراحة لمدة يومين في فوندال، بينما يستعد أسطول صغير لنقلها إلى دوهور. خصص لها دار تاروس شقق ظاظا، وعبيدًا من مدن مختلفة

لرعايتها، حيث سيحررهم جميعًا ويعودون مع فالا ديا إلى بلدها الأصلي.

كان الوقت فجرًا تقريبًا، قبل أن نسعى لحرير وفراء النوم، وارتفعت الشمس في السماء قبل أن نستيقظ. تناولت وجبة الإفطار مع جور هاجوس وفالا ديا، حيث وضعنا سرائرنا خارج باب غرفتها حتى لا نتركها دون حماية للحظة. وما إن انتهينا من وجبتنا، حتى جاء رسول من دار تاروس يستدعينا إلى القاعة العامة. وجدنا هناك بعض ضباط البلاط من الرتب العليا، متجمعين حول العرش الذي جلس عليه دار تاروس، وهو يبدو كإمبراطور. استقبلنا بلطف، حيث وقف ونزل من المنصة لاستقبال فالا ديا ورافقها إلى أحد المقاعد التي وضعت بجوار العرش لها ولي.

قال لي: «لقد حضر شخص إلى فوندال ليلًا ويلتمس الآن مقابلة الجيداك- شخص أعتقد أنك قد ترغب في رؤيته ثانية»، ثم أشار إلى أحد مساعديه بإدخال هذا الشخص. وعندما فتحت الأبواب في الجهة المقابلة من الغرفة، رأيت راس ثافاس واقفًا هناك. لم يتعرف عليَّ أو على فالا ديا أو جور هاجوس إلى أن وصل تقريبًا عند العرش، وعندئذ نظر بحيرة ثم ألقى لمحة أخرى سريعة إلى دار تاروس.

أعلن الضابط: «راس ثافاس من برج ثافاس، تونول».

سأل دار تاروس: «ماذا يريد راس ثافاس من جيداك فوندال؟».

أجاب راس ثافاس: «أتيت لمقابلة ظاظا، ولم أكن أعرف بوفاتها أو ارتقائك العرش حتى صباح اليوم؛ لكني أرى ساج أور على عرش

ظاظا وبجانبه من تصورت أنها ظاظا، على الرغم من أنهم أخبروني أن ظاظا ماتت؛ كما أرى من كان مساعدي في ثافاس، وأرى قاتل تونول، وأشعر بالحيرة، يا جيداك، ولا أعرف ما إذا كنت بين أصدقاء أم أعداء».

قال له دار تاروس: «تحدث كأنما ظاظا لا تزال تجلس على عرش فوندال؛ وعلى الرغم من أنني دار تاروس، الذي ظلمته، ولست ساج أور، فلا تخشَ شيئًا في بلاط فوندال».

«اسمح لي إذَنْ أن أقول لك إن فوبيس كان، جيداك تونول، بعد أن عرف بفرار جور هاجوس من عندي، أقسم أنني أطلقت سراحه لاغتياله، وأنه أرسل محاربين استولوا على جزيرتي، وكان ليسجنني إن لم أتمكن من الهرب في الوقت المناسب، وقد جئت إلى هنا إلى ظاظا لأتوسل إليها إرسال محاربين لإبعاد رجال تونول من جزيرتي واستعادتها لي بحيث يمكنني مواصلة جهودي العلمية».

استدار دار تاروس نحوي: «فاد فارو، أنت من بين الجميع أكثر درايةً بأعمال راس ثافاس. هل ترى أن يستعيد جزيرته ومختبره مرة أخرى؟».

أجبت: «بشرط أن يكرس مهارته العظيمة لتخفيف المعاناة البشرية، ويكف عن المتاجرة بمهارته لأغراض الجشع والخطيئة الكريهة». أدى ذلك إلى نقاش استمر ساعات، وأسفر عن نتائج مهمة بعيدة المدى. وافق راس ثافاس على كل ما طلبته، وقام دار تاروس بتكليف جور هاجوس بقيادة جيش ضد تونول.

بيد أن هذه الأمور، مع فائدها العظمى للمعنيين بها مباشرة، لا تؤثر

بشكل مباشر على قصة مغامراتي في برسوم، فلست جزءًا منها؛ لأنني في اليوم الثاني ركبت على متن طائرة مع فالا ديا، يرافقنا أسطول فوندال، وتوجهنا إلى دوهور. صاحبنا دار تاروس لمسافة قصيرة، وودعنا عندما توقف الأسطول عند ضفة المستنقع الكبير، وكان على وشك صعود سطح سفينته والعودة إلى فوندال عندما دوت صرخة من سطح إحدى السفن الأخرى، وسرعان ما علمنا أن نقطة المراقبة رصدت ما يبدو أسطولًا كبيرًا في الجنوب الغربي. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يصبح ذلك الأسطول مرئيًّا بواضوح لنا جميعًا، كما اتضح أيضًا بجلاء أنه يتجه إلى فوندال.

أخبرني دار تاروس أنه بقدر ما يؤسفه ذلك، ما من بديل سوى العودة فورًا إلى عاصمة بلده مع الأسطول كاملًا، نظرًا لأنه لا يستطيع الاستغناء عن سفينة واحدة أو رجل واحد إذا ثبت عداء الأسطول الذي رأيناه، كما لا يمكنني أو فالا ديا الاعتراض. وهكذا أدرنا سفينتا بأقصى ما تسمح به السفن البطيئة في فوندال، متجهين إلى المدينة.

رصدنا الأسطول الغريب في نفس وقت مشاهدتنا له، ورأيناه يُغير مساره ويتجه نحونا. وعندما زاد اقترابه منا، اصطفت سفنه استعدادًا لتطويقنا. كنت أقف بجانب دار تاروس عندما أصبحت ألوان الأسطول المقترب أكثر وضوحًا، وهنا عرفنا أنه من هيليوم.

أصدر دار تاروس توجيهاته: «أعطوا إشارة واسألوا إن كانوا قادمين بسلام».

وجاء الرد: «نحن نسعى إلى التحدث مع ظاظا، جيدارة فوندال. أما

مسألة السلام أو الحرب، فهي من سيتخذ قرارها».

«أخبروهم أن ظاظا ماتت وأنني دار تاروس، جيداك فوندال، سوف أستقبل قائد أسطول هيليوم في سلام على سطح هذه السفينة، أو سوف أستقبله في حرب بجميع أسلحتي. أنا، دار تاروس، قد تحدثت!».

انطلقت من مقدمة إحدى السفن الكبيرة في أسطول هيليوم راية الهدنة، وعندما أجابت سفينة دار تاروس برد مماثل، اقتربت سفينة هيليوم بحيث أصبحنا الآن نرى رجالها على أسطحها. اقتربت السفينة الكبيرة ببطء بجانب سفينتنا الأصغر حجمًا، وسرعان ما صعد ضابطان إلى سفينتنا. كان الرجان يتمتعان بمظهر جيد، وعلى رأسهم رجل تعرفت عليه على الفور على الرغم من أنني لم أره أبدًا من قبل. أعتقد أنه كان أكثر شخصية رأيتها إثارة للإعجاب، وهو يتقدم ببطء على سطح السفينة تجاهنا – إنه جون كارتر، أمير هيليوم، وأمير الحرب في برسوم.

قال: «دار تاروس، يقدم لك جون كارتر التحية وفي سلام، على الرغم من أن كان ليختلف إذا كانت ظاظا لا تزال تحكم».

سأل دار تاروس: «هل جئت للحرب ضد ظاظا؟».

أجاب أمير الحرب: «لقد جئنا لتصحيح وضع خاطئ. ولكن مما نعرفه عن ظاظا، لم يكن ممكنًا تحقيق ذلك إلا بالقوة».

سأله دار تاروس: «وما الخطأ الذي ارتكبته فوندال ضد هيليوم؟».

– كان الخطأ ضد أحد رجالك– بل ضدك شخصيًّا.

قال دار تاروس: «أنا لا أفهم».

أجاب جون كارتر وهو يبتسم: «يوجد شخص على متن سفينتي يمكنه أن يشرح لك، دار تاروس»؛ ثم استدار وتحدث إلى أحد مساعديه في همس، وبعدها قدم المساعد التحية وعاد إلى سطح سفينته. «سوف تشاهد بعينيك، دار تاروس». وفجأة ضاقت عيناه. «أهذا هو دار تاروس بالفعل، الذي كان من محاربي حرس الجيدارة، ومن المفترض أنه اغتيل بناء على أوامرها؟».

أجاب دار تاروس: «نعم».

قال أمير الحرب: «يجب أن أتأكد».

تحدثت باللغة الإنجليزية: «ما من شك في ذلك، جون كارتر».

اتسعت عيناه. وعندما نظر نحوي جيدًا، لاحظ لون بشرتي الفاتح، حيث كان لون الصبغة آخذًا في التلاشي، تقدم نحوي وهو يرفع يده.

وتساءل: «هل أنت ابن بلدي؟».

قلت: «نعم، أنا أمريكي».

فقال: «أنا مندهش. ولكن لماذا أندهش؟ لقد عبرت أنا نفسي، ولا يوجد أي سبب لعدم عبور الآخرين. وها أنت تحقق ذلك! يجب أن تأتي إلى هيليوم معي وتقص لي كل شيء».

انقطع الحديث بعودة المساعد، الذي جلب معه امرأة شابة. أطلقت الشابة صيحة فرح ما إن رأت دار تاروس وقفزت نحوه، ولم أكن في حاجة إلى أن يقولوا لي إنها كارا فاسا.

لن يتبقَّ الكثير الذي يمكنني إخبارك بي دون أن أشعركم بالملل:

كيف أخذني جون كارتر نفسه ومعي فالا ديا إلى دوهور بعد حضور زفاف دار تاروس وكارا فاسا؛ وعن المفاجأة الكبرى التي كانت تنتظرني في دوهور، حيث علمت للمرة الأولى أن كور سان، جيداك دوهور، هو والد فالا ديا؛ وعن التكريم والثروات الهائلة التي منحها لي عند زواجي من فالا ديا.

حضر جون كارتر حفل الزفاف، وبدأنا في برسوم عادة أمريكية قديمة جيدة، حيث اتخذ أمير الحرب دور الإشبين؛ ثم أصر على أن نمضي شهر العسل في هليوم، وها أنا أكتب لك من هناك.

ويبدو حتى الآن وكأنه حلم أنني عندما أنظر من نافذتي وأرى البرجين القرمزي والأصفر لمدينتي هيليوم التوأم؛ وأنني قابلت، وأرى يوميًّا، كارثوريس وثوفيا البتارثية، وتارا الهيليومية، وجاهان الجاثولي، وتلك الإنسانة منقطعة النظير، ديجاه ثوريس، أميرة المريخ. وعلى الرغم من جمالها، هناك امرأة آخرى أكثر جمالًا – فالا ديا، أميرة دوهور وهي الآن السيدة أوليسيس باكستون.

* * *